الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والارشاد القومى
الإقليم المصرى

# تخليص الإبريز فى تلخيص باريز

تأليف
المغفور له


## رفاعة رافع الطهطاوى

رائد الحركة الفكرية
١٢١٦ هـ — ١٨٠١ م
١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م


أشرف على إخراج هذا الكتاب ، وحققه ، وعلق عليه ، وقدم له


الدكتور مهدى علام
عميد كلية الآداب
بجامعة عين شمس

الدكتور أحمد أحمد بدوى
الأستاذ المساعد
بكلية دار العلوم

الدكتور أنور لوقا
المدرس بكلية الآداب
بجامعة عين شمس

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
الإقليم المصرى

# تخليص الإبريز في تلخيص باريز

تأليف
المغفور له
رفاعة بدوى رافع الطهطاوى

أشرف على إخراج هذا الكتاب ، وحققه ، وعلق عليه ، وقدم له


الدكتور مهدى علام
عميد كلية الآداب
بجامعة عين شمس

الدكتور أحمد أحمد بدوى
الأستاذ المساعد
بكلية دار العلوم

الدكتور أنور لوقا
المدرس بكلية الآداب


شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر



رفاعة رافع الطهطاوى

# مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

من الرجال من ترتبط حياته بحقبة معينة ، وتتصل أعماله بما يشغل زمنه أوثق اتصال ، ويتشكل مصيره بمغزى الأيام التى عاشها ، فإذا هو جزء من التاريخ ، تطور تطوره ، ونما نموه ، وإذا هو يبدو أمامنا وكأنه قد تقمص عصره وجسمه لنا فى صورة إنسان . من الرجال من خصصت له أمته دورا كبيرا وانتظرته ليؤديه ، فأقبل فى الموعد المحدد ، وأظهر من الجدارة ما يعادل الأمل المعقود عليه ، واستطاع أن يضطلع بمهمته حتى يكملها على خير وجه . من هؤلاء الرجال « رفاعة رافع الطهطاوى » ؛ فقد وجدت فيه مصر صانع نهضتها حينما أفاقت فى فجر القرن التاسع عشر .

ما كاد ذلك القرن يبلغ عامه الأول حتى ولد رفاعة . وكانت الأقدار قد شاءت أن تجعل من هذا المولود — عندما يبلغ عمره ربع قرن — رحالة ترسله من الأزهر إلى باريس ، ليعود ببذور النهضة الفكرية ويخرج مصر من ظلمات العصور الوسطى . بدأت الأقدار فدفعته ، وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، إلى مغادرة مسقط رأسه وراء أبيه الذى فر إلى قنا وفرشوط من الضائقة الاقتصادية التى أصابت الأسرة فى طهطا . تنقل الغلام إذن من قرية إلى قرية ؛ تارة على ظهر مطية من ذوات الأربع ، وتارة « على ظهر النيل المبارك » ، وتارة أخرى ماشيا على قدميه . فلما بلغ السادسة عشرة من عمره ، صحبته الأقدار إلى القاهرة ، ليدرس فى الأزهر ، اقتداء بأخواله العلماء الشيخ فراج الأنصارى والشيخ أبى الحسن الأنصارى والشيخ محمد الأنصارى ، وهم الذين تولوا تربيته فى طهطا بعد وفاة والده . ولم تكن الرحلة من طهطا إلى القاهرة سنة ١٨١٧ بالأمر الهين ، بل كانت تستغرق نحو أسبوعين شاقين من الملاحة البدائية ، وكانت فى نظر أهل ذلك العصر مغامرة جريئة .

وفى الأزهر شاءت الأقدار أن يتتلمذ الفتى الصعيدى على رجل رحالة ، وأديب مرموق هو الشيخ حسن العطار ، الذى كان يمتاز من بين أساتذة ذلك العهد بعقلية تقدمية تستطلع الحديث وتؤمن بالتطور. كان حسن العطار عالما ، نتيجة لميله ورغبته ، فقد أحب العلم ونزع إليه على الرغم من إرادة أبيه الذى كان يود أن يورثه تجارته وعطارته . لذلك أصبح العلم لديه معرفة توسع الفكر ؛ لا استظهارا واجترارا وتكرارا. لقد احتل التفكير فى تدريسه محل الحفظ ، واحتلت الحركة فى حياته مكان الجمود . كان قد اتصل به بعض ضباط بونابرت ليتعلموا اللغة العربية ، فلم يحتقرهم ولم ينبذهم ، بل جاورهم وحاورهم ، وعلمهم وتعلم منهم . فطن إلى أهمية كتبهم التى لاحظ — دون أن يستطيع قراءتها — أنها كتب منوعة تعالج شتى موضوعات الدنيا ، وفطن إلى أهمية منهجهم المتحرر من منطق القرون الوسطى ، وبساطتهم المباشرة فى التعبير عن أفكارهم ، وأحس وتنبأ بضرورة تجديد الحياة العقلية فى القاهرة ، وكان مولعا بالجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش طريفة على كتاب « تقويم البلدان » لأبى الفداء ، وكان يتحدث عن كثير من المدن حديثا شخصيا ممتعا ، فقد جال فى فلسطين وتركيا وأقام طويلا فى دمشق .

وشاءت الأقدار أن يؤدى هذا الأستاذ المستنير أخطر دور فى حياة رفاعة ؛ فقد بلغ رفاعة فى عام ١٨٢٦ الخامسة والعشرين من عمره ، وبلغ أيضا أقصى ما يستطيع أن يناله فى مصر فتى مثله ، فتصدى للتدريس بالأزهر ، واشتغل إماما لبعض فرق الجيش ولاحت فى حياته مرحلة الاستقرار ، بعد أن انتهت مرحلة التحصيل . ولو قد اتصلت حياة رفاعة على ذلك النحو ، لكان من المرجح ألا نسمع عنه شيئا ، ولما طابق مصيره مجرى التاريخ . فكم من أمثاله ولدوا فى طهطا وفى غير طهطا ، ثم تعلموا فى الأزهر على حسن العطار وعلى غير حسن العطار ، ثم اشتغلوا أئمة فى الجيش أو فى غير الجيش ثم ذهبوا دون أن يتركوا أثرا :

فى ربيع ذلك العام ، انتهز « محمد على » فرصة مرور السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » ( La Truite ) فكلف قبطانها « روبيار » (Robillard) أن يحمل

معه إلى مرسيليا أربعين شابا ليدرسوا فى باريس (١) . وينبغى أن نذكر فى وضوح أن رفاعة رافع الطهطاوى لم يرسله إلى فرنسا محمد على وإنما أرسله الشيخ حسن العطار .

كان محمد على لا يثق بالمصريين ، وكان يتخذ أعوانه من الأجانب يشتريهم صغارا كما كانت تشترى المماليك ، ويسلمهم فى القلعة إلى شخص موصلى يدعى « حسن أفندى الدرويش » ومن بعده إلى شخص آخر تركى يدعى « روح الدين أفندى » ليتعلموا الخط والحساب واللغة التركية إلى جانب التمرينات العسكرية . وقد اعترف محمد على بذلك صراحة للقنصل الروسى (٢) . وهناك من الوثائق المحفوظة الآن فى القصر الجمهورى بعابدين مالا يدع مجالا للشك فى اتجاهه إلى تكوين طبقة أرستقراطية مشتراة بالمال ؛ تدين له وحده بالولاء ، ويحكم بواسطتها البلاد . لم يدخل مدرسة القلعة إذن إلا عدد محدود من الصبية الأتراك والشراكسة والجيورجيين والأكراد والأرمن . ومن هذا الخليط العثمانى انتخب محمد على معظم أعضاء بعثته ، دون مراعاة لما ينبغى أن يتحقق فى طالب العلم من شروط الذكاء وحداثة السن والاستعداد . وحينما أوشكت البعثة على السفر ، أشار حسن العطار على الوالى بأن يضيف إلى الطلبة إماما يسهر على شئون دينهم فى تلك البلاد البعيدة ، فلم يستطع محمد على أن يرفض هذا الاقتراح . وهكذا عين حسن العطار تلميذه رفاعة إماما للبعثة .

وفى باريس ، اهتم « جومار » (Edme - Francois Jomard) ، مدير البعثة ، بالشيخ الإمام ، وجعله موضع عنايته الخاصة . كان « جومار » مهندسا جغرافيا من علماء الحملة الفرنسية الذين اصطحبهم « بونابرت » إلى ضفاف النيل ، وهو الذى

---

(١) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس : Ccrrespondance Consulaire, Le Caire Vol. 26, Fo. 282, Le 4 Avril 1826

(2) René Cattaoui : Le règne de Mohamed Aly d'après Les arehives russes en Egypte. Le Caire, 1931. I, pp. 425 – 426.

أشرف فيما بعد على نشر الكتاب الضخم الذى ضم دراسات أولئك العلماء بعنوان « وصف مصر » ( Description de l'Egypte ) .. وقد أصبح « چومار » رئيسا للجمعية الجغرافية ، وعضوا فى «المعهد الفرنسى» (Institut de France) ، ومحركا لكثير من الهيئات الثقافية والتربوية . ولم ينقطع اهتمامه بمصر ، بل اتصل مرارا بواليها الجديد « محمد على » ، وأفلح فى اجتذاب بعثاته إلى باريس وكانت قد اتجهت فى أول الأمر نحو إيطاليا .

توسم « چومار » فى رفاعة الذكاء ، فوجهه إلى الإفادة من رحلته بدراسة اللغة الفرنسية ، وترجمة مبادئ العلوم ، وإنشاء كتاب عن مشاهداته فى باريس ، لعل هذا الفتى الصعيدى أن يصير همزة الوصل المنشودة بين ثقافة الغرب وعقلية الشرق .

وبعد أن أمضى رفاعة فى باريس خمس سنين عامرة بالاطلاع والتفكير والتحصيل بين الأساتذة والمستشرقين وأهل العاصمة الفرنسية وأئمة الحضارة الحديثة ، عاد إلى وطنه سنة ١٨٣١ زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزا لعمل خطير هو إصلاح المجتمع المصرى بتعليم الشعب وتنوير العقول . عاد ليدرس وينشئ المدارس ، ويصنع من تلاميذه مدرسين للجيل الصاعد ، وراح يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ويصنع من تلاميذه مترجمين يتواون معه وتحت إشرافه ومن بعده نقل ذلك الكنز المفتوح ، ومضى يكتب ويخطب ، وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والاقتصاد والسياسة ، يهدم الآراء الفاسدة ويبث أفكار التقدم ، ويبصر أمته بروعة ماضيها وخصب حاضرها ورجاء مستقبلها ، لا يكل فى ذلك نشاطه على الرغم مما يقيده به محمد على ، ولا تفتر همته حين نفاه عباس إلى السودان ، بل واصل رسالة الارتقاء التى آمن بها ، فى جميع الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية سنة ١٨٧٣ . إنه رائد عملاق ، لولاه ولولا الفريق الذى رباه لظلت مصر متخلفة نصف قرن آخر . ما أصدق ذلك الكتاب الذى لم يكتب بعد وعنوانه «رفاعة رافع الطهطاوى أو نهضة مصر ! »

* * *

تتجلى فى خبرة رفاعة تلك الظاهرة الكبرى التى يمتاز بها تاريخ مصر فى القرن

التاسع عشر ، ألا وهى الاتصال بالحضارة الغربية . إن رحلة رفاعة إلى باريس هى أول علاقة مثمرة بين الشرق والغرب فى العصر الحديث . أجل ، لقد تبادل الشرق وأوروبا التجارة والسفراء منذ القرون الوسطى ، ولكن إقامة التجار والسفراء الأوروبيين بين ظهرانينا لم تنتج قط امتزاجا إنسانيا عميق الأثر . ثم انطوت مصر على نفسها ، حين دهمها الأتراك فى القرن السادس عشر ، فباتت فى ظلامها تجهل أنوار الفجر الجديد الذى طلع إذ ذاك على أوروبا . وامتد سباتنا حتى أيقظتنا فى آخر القرن الثامن عشر طلقات مدافع بونابرت .

كانت الحملة الفرنسية لقاء عنيفا بين أبناء الغرب وأبناء الشرق ، ولم يتح لها قصر الأجل ولا روح المقاومة الشعبية من الاستقرار ما يؤدى إلى اتصال جليل النفع . وللرد على مبالغات بعض المؤرخين فى تقدير النتائج المباشرة لتلك الحملة على مصر(١) يكفينا أن نذكر الجبرتى ، فإن هذا الرجل الذى يعتبر من أكبر علماء عصره ، لم يستطع أن يدرك شيئا من علوم الفرنسيين ، بل إنه لم يحاول أن يتفهم ما شهد من تجاربهم الكيميائية والطبيعية البسيطة ، وقنع فى آخر الأمر بإبداء دهشته وعجزه ، إذ يقول : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا »(٢).

وخطت مصر خطوتها التالية فى سبيل الاتصال بالغرب عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد « الإفرنج » : شعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا ومن التاريخ ، وأحس بروعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته . ووضعه « جومار » فى مركز المعارف الجديدة ، فأقبل عليها ، وأفاد أكبر فائدة من التوفيق الذى حظى به ، فأصبحت

---

(١) كراسات التاريخ المصرى . فبراير ١٩٥٥ : Anouar Louca: «La Renaissance: Egyptienne et les limites de l' Oeuvre. de Bonapart » . Cahiers d' Histoire Egyptienne le Caire , Sèr.VII, Fasc . 1 , fèvrier 1955 , pp . 1 - 20 .

(٢) راجع عبد الرحمن الجبرتى : « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ . الجزء الثالث ص ٣٥ وما يليها .

رحلته هى أول صورة كاملة للقاء الشرق والغرب أمامنا ، وأتحفتنا تجربته بجميع نتائج الإخصاب ؛ لأنها تمت فى ظروف مواتية .

* * *

لهذه التجربة الفريدة سجل ثمين ، كتبه بطلها نفسه فى أثناء إجرائها ، وعرف قيمته قبل أن نعرفها اليوم ، فسماه « الديوان النفيس » بعد أن عنونه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » . ترى ما مصدر الشغف الذى يجده قارئ هذا الكتاب بعد قرن وربع قرن من نشره ؟ إن أهميته « تخليص الإبريز » ترجع إلى غزارة مادته ، وتعدد دلالته بالنسبة لنا :

قد يكون هذا الكتاب أوفى مصدر مباشر لدراسة البعثة التعليمية المصرية التى أرسلت إلى باريس عام ١٨٢٦ . على أنه فى الوقت نفسه قصة شائقة تروى رحلة طريفة . وتلك القصة تشبه فى بعض سياقها تقريرا يرفعه إلى حكومة مصر طالب عن بعثته راح يستعرض موضوعات دروسه وامتحاناته ، وهى تفاصيل تطلعنا على مراحل تطور عقل الكاتب ونضجه طوال خمس سنين . ولكنه تقرير أشمل من قائمة بنشاط طالب مجتهد ، فالكتاب بجملته تقرير جامع عن باريس باعتبارها عاصمة الحضارة الأوروبية . ومن وراء صورة فرنسا نستشف صورة مصر ، إذ تبدو معالمها خلال الموازنات والحسرات والأمانى التى تلح على قلم المؤلف ، وتلك صورة لمصر فى نهضتها كما التقطها فتى من أبنائها الأبرار . والكتاب يعكس لنا أيضا صورة هذا الفتى وهو ينتقل من الشباب إلى الرجولة ، فنحن نعيش معه فى هذه الصفحات حقبة من أهم حقب حياته ، نشاطره مطالعاته ومناقشاته ونزهاته ، ونعجب بدأبه وإخلاصه ، ونعرف ذوقه الأدبى وقريحته الجادة مع ميله إلى الفكاهة ، وتقواه التى توازى بل تفوق إيمانه بالمدنية والارتقاء . ويقدم لنا « تخليص الإبريز » فضلا عن ذلك ، ملخصا ممتازا لجميع أعمال رفاعة المقبلة ، كما راودته مشروعاتها فى باريس . فكثيرا ما تبدأ جهود المصلحين بالأحلام والرؤى ، ونستطيع هنا أن نتتبع أحلام المواطن الصعيدى ، والطالب الذكى ، والمترجم والأديب . والكتاب فوق هذا كله — بما يحمل من أفكار

جديدة فى أسلوب جديد — تاريخ يؤرّخ فى الأدب المصرى الحديث ، فهو يعلن انقضاء عصر الركود العثمانى، ويبشر بازدهار فنون أدبنا المعاصر .

وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب الزاخر بالمعانى التاريخية والاجتماعية والشخصية والأدبية ، فقد خيم عليه طويلا ظل النسيان أو الإهمال ، ولا يكاد يذكره شباب اليوم إلا ليتندروا بعنوانه المسجوع !.

***

ومن الحق أن يستوقفنا ذلك العنوان قبل أن نشرع فى قراءة الكتاب ، فالجناس المصحف بين كلمتى « تخليص » و «تلخيص» ، ثم بين كلمتى « إبريز » و « باريز » ، يقرع سمعنا بجرس منظوم ، وسجع مرقوم . ويدعونا إلى الابتسام من صنعة قديمة قوامها التكلف والافتعال . وهل يقنع المؤلف بهذا العنوان المطرب ؟ إنه يصوغ عنوانا ثانيا تشهد فيه ألفاظ أخرى ، متجانسة مسجوعة ، ببراعة الفنان وحذقه . « الديوان النفيس بإيوان باريس! » ولا عجب ، فقد كانت الصناعة اللفظية وإجادة الألعاب الإنشائية هى خير صفات الكاتب فى نهاية عصر الانحلال بعد أن انعدم الاهتمام بالفكرة، ولم يكن بد للأديب من إظهار مهارته فى اللعب بالألفاظ حتى يكون أديبا . فكأنى برفاعة يتحدى قارئه بهذا الإتقان ، ويغتصب إقباله على الكتاب اغتصابا .

على أن كلمة غريبة تبرز فى هذا العنوان المثنى العتيق ، كلمة مجهولة لم تظهر فى اللغة العربية حتى أول القرن التاسع عشر ، هى اسم العاصمة الفرنسية . فلم يذكر « باريس » إلا « نقولا الترك » الذى عاصر حملة بونابرت وأرخ لها . ويبدو من تردد رفاعة فى كتابة هذا الاسم بين السين والزاى ، أنه يخطه بالحروف العربية للمرة الأولى وسواء كتب « باريس » أو « باريز » ، فهو ينظم الكلمة الجديدة فى سلك عنوانه ، ويحرص على وضعها موضع القافية من الشعر، حتى تمتد موسيقاها فى أذن السامع ، وتقع لديه أهم موقع . وإنها لظاهرة طريفة ، تروعنا بغزارة معناها . « باريس » التى ترمز إلى حضارة العالم الحديث تتجاوب مع ألفاظ عبارة عربية بالية ، على غلاف كتاب كبير الحجم ... هنا لقاء القديم والجديد ، لقاء الشرق والغرب .

***

وحسبنا أن نلقى على الصفحات الأولى نظرة سريعة حتى تتضح لنا عناصر هذا الكتاب الكثيف المادة ، الذى تختلط بمتنه أشعار دخيلة ، ونصوص مترجمة متباينة :

ها هو ذا الشيخ حسن العطار ، شيخ الجامع الأزهر ، يقرظ بقلمه الرصين هذا الكتاب عن باريس ، فى أول صفحة منه . إنه لسعيد بأن يقدم للجمهور عمل تلميذه . ولا يعدو تقريظه فقرة واحدة من النثر المسجوع المتكلف ، الجميل بحسب مقاييس الكتّاب الفنية فى تلك الأيام · ترى هل صدّر المؤلف الشاب كتابه الداعى إلى أفكار جديدة بثناء شيخ الأزهر ، ليدفع عن نفسه تهم الضلال والمروق والبدعة ؟ لعله أراد من هذه الصفحة فى أول الكتاب أن تحميه من هجمات أعدائه ، كما أراد أن تحميه بعد ذلك صفحات فى آخر الكتاب أضافها إلى الطبعة الثانية وشحنها بقصائد فى مدح عباس باشا بمناسبة جلوسه على عرش مصر ...

ويبدأ رفاعة حديثه « بخطبة الكتاب » ، وهى أربع صفحات من النثر المنمق ، التزم فيها السجع وأكثر من المحسنات البديعية ، وحلاها بأبيات ركيكة من شعر ذلك العصر ؛ إلا أنه أجاد بناءها ، وحمّل ألفاظها أفكارا . فهو ينظر فى نفسه من ناحية وفى عمله من ناحية أخرى ، ونستطيع أن نرى فى تلك الصفحات صورة مصغرة للرجل وللكتاب .

إنه رجل تربى فى الأزهر ثم انتقل إلى باريس ، فاحتفظ بالتقاليد الإسلامية ، وأضاف إليها التحليل العقلى الذى تتميز به الثقافة الفرنسية .

يتجلى حظ الأزهر فى طريقة الاستهلال بحمد الله « الذى ابتلاه فصبر ، وأغناه فشكر » ، وبالصلاة والسلام على رسوله « الذى سافر إلى الشام وهاجر الى المدينة » ، وبتمجيد الحاكم فى مصر إذ ذاك . وبعد هذا الاستهلال التقليدى يقدم رفاعة نفسه للقارىء دون إبطاء ، فيذكر اسمه وبلدته ونسبه ومذهبه ، كأنه يبرز أوراقه الشخصية عند باب الدخول ! ويوجز قصة حياته ، فيشير إلى افتقار أسرته بعد ثراء ، وإلى تعلمه فى الأزهر ، وتعيينه « واعظا فى العساكر الجهادية » ثم « مبعوثا إلى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون بهذه المدينة البهية » : ويتجلى

حظ باريس فى الإنشاء المنطقى الذى صيغت فيه هذه الصفحات من ناحية ، وصيغت فيه من ناحية أخرى أبواب الكتاب ، كما راح يعددها المؤلف فى ختام خطبته . إن هذه الخطبة مقدمة جيدة ، أحسن فيها رفاعة استعراض كتابه ، وساق أفكاره سياقا منظما . فهو يروى — على سبيل التمهيد — كيف وُلد كتابه ، ثم يبين أهدافه ، ويحدّد مجال موضوعه ، ويشرح وجهة نظره ، ويعرّف بخطته ومنهجه .

ولعل خير سبيل إلى الإحاطة بجميع أطراف الكتاب لتقديره حقّ قدره هى أن نناقش مع المؤلف تلك القضايا التى يثيرها . ولكن لابد لنا قبل أن نبدأ هذا النقاش من أن نلم بمحتويات أبوابه وفصوله .

* * *

يتألف « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » — كما يعلن صاحبه — من « مقدمة » تضم أربعة أبواب ، ومن « مقصد » يشمل ست مقالات تنقسم كل منها إلى عدة فصول ثم من « خاتمة » .

ويبدأ رفاعة ، فى أول أبواب مقدمته ، بذكر دواعى تلك الرحلة إلى فرنسا ، فيصعد إلى ماقبل التاريخ ، ويتتبع تطور الإنسان وارتقاء المجتمع ، ويرى أن الشعوب من حيث تفاوتُها فى درجات الحضارة تنقسم إلى ثلاث مراتب : مرتبة المتوحشين ، ومرتبة البرابرة ، ومرتبة « أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن » . وقد كان العرب فى عداد هذه المرتبة الثالثة أيام العباسيين وملوك الأندلس ، غير أن « الإفرنج » فى العصور الأخيرة تفوقوا عليهم بفضل ماأتقنوا من علوم ، وما أرسوا من قواعد العدالة . وحلالٌ طلب العلم فى بلاد الإفرنج ، ألم يرد فى الحديث « اطلب العلم ولو بالصين » ؟.

وفى الباب الثانى من المقدمة يعد رفاعة مختلف المواد التى كان على المبعوثين أن يدرسوها ، وهى أولا مواد عامة لجميع التلاميذ ؛ كالحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ والرسم ، ومواد تخصص ؛ كالإدارة المدنية ، والإدارة العسكرية ، والملاحة البحرية ، والدبلوماسية ، والهندسة المائية والميكانيكية والحربية ، والمدفعية ، وصناعة الأسلحة ، والكيمياء ، والطب ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعى ، وصناعة الطباعة على الحجر ، والترجمة .

ولكى يحدثنا رفاعة ، فى الفصل الثالث من المقدمة ، عن أسباب إرسال البعثة إلى فرنسا دون سواها من بلاد الافرنج ، ينشىء مقدمة طويلة يستعرض فيها دول العالم كما جمعها الجغرافيون الإفرنج فى خمس قارات . ويبدو له « بحسب مزية الاسلام وتعلقاته ؛ أن أفضل القارات هى آسيا ، لأنها مهد الاسلام ، ومهبط الأديان السماوية ، ومنشأ الأنبياء والمرسلين والصحابة والأئمة الأربعة ، ولأنها وطن العرب ، وبها القبلة والأراضى المقدسة . تليها إفريقية لأنها تضم مصر « وهى أيضا عش الأولياء والصلحاء والعلماء » . وأما ثالثة القارات فى الفضل فهى أوروبا ، إذ لا يشرفها إلا « وجود الإمام الأعظم سلطان الإسلام فيها » وبالمقياس عينه توضع جزر المحيط فى المكان الرابع « لعمارها بالاسلام أيضا مع عدم تبحرها فى العلوم » ، فهى خير من أمريكا ، حيث لاوجود للاسلام بها أبدا . ولكن رفاعة لايلبث فى هذا التصنيف أن يستدرك استدراكا جوهريا ، ويقرر أن جدارة الأمم وفضلها وامتيازها لاتقاس بأديانها وإنما تقاس بمستواها من العلم . « ولاينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية » . وأكثر هؤلاء الافرنج علما هم الانجليز يليهم الفرنسيون فالنمسويون . غير أن « باريز » تمتاز على « لوندرة » باعتدال الجو وقلة الغلاء ، وبما تبيحه للأجانب من حرية الرأى والعبادة والتصرف . ولذلك استأثرت فرنسا بأغلبية الطلبة المبعوثين من مصر ، ولم يقصد انجلترا والنمسا منهم سوى عدد قليل .

ورابع أبواب المقدمة باب قصير ، يسجل فيه رفاعة أسماء رؤساء البعثة ، وهم ثلاثة « أفندية » كانوا يتناوبون الإمرة : « عبدى أفندى المهردار » وكان يتخصص فى الادارة المدنية ، و « مصطفى مختار أفندى الدويدار » وكان يدرس الادارة الحربية ، ثم « الحاج حسن أفندى الإسكندرانى » الذى كان يتعلم الملاحة البحرية ، إلى أن انفرد الأول بالرياسة . وكان يشرف على البعثة « مسيو جومار » .

وهنا تنتهى « المقدمة » ويبدأ « المقصد » . ويأخذ رفاعة فى سرد وقائع رحلته وما خالجه من مشاعر فى الطريق الطويل إلى فرنسا . منذ وصل إلى الاسكندرية — بعد أربعة أيام على النيل — أحس أنه يدنو من بلاد الافرنج . ولما كان قليل الخروج فى أثناء الأيام الثلاثة والعشرين التى قضاها المبعوثون « فى سراية والى مصر » ، فإن حديثه عن

هذه المدينة لايعدو مانخصه عن تاريخ الاسكندر وشخصية « ذى القرنين » من بعض الكتب العربية والفرنسية ، ولاسيا « تقويم البلدان » لأبى الفداء و « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » وكذلك يحدثنا رفاعة من خلال الكتب عن « البحر المالح المتصل بثغر إسكندرية » وعن جزيرتى كريت وصقاية وجبل إتنا وأحوال البراكين . إن كل شىء جديد عليه ، من هذه البارجة الفرنسية التى تدهشه نظافتها إلى إجراء الحجر الصحى على ركابها . وفى مياه مسينا ، حيث ترسو السفينة خمسة أيام دون أن يؤذن لها بالنزول يروق رفاعة أن ينظر إلى المدينة البيضاء وهى توقد مصابيحها فى المساء ، وأن يشنف سمعه بتوقيع أجراس كنائسها ، دون تزمت ، بل يأخذه الطرب ذات ليلة فيحاول التعبير عن أثر الموسيقى الجميلة فى نفسه ، وينظم وهو يسمر « مع بعض الظرفاء » من زملائه ، أبياتا رقيقة يتغنى فيها بحبيب مجهول يصبو إليه ، وينتشى من سحر عينيه .

وتهب على السفينة رياح مضادة لاتجاهها ، فتردها إلى « نابولى » بعد أن كانت قد جاوزتها فى عرض البحر . فإذا استأنفت ملاحتها رأى رفاعة جزيرة كورسيكا ـ التى يسميها « قرس » قبل أن يترجل على أرض مرسيليا ، وقد استغرقت الرحلة ثلاثة وثلاثين يوما .

وأما بقية الرحلة إلى باريس فهى مادة « المقالة الثانية » : لم يدخل المبعوثون مباشرة مدينة مرسيليا وإنما أنزلوا فى بيت خارجها للحجر الصحى أقاموا فيه ثمانية عشر يوما . وهل « الكرنتينة » مما يوجبه الشرع أو مما يحرمه ؟ لعلها « من جملة الفرار من القضاء » كما يقول بعض الفقهاء . على أن رفاعة ـ فى اعتدال وحذر ـ يورد محاورة أنصار « الكرنتينة » وخصومها ، دون أن يفصل فى المشكلة برأى شخصى . ويبدأ المبعوثون فى الكشف عن العادات الفرنسية ، فيدهشهم مايرون من بسائط الحياة اليومية ، يدهشهم الجلوس على الكراسى والنوم على أسرة مرتفعة عن الأرض ، وطريقة إعداد المائدة ، ونظام تتابع الأطعمة ، واصطناع الشوكة والسكين فى تناولها ، وانفراد كل آكل بأدواته تلك ، وكوبه لايشاركه فى استخدامها جاره القريب أو البعيد . . . ومكث المبعوثون فى مرسيليا خمسين يوما أخرى فى انتظار

نقلهم إلى باريس . أقاموا فى بيت كبير بإحدى ضواحيها ، وشرعوا فى تعلم مبادئ قراءة اللغة الفرنسية . وكانوا يخرجون للنزهة فى وسط المدينة . ويعجب رفاعة باتساع الشوارع ، وبضخامة الأبنية ، وبأناقة « العربات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقزقع » ، ويشتد عجبه إذ يشاهد النساء سافرات يعملن فى المتاجر كالرجال ! إنها امرأة تلك التى تدير ذلك المقهى الفاخر الذى دخله مع أصحابه ، فرأى القوم يطالعون الصحف — لأول مرة — وخيل إليه طويلا وهو بين المرايا المثبتة على الجانبين المتوازيين أنه فى طريق عام مزدحم بالحركة والناس ! ويلتقى رفاعة فى جولاته ببعض المهاجرين المصريين الذين استقروا فى مرسيليا ، ويسمع مايروونه له من أخبار المصرية التى تزوجها القائد الفرنسى «عبد الله مينو» و« عبد العال » الذى تزوج فرنسية .

والفصل الثانى من هذه المقالة فصل قصير جدا « فى الخروج من مرسيليا إلى دخول باريس » ، ينوه فيه رفاعة بالعربات الكبيرة التى يستقلها المسافرون أياما متواصلة ، ولا يشعرون فيها بدوار البحر ، والتى تحط بهم فى آخر كل مرحلة أمام فنادق « فى غاية النظافة والظرافة » . وفى فندق بمدينة « ليون » يستريح الركب اثنتى عشرة ساعة ، ولا يتاح لرحالتنا أن يرى من تلك المدينة إلا ماتطل عليه نافذته . وفى ختام الأسبوع تصل العربة إلى باريس . ولا يفوت رفاعة أن يصف جمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، تظلله « الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد » ، كما لايفوته أن يصف جمال نساء الريف ، وما يمتزن به على الباريسيات من صفاء البدن والحسن الطبيعى .

والمقالة الثالثة — « فى دخول باريس وذكر جميع ماشهدناه وبلغنا خبره من أحوال هذه المدينة » — هى أطول مقالات الكتاب ، وتنقسم إلى ثلاثة عشر فصلا .

يعالج الفصل الأول « تخطيط باريس من جهة وضعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومزاج إقليمها وقطرها » . وينظر رفاعة قبل كل شىء فى لفظة « باريس » فيشرح أصلها ، وكيف ينبغى أن تنطق باللغة العربية . ويستطرد بعد ذلك ، لتحديد موقع باريس ، إلى درس عن خطوط الطول وخطوط العرض ، استقاه بلا شك من كتاب

فى مبادىء الجغرافية الفلكية . وهو يحس بأنه يستدرج القارىء خارج الموضوع، فيعتذر بأن فى استطراده هذا معلومات جديدة مفيدة . ويشبّه رفاعة تقلب الجو فى باريس بتقلب طباع أهلها. فما أكثر ماتفجأك العاصفة فتنغص عليك نزهتك، وقد حدد المناخ المطير هناك شكل المبانى المنحدرة السقوف، وشكل الشوارع «المبلطة بالحجر» المزودة بمجارٍ تحمل الماء إلى البالوعات . ويصف رفاعة أنواع المدافىء التى يوقدها الفرنسيون لاتقاء برد الشتاء . ويعجبه خصب الأرض التى تهب البيوت بساتين وافرة الثمر ، متنوعة الشجر ، فقد يغرس الفرنسيون بها أشجارا من غير نبات منطقتهم كالنخل ، رغم قول القزوينى عن النخل فى كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » إنه « شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنها لا تنبت إلا فى بلاد الإسلام » ! . . . ويفضل رفاعة ماء النيل على ماء « السين » ، والنزهة فى الروضة والمقياس على النزهة فى جزيرة « السيته » . وهو يتغنى بحنينه إلى مصر فى قصيدة متكلفة ركيكة ، استهلها بالنسيب وحاكى فيها شعر المديح التقليدى ، وحيا رجال الأزهر والوالى . وقد لا تظهر روعة وطنيته فى هذه القصيدة المباشرة ، بقدر ماتظهر فى حرصه على اقتباس كل مايراه نافعا لبلاده ، مثل تلك العربة التى تجرها الجياد بينما تنفتح ثقوب دنها الملىء بالماء لرش الشوارع والميادين . وبعد أن يحصى رفاعة قناطر نهر « السين » ، والطبقات الجيولوجية التى تتكون منها أرض باريس ، يذكر عدد « الفسحات » أى الميادين التى تشبه « فسحة الرميلة بالقاهرة — فى مجرد الاتساع لا فى الوساخة » ، وعدد أبواب المدينة الخارجية ، وعدد قنواتها وصهاريجها ، وعدد سكانها — وهم يبلغون « فوق مليون من الأنفس » ويتزايدون باطراد ، وتتسع دائرة عمرانهم « لإعانة ملوكهم على ذلك » .

والفصل الثانى فصل شائق « فى الكلام على أهل باريس » — لقد عرف رفاعة شدة ذكائهم ، وتأصل الثقافة فيهم ، وتوقهم إلى الفهم والاستطلاع ، والوقوف على كل طريف ، وولعهم بالصيت ودوام الذكر أكثر من تهافتهم على الكسب . وعرف نشاطهم الجم ، وخفة حركاتهم ، وتقلب مزاجهم وعواطفهم ، وإن كانت آراؤهم فى جد الأمور رصينة ثابتة . إنهم قوم يحبون وطنهم ، ويكثرون مع ذلك من

الرحلات ويحتفون بالأجانب ، وهم يحرصون إلى حد التقتير، إلا أنهم يبذرون المال فى طلب اللهو . ويتفننون فى اللهو ، ولكنهم يعملون فيتقنون عملهم . وقد يدفعهم الاعتزاز بالنفس إلى هاوية الانتحار دون أن يذعنوا للقدر ، ولو أنهم أوفياء للعهد ، يحفظون الجميل ويؤدون الواجب . ومن الغريب أن الرجال عندهم عبيد النساء، يثقون بهن ، ويدللونهن ، ثم يلجأون فى خيانة العرض إلى ساحة القضاء بدلا من أن يثأروا ثأرا شخصيا . ويعجب رفاعة بعدم وجود الغزل بالمذكر فى أشعارهم . غير أنه يأخذ على النساء قلة العفاف ، وعلى الرجال قلة الغيرة ، وإن كان يرى أن اضطراب الأخلاق نتيجة اجتماعية طبعية لبيئة المدن الكبيرة بوجه عام . وأما عن عقائدهم ، فهى تقدمية تطورية ، يؤمنون بالعقل ويرفضون مالا يقبله العقل من الخوارق ، ويقولون إن الحضارة فى المجتمع الراقى تؤدى دور الدين فى المجتمع البدائى . ويستنكر رفاعة إنكار بعضهم القضاء والقدر . ثم يصف مظهرهم ، من بياض البشرة — لعدم اختلاطهم بالزنوج — إلى رقة نسائهم اللطيفات، اللواتى يشاطرن الرجال متعة النزهة والرقص .

ولما كانت لغة الباريسيين هى الفرنسية ، فقد ختم رفاعة هذا الفصل بحديث عن مزايا هذه اللغة ، مقارنا لها باللغة العربية ، وعن فضل بعض من تعرف بهم من المستشرقين. فاللغة الفرنسية واسعة المجال غنية بالمعانى « لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية » ، وترجع هذه الثروة اللغوية إلى كثرة ما استعاره الفرنسيون من اللغات الأخرى لإكمال مصطلحاتهم ولا سيما فى العلوم . وأما جمال الأسلوب لديهم فلا يقوم على الجناس والتورية « فهي من هزليات أدبائهم » ، « وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس » ويبدو لرفاعة أن « اصطلاح اللغة الفرنسية تقليل التصريف ما أمكن وتصريف الفعل مع فعل آخر » . ولكن لكل لغة كيانها ، نحوها وخطها وبيانها « فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك » . ويستطرد رفاعة إلى ذكر « علوم العربية » الاثنى عشر ، فينقد تصنيفها ، وينفى نسبتها إلى اللغة العربية وحدها . ويشهد هذا النقد وتشهد تلك المقارنات باتساع أفق الطالب الأزهرى القديم . لقد اكتسب معنى النسبية ، وأيقن أن « العلم هو الملكة » لا مجموعة المتون المحدودة التى

يستظهرها الحافظ ويعيدها . ولا أدل على ذلك من أن العالم بلغة من اللغات ، كاللاتينية مثلا « له إدراك فى النحو فى حد ذاته ... فمن الجهل أن يقال إنه لا يعرف شيئاً بدليل جهله باللغة العربية » . ألم يجالس ويناقش المستشرق الفحل « سيلفستر دى ساسى » Silvestre de Sacy ؟ ألم يقرأ شرحه لمقامات الحريرى ، وكتبه التى ألفها فى النحو « على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا » ؟ إن رفاعة يشبّه هذا العلامة بالفيلسوف الفارابى ، ويستنكر « ما يتراءى من أن الأعاجم لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب ؛ فهذا لا أصل له » .

ويستطرد إلى سرد ترجمة لحياة الفارابى فيروى بعض نوادره وأبيات من شعره ، مما ينسينا أننا مازلنا نقرأ فصلا عن « أهل باريس » ثم يشيد رفاعة بتغلغل العلم فى جميع شعاب الحياة الفرنسية ، حتى لدى الطباخين والسوقة ! وللنساء فى التأليف والترجمة نصيب ملحوظ ، وفضل ثابت ، وهذا شىء جديد يسجله الصعيدى الرحالة ، ويدفعه إلى تغيير رأيه فى المرأة. لقد قرأ رسائل « مدام دى سڤينيه » ، وأيقن أن للمرأة مكانا فى الحياة الفكرية ينبغى أن تشغله . وأما الآداب الفرنسية « فلا بأس بها » ، ولكن رفاعة لا يقرّ جرْى الشعراء على « عادة جاهلية اليونان وتأليهم ما يستحسنونه » ، إذ يقولون مثلا إله العشق ! وإله الجمال ! « فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة ، وإن كانوا لا يعتقدون مايقولون » . ويحاول رفاعة أن يتحفنا بشىء من الشعر الفرنسى ، ترجمه هو إلى شعر عربى ، فإذا بترجمته عسيرة متكلفة ، إلا أنها أفادته تمرينا وممارسة وصقلا ، وعلمته أن « هذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها فلا تظهر علو نفس صاحبها ، ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الأفرنجية من غير أن يذهب حسنها بل ربما صارت باردة » ولا شك أن ذلك كان نواة لشعور إمام المترجمين المحدثين بصعوبات الترجمة ، ولاسيما ترجمة النصوص الأدبية الممتازة .

وفى الفصل الثالث ، يحدّث رفاعة مواطنيه عن الحكومة الفرنسية ، « ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » . إنه معجب بالنظام الديمقراطى حيث يدافع عن الملك «ديوان البير» أى (مجلس الأعيان) ويدافع عن الشعب ( مجلس النواب) أو « ديوان

رسل العمالات » كما يسميه ، ويرى فى هذا التوزيع ذكاء وإصابة وكفالة للعدالة « بنكتة لطيفة » !

وبعــد أن يستعرض أجهزة الحكومة المختلفة ، يثنى عــلى الدستور الفرنسى« وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم » ، ويحرص على ترجمة مواده « لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران » . ولا يكتفى رفاعة بالترجمة ، بل يعلق على المواد الرئيسية . إنه يشيد أولا بالمساواة بين « سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع . . . حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره » . ويشيد بالعدل فى تحديد الضرائب والنزاهة فى تحصيلها « بحيث إنها تؤخذ بكيفية لا تضر المعطى وتنفع بيت مالهم ، خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة » . كما يشيد بتشجيع الكفايات إذ أن لكل امرئ هناك الحق فى أن يتولى أى منصب تؤهله له جدارته ، وأن يصل إلى أية رتبة يرفعه إليها عمله . ثم يشيد بمبدأ حرية الرأى والنشر الذى لولاه لما استطاعت الصحافة أن تؤدى رسالتها الجليلة . ويضيف رفاعة إلى هذا الفصل الخطير ترجمة ما أدخل على الدستور من تعديلات بعد ثورة الشعب سنة ١٨٣١ .

ويتناول الفصل الرابع « عادة سكنى أهل باريس » . وفيه يحدثنا رفاعة عن المواد التى يستخدمها الفرنسيون فى البناء ، وكيف يكسون جدران الغرف بورق منقوش ، وأرضها بخشب مصقول . ويصف ما يشمله البيت من مختلف الأثاث . وبعد أن يحصى ما فى غرفة الاستقبال من آنية الأزهار وآلة البيانو ، والسجاجيد النفيسة ، و« النجفات العظيمة » ، يشير بوجه خاص إلى وجود الصحف والكتب المستجدة ليطلع عليها من أراد من الضيوف ، وينتهى بالثناء على « سيدة البيت »

التى « يكمل الأنس بحضورها » . ويصنف الدور ، حسب أحجامها ومستواها من الترف ، إلى ثلاث مراتب ، ويشرح وظيفة البواب ، ويذكر أثمان العقارات وغلاء إيجار المساكن . ثم يصحبنا إلى زيارة « حريم ملك فرنسا » ، حيث يقدر الأشياء بدرجة ما يتجلى فى صناعتها من فن لا بقيمة مادتها الأولية ، مما يدلنا على تطور شخصيته وارتقاء ذوقه . وأغنياء باريس يقيمون فيها أثناء الشتاء ، أما فى الصيف فيهجرون حرها ، وينزحون إلى بيوتهم الريفية . والجميع مولعون بالرحلات ، حتى النساء « خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل » . ويختم رفاعة هذا الفصل بمدح نظافة الفرنسيين ووسائلهم إليها .

والفصل الخامس « فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب » . فخبزهم من الحنطة ، يطحنونها فى طواحين الهواء والماء ، ويخبزها الفران فيبتاعونها من دكانه ، لأن الفرنسيين يشغلون أيامهم بما هو أهم من صناعة الخبز فى بيوتهم كما اعتاد الناس فى مصر . والأطعمة متنوعة ، ولو عند الفقراء . ويهتم الشيخ الإمام بطريقة ذبح ما يؤكل لحمه . وله هنا وصف شائق لطريقة ذبحهم للماشية ، وهو وصف لم يخل من فكاهة . على أن هناك المطاعم « الرسطوراطورات » — وهى أماكن فاخرة ، أكثر استعدادا من البيوت لتقديم المأكل والمشرب ، وتوفر راحة الباريسيين . ويعود رفاعة إلى وصف المائدة وآدابها وترتيب قائمة الطعام ، مندهشا من إقلال الفرنسيين من شرب الخمر ، ومن التغنى بها كشعراء العرب المتفننين فى الخمريات ! تلى ذلك أرقام وإحصاءات عن المواد الغذائية التى يستهلكها سكان باريس . وتثير صناعة المأكولات المحفوظة إعجاب رفاعة ، إلا أنه — رغم شهرة الفطائر الفرنسية — لا يكاد يحب أطعمة الفرنسيين . ويروى فى ختام الفصل ما وقع له ذات ليلة مع سكير خارج من إحدى « الخمارات » .

وفى الفصل السادس عن « ملابس الفرنسيس » يثنى رفاعة على « لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم ، فإن الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات ؛ وبهذا يستعينون على قطع عرق الواغش » . ويشير رفاعة إلى هندام الرجال ، ولكنه يطنب فى وصف ملابس النساء التى يراها « لطيفة بها نوع من الخلاعة » . ويستعرض

علامات الحداد السوداء ، ومتى وإلى أى مدى يحملها أصحابها فى كل مناسبة ، وعادة التحلى بالشعور المستعارة .

والفصل السابع تقرير ثمين عن الملاهى فى باريس ، يعرّف رفاعة قارئه أولا بالمسرح ، وبرسالته الثقافية والأخلاقية . ورغم فقر اللغة العربية يومئذ فى الألفاظ والمصطلحات الفنية اللازمة لتسمية مايضمه المسرح ، لايحجم رفاعة عن وصف قاعة التمثيل ، ومراحل « اللعب » ويشبه اللاعبين واللاعبات «بالعوالم» . إن هذه الصفحة الساذجة لوثيقة هامة يؤرّخ بها دخول المسرح الحديث إلى الأدب العربى المعاصر .

ويعدد رفاعة أنواع « التياتر » و « السبكتاكل» الباريسية ، من الأوبرا إلى السرك . ثم يتحدث عن لون آخر من اللهو وهو « البال » أى حفلة الرقص . ولا يفوته أن ينبه قارئه إلى جمال هذه الرقصات التى يشترك فيها الرجال والسيدات وهم جميعا فى أفخر حللهم وزينتهم ، وكأنهم يؤدون حركات رياضية مهذبة راقية ، على حين بات الرقص فى مصر « من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات » .

ويختم رفاعة هذا الفصل بجولة فى حدائق باريس ، من « الشانزليزيه» إلى الشوارع الكبرى « البولفار » حيث يتنزه العشاق ليلا ، ويأخذه الطرب ، فيخرج من أعماق ذاكرته أبياتا من الشعر القديم عن الليل والغرام .

ويتدرج المؤلف من هذا الفصل إلى الفصل التالى بعبارة بارعة : « وبالجملة فلا يمكن أن الإنسان يتمتع بهذه المتنزهات إلا بصحة البدن » . ذلك أنه يريد أن يشرح لنا الآن « سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس » . غير أنه لايكاد يذكر تحت هذا العنوان إلا الحمامات ، مقارنا لها بحمامات مصر ، ومدارس الرياضة البدنية . وأما الحديث عن الطب ، وما بلغته فيه باريس من تقدم ، فهو موضوع الفصل التاسع الطويل .

ويضيف رفاعة إلى هذا الفصل «نبذة » فى الطرق الطبيعية للعناية بالصحة ، يوجهها إلى صحاح البدن وإلى المرضى وإلى الناقهين ويعنونها «نصيحة الطبيب» ، وهى ترجمة لكتيب شعبى من نشرات بعض الهيئات الطبية الفرنسية .

ونعود فى الفصل العاشر أيضا — « فى فعل الخير بمدينة باريس » — إلى ذكر مختلف المستشفيات . ثم يتحدث رفاعة عن الجمعيات الخيرية ، وعن ملاجىء اللقطاء

والأيتام ، والعمى . والشيوخ ، وجرحى الحرب ، وعن « دواوين الإحسان » أى المكاتب التى تتولى إعانة المحتاجين وإغاثة المنكوبين ، وعن مراكز إسعاف المصابين وفى هذه المنظمات مايعوّض المجتمع عن بخل الفرنسيين أفرادا ، فإن الجود شيمة العرب .

والفصل الحادى عشر « فى كسب مدينة باريس ومهارتها » . إن حب العمل والسعى إلى الكسب ، متأصلان فى نفوس هؤلاء الناس « حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة » . ويستعرض رفاعة تجاراتهم ، وأولها « معاملات الصيارفة» أى البنوك — « صيارفة الدولة أو الميرى ، وصيارفة باريس » . ثم يعرف بشركات التأمين ، وهو يسميها « جمعية الشركاء فى الضمانة » .

ويعدد أنواع المصانع ، وفوائد المعارض والمواد التى يدرسها الطلبة فى معاهد التجارة . ومما يساعد على رواج التجارة ، تيسير وسائل المواصلات ، وانتظام البريد ، ودعاية الصحف للسلع أو توزيع الاعلانات عنها . ولقد فطن الفرنسيون إلى أن الاقتصاد من أهم قواعد الثروة الفردية والوطنية ، واشتد اهتمامهم بالتوفير ، و« تدبير المصاريف » حتى جعلوا من الاقتصاد علما ذا مقدمات ونتائج .

والفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » . والفرنسيون ، فيما عدا قليل من اليهود والبروتستانت ، يدينون « بالنصرانية القاثوليقية » ، وفى أكثر الأحيان « ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فهم داخلون فى اسم الكتابيين فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه » بل ومن الفرنسيين من ينكر العقائد ، ولا يؤمن إلا بما يقبله العقل ، ويقاطع رجال الكنيسة ويرميهم بالجهل. ومن أحاديث هؤلاء المنصرفين عن الروحانيات استقى رفاعة مايقال عادة فى ذم القسيسين ممن لا يؤذن لهم بالزواج « فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم » ، وممن يقومون فى بعض الأعياد بمواكب دينية غريبة « من باب الهوس » . ويشرح رفاعة لقارئه « درجة القسيسية » من الكردينال إلى الشماس . وقد عرض رفاعة مخطوط كتابه على المستشرق سيلفستر دى ساسى ، فعلق على هذا الجزء مصححا تعميمه بنظرات أدق ، مكملا اللوحة بما غاب عن بصر الشيخ الإمام من التفاصيل ، ونشر رفاعة تعليق دى ساسى فى الفصل نفسه .

والفصل الثالث عشر فصل طويل عن « تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع » ، يحرص فيه المبعوث على نقل صورة وافية عن الحياة الفكرية فى العاصمة الفرنسية . إنه معجب إعجابا لاحدّ له بالعلوم التجريبية ونتائجها المحققة بفضل الأجهزة والمعامل المتخصصة ، ولكنه يحذر قارئه المؤمن من « الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة » لأن لهم « فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها » . على أن اللغة الفرنسية بوضوحها ودقتها ، وتوفيرها على الأسلوب عناء التطبيقات البلاغية التى تعوق تيار الفكر لدى المعبر باللغة العربية ، قد أصبحت أداة مثالية للبحوث العلمية . وما أصدق هذه الشكوى بقلم خريج الأزهر القديم ! وبفضل بساطة اللغة ، تجد الفرنسيين أصحاب ثقافة يدهشك اتساعها ، وتجد « الصغير الذى خرج من سن الطفولية » ذا استعداد تام لتلقى المعرفة وتحصيلها . ويقارن رفاعة بين علماء باريس ، الذين يتوّجون دراساتهم العامة الطويلة بالتخصص فى فرع واحد يبتكرون فيه بحثا جديدا ، وبين علماء الأزهر الذين يحصرون العلم فى دائرة المواد الشرعية . ويبين كيف أدّى هذا التضييق إلى إملاق المدارس العربية من العلم بمعناه الحديث . ثم يستعرض دور الثقافة والتعليم من المكتبات العامة والخاصة ، إلى متاحف النبات والحيوان والجيولوجيا ، ومن المرصد إلى « الأكاديميات » المختلفة ، والكليات والمدارس و « البنسيونات » . ويشتد إعجاب رفاعة بنشاط تجارة الكتب ، وبكثرة المنشورات والدوريات ، ويعود إلى ذكر فوائد الصحف ، فإنه يستكشف الصحافة استكشافاً .

وفى المقالة الرابعة يعرّف رفاعة قارئه بالثقافة التى حصلها فى باريس وبمراحل دراسته وامتحاناته ونظام البعثة . ففى الفصل الأول من هذه المقالة يذكر ذلك الكتاب الصغير المبسط المصور الذى تعلم فيه مبادىء قراءة اللغة الفرنسية بتقطيع الألفاظ ، ويثنى على منهجه التربوى . ثم يسجل البرنامج الذى اتبعه المبعوثون مدة عام تقريبا « فى بيت الأفندية » قبل أن يتفرقوا فى عدة « بنسيونات » يخالطون فيها التلاميذ الفرنسيين ليتقدموا فى اللغة ويفيدوا من الدروس . وفى الفصل الثانى ، وعنوانه « تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » ، يسرد رفاعة مواد اللائحة التى وضعها المشرفون

صفحة من الفصل الثالث عشر فى المقالة الثالثة ، عن « علماء الفرنسيس » ـ كما وردت فى مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » .

على البعثة. وفى الفصل الثالث ، يورد مثلا من الخطابات التى كان يرسلها محمد على إلى هؤلاء الطلبة فى باريس ، مترجما من اللغة التركية «فمن هذه الفرمانات ما كان من باب مايسمى عند العثمانية إحياء القلوب ، ومنها ماكان من باب التوبيخ» ، كما يورد ترجمة لرسالة إليه من چومار مدير البعثة يعترف فيها باجتهاده وثمرة تحصيله . ويواصل رفاعة نشر الرسائل ، فيوافينا فى الفصل الرابع بما كتبه إليه المستشرقان «سيلفستر دى ساسى » وكوسان دى پرسڤال Caussin de Perceval عن « تخليص الابريز » ، كما يضيف ترجمة لخطاب آخر . يسأله فيه المستشرق «جوزيف رينو» (Joseph Reinaud) عن الكتب التى ترجمها من الفرنسية ، ولا ينسى أن يطلعنا كذلك على رسالة ودية من صديقه « جول سلادان » . وفى الفصل الخامس ، يستعرض رفاعة الكتب التى درسها فى النحو والتاريخ والرياضة والجغرافية والمنطق والأدب الفرنسى . ولما كانت الصحف من أحب مطالعاته فى باريس ، فإنه يتحفنا بترجمة مقالة عن الحرب بين الأتراك والروس . وأخيرا يصل ، فى فصل سادس ، إلى ذكر الامتحانات التى أداها والجوائز التى نالها . ويترجم لنا مانشره چومار عن امتحانه النهائى فى المجلة الموسوعية ( La Revue Encyclopédique ) ، وهذا النص بالإضافة إلى شهادة أستاذه « شيڤالييه ( Chevalier ) » خير تقرير عن بعثته .

ولقد شهد رفاعة فى باريس ، قبيل عودته إلى مصر ، ثورة الشعب الفرنسى على حكومة الملك شارل العاشر فى يوليو سنة ١٨٣٠ ، فأفرد المقالة الخامسة من كتابه لرواية هذا الحدث التاريخى . والفصل الأول من هذه المقالة تمهيد يحاول فيه رفاعة المؤرخ أن يستنبط « علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم » ، متتبعا اتجاهات الأحزاب المختلفة منذ الثورة الكبرى سنة ١٧٩٠ ( كذا ) . والفصل الثانى عرض لأوامر الملك التى أطاحت بحرّية النشر وأقامت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وماتلا ذلك من احتجاب الصحف ، وإضراب العمال ، وغضب الشعب على الحكومة ، ونشوب حرب أهلية . وفى الفصل الثالث يستنكر موقف الملك المعادى لحرية الشعب ويقص كيف أفضى به عناده إلى التنازل عن العرش وخلع المملكة على ابنه ، ولكن بعد فوات الأوان ، فقد رأى مجلس النواب أن يخلفه « الدوق دورليان » . ويتتبع فى

الفصل الرابع الخطوات الدستورية التى اتخذت لتولية هذا الدوق ملكاللفرنسيين — لاملكا لفرنسا-باسم « لويس فيليب ». ثم يروىفى الفصل الخامس كيف قبض الشعب على وزراء شارل العاشر وكيف حاكمهم ، ويذكرنا إعجاب رفاعة بنظام القضاء الفرنسى بما سبق من إعجاب الجبرتى به فى حديثه عن قضية اغتيال القائد « كايبر » فىالقاهرة . ويصور لنا الفصل السادس دهشة رفاعة وهو يستطلع فىشغف سخرية الفرنسيين من ملكهم المخلوع؛ برسوم تظهر فى الصحف أو تلصق على الجدران ، وبنشر فضائحه فىأوراق مطبوعة ، وهذا فىنظره أكبر دليل على حرية الرأى هناك. ويحاول فىالفصل السابع أن يحيط بنتائج هذه الثورة من الناحية الدولية ، فقد أخذ كثير من الأمم الصغيرة يطالب باستقلاله أسوة بالشعب الفرنسى ، وتحفز ملوك أوربا للنيل من فرنسا . لقدكتب رفاعة ـفى وضوح وذكاءـ ذلك التاريخ الذى عاصره فى باريس، ورجع إليه فىمقالات الصحف .

والمقالة السادسة والأخيرة من « تخليص الإبريز » كتيب تعليمى يقدم لمحات من المواد التى سافر الطلبة ليحصلوها فى باريس . يبدأ رفاعة ـ فى الفصل الأول ـ بشرح تصنيف الأوروبيين للعلوم ، مقارنا مذهبهم فى ذلك بمذهب العرب . ويتوقف ـ فى الفصل الثانى ـ عند علم اللغة ليقارن بين قواعد الفرنسية وقواعد العربية . لقد حاول عبثا أن يجد فى النثر الفرنسى الزخارف البديعية التىاعتادها . ثم ينظر فى الشعر، فيردد ما سبق أن نبه إليه زملاءه الأزهريين: « نظم الشعر غير خاص بلغة العرب » . وينتهز هذه الفرصة فيملأ خمس صفحات بمختارات من « أحسن القصائد والمقطعات » تدلنا على ذوقه الأدبى وذوق معاصريه . والفصل الثالث ـ « فى فن الكتابة » ـ يؤكد لنا اتجاه رفاعة الجديد إلى الدراسات المقارنة ، فهو يستعرض الحروف الهجائية فى عدة لغات ويوازن بينها . ويعود ـ فى الفصل الرابع ـ إلى « علم البلاغة » ، فيعرف بموضوعه ، ويكرر أن « هذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية بل قد يكون فى أىّ لغة كانت من اللغات » ، كما يكرر أن القيم الجمالية للتعبير تختلف من بيئة إلى أخرى . ثم ينتقل ـ فى الفصل الخامس ـ إلى « المنطق » ، فيعدد مباحثه ومبادئه ، ويترجم فى الفصل التالى « المقولات العشر المنسوبة إلى أرسطو » عن كتاب المنطق الشهير؛ الذى درسه فى باريس « La Logique de Port-Royal » . وبعد

أن يتحدث ـ فى الفصل السابع ـ عن « علم الحساب المسمى باللغة الافرنجية الأريتماطيقى يقدم « نبذة » من الجغرافيا تحدد أقسامها الكبرى: جغرافيا طبيعية، جغرافيا رياضية، جغرافيا سياسية، الخ . ولما كان التاريخ علما جديرا بالاهتمام فقد رأى رفاعة أن يترجم للقارىء، عن العبر التى نستمدها من دراسة ماضى الانسانية ، صفحتين بليغتين من نثر أستاذه « جوزيف أجوب » Joseph Agoub . ويصرح رفاعة فى آخر مقالته بأنه تعهد بنقل هذين العلمين من الكتب الحديثة خدمة لمواطنيه .

هكذا قدم رفاعة لنا رحلته ، وثمرتها ، ولم يبق عليه الآن إلا أن يكتب « الخاتمة » . وإنه ليستهلها بمدح « ولى النعم » ورؤساء البعثة الذين عادوا ليشغلوا مناصب عليا؛ مدحاً أجوف ، فى جمل متكلفة مسجوعة . ثم وصف رفاعة طريق عودته من باريس . وقد وقفت به العربة فى « فونتنبلو »حيث أوحى إليه القصر التاريخى الذى زاره بعد أن تنكر الزمان لمن سكنوه ، أن يذم الدهر وأن يستطرد إلى رواية أبيات من الشعر المأثور فى هذا المعنى . ويشبه رفاعة النصب الذى أرادت أسرة « البربون » أن تسجل عليه أسماء ملوكها ، بالآثار المصرية القديمة . ويورد آراء العلماء المحدثين فى الأهرام حتى يقابلها القارىء بما ذكره فيها المؤرخون العرب «من الأوهام» وهنا نلمس الوعى الجديد الذى يدفع هذا الصعيدى الناهض إلى المطالبة بحماية آثار أصبح يقدر قيمتها الوطنية والجمالية . ثم يستأنف رفاعة استعراض المدن التى مر بها: « نيمور » Nemours ، وملان Melun ، حيث كان يعيش مماليك نابليون من مهاجرى مصر وسورية و « روانة » Roannes التى يميزها بهذه التسمية من «روان» Rouen الواقعة فى شمالى فرنسا ، و « ليون » Lyon ، و « أورجون » Orgon . وفى ميناء مرسيليا ، ركب رفاعة سفينة تجارية أوصلته الى الاسكندرية . وهو لايصف الطريق فى البحر « لأنه عين ماسبق فى المقصد » .

على أنه لا يضع القلم قبل أن يصارحنا بخلاصة رأيه فى الفرنسيين « لاشك فى أنهم أقرب إلى العرب منهم إلى الترك، فهم يحرصون على الشرف والحرية، ويحبون الافتخار ، ويفون بعهودهم » . ولكى يشبع استطلاع قرائه الذين يكثرون السؤال عن جمال النساء عند الإفرنج ، يعلن أن العفة ليست نتيجة الحجاب ، بل نتيجة « التربية الجيدة » و « التعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة »

و « الالتئام بين الزوجين » . وقد لاحظ فى فرنسا « أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى دون نساء الأعيان والرعاع » . ويعجب رفاعة « بمروءة » الفرنسيين، وتلك من صفات العرب الأصيلة وإن يكن أضعفها فى الأزمنة الأخيرة « مشاق الظلم ونكبات الدهر » . وأما الحرية التى يعتز بها الفرنسيون ، فقد كانت أيضا من أهم مايعتز به العرب ، ورفاعة يستشهد على ذلك بأمثلة من تاريخ العرب وأشعارهم .

ولا ينسى الطالب الوفى أن يشكر « مسيو جومار » لتفانيه فى خدمة المبعوثين ، ويترجم شطرا من مقدمة التقويم الذى وضعه جومار « لاستعمال مصر والشام سنة ١٢٤٤ هـ » ، ففيه يتحدث عن وجوب الاصلاح فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والتعليم . وفى الختام ، قبل أن يرفع الكاتب الدعاء التقليدى بالتوفيق للحكومة ، نحس أنه يدافع عن نفسه « من قال الناس وقيلهم » فى حزم وتواضع معا .

* * *

لكل كتاب قصة . وقصة تأليف « تخليص الابريز » يروى لنا رفاعة طرفا منها فى خطبته ، إذ يقول :

« فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ـ لاسيما شيخنا العطار ، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار ـ أن أنبه على مايقع فى هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة ، وأن أقيده ليكون نافعا . . . »

أما « الشيخ حسن العطار » فنحن نعرف ماسبق له من الاتصال بالفرنسيين فى مصر ، والتنقل فى الشام وتركيا ، لقد كان يحب الرحلات ويحب الكتب ويغدق النصح لتلميذه الأثير . وأما « الأقارب » فلا بد أنهم أخوال رفاعة الذين شجعوه قبل ذلك على السفر فى طلب العلم من طهطا إلى القاهرة ، وأما « المحبون » فهم بلا شك أصدقاؤه من شباب الأزهر الذين أخذوا يتطلعون إلى بشائر النهضة ، وحسبنا أن نسمى من بينهم « عياد الطنطاوى » الذى رحل فيما بعد إلى بطرسبرج ، وكتب سنة ١٨٥٠ «تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا » .

هؤلاء جميعا كانوا خليقين بدعوة رفاعة إلى تأليف كتاب عن رحلته . ولو لم يفعلوا ، لكتب رفاعة من تلقاء نفسه « تخليص الإبريز » . فهذا الفتى الأديب الذى يسعد بإنشاء النثر وقرض الشعر ، هذا المصرى الذى لم يكد يغادر الأزهر حتى وجد نفسه فى قلب باريس ، هل كان يستطيع أن يصمت أمام مشاهد الحضارة الرائعة التى انكشفت له أسرارها ؟ لقد أقام خمس سنين تهتز مشاعره بما يرى وبما يسمع وبما يقرأ . فهى إذن باريس التى أوحت بهذا الكتاب ؛ على حين لايظهر حسن العطار ولا تظهر توصيته إلا فى الصفحات الأولى ، وهى فى أكبر الظن مكتوبة بعد عودة رفاعة إلى مصر .

إن « تخليص الإبريز » هو الثمرة الطبيعية للرحلة . وفيه نتتبع تجربة الكاتب ؛ تلك المحاولة العميقة لفهم الحياة الجديدة واقتباسها . فالمقارنات بين العيش فى مصر والعيش فى فرنسا لاتكاد تنقطع . وفى كل فصل يتدفق تيار من الوطنية المتأججة هو الذى يدفع الصعيدى المتحرر إلى الكتابة . لقد أملى هذه الصفحات عزم شديدمتوثب ، يريد أن تنطلق مصر مسرعة إلى الأمام لتلحق بركب الإنسانية المتقدمة .

وأنشأ رفاعة كتابه وبلوره فى كثير من التأنى والروية ، كان عليه أن يتعلم اللغة الفرنسية ، وأن يلم بمبادىء العلوم الحديثةوأن يترجمما يطلب منه ترجمته ، فإذا خلا إلى نفسه فى أوقات الفراغ كتب ماتيسر له من « تخليص الإبريز » . وكان يعود إلى أوراقه فيضيف إليها سطورا جديدة عقب درس من الدروس ، أو مطالعة تأثر بها ، أو نزهة فى بعض أحياء العاصمة ، أو زيارة لسيلفستر دى ساسى « بالكوليج دى فرانس » ، أو لكوسان برسفال فى مدرسة اللغات الشرقية ، أو لجوزيف رينو بدارالكتب ، أو بعد حوارخصب مع جومار ، أوحديث شائق مع صديقه جول سلادان .

وفضلا عن هذه المصادر الشفوية ، كان رفاعة يستقى المعلومات من كتبه الدراسية ولاسيما فى الجغرافية والتاريخ ، ومن مقالات الصحف والمجلات التى شغف بقراءتها ، ومن هنا كان دأبه ، كلما ورد ذكر علم من الأعلام أو اسم مدينة شهيرة ، على إتحاف القارىء بمحصول غزير ثقيل من العلم المنقول . وينبغى ألا نلوم رفاعة على إسرافه

فى الجمع من الكتب ، فقد كان متعطشا إلى المعرفة ، تواقا إلى الوقوف على كل جديد وقديم . وإن نهم هذا الطالب لظاهرة من الظواهر التاريخية التى يتميز بها عصر النهضة فى كل مكان ، فالنهضة تفتُّح للمعرفة ، وكشف عن المجهول ، وانتهاب لكنوز التراث الإنسانى ، وقد صور « رابليه » ( Rabelais ) هذه النزعة فى قصة من أهم آثار الأدب الفرنسى فى القرن السادس عشر عندما أعد لبطله العملاق «جارجانتوا» برنامجا موسوعيا يدرسه فى باريس .

على أن رفاعة ، وإن مثل هذه النزعة باسترساله فى التعريفات والتحقيقات المختلفة ، لايزال يبدو أمامنا بوجهه الأليف ، وجه « الواعظ » الذى اعتاد أن يتكلم ليرشد سامعيه ، الواعظ الذى يتحول إلى « أستاذ » يشرح ويبحث ويترجم ، ويصبح المعلم الأول لشباب مصر الحديثة .

وإلى جانب هذه « النبذات » التى لايخلو تجميعها وتلصيقها من سذاجة ، نستطيع أن نتسمع أصداء مطالعات أدبية أرق وأطرف . فرفاعة يفتتح الفصل الأول من مقالته الأولى بالرجوع إلى أصل المجتمع وبداية الحضارة كما كان يفعل كتاب القرن الثامن عشر الفرنسيون ممن اغتذى بأدبهم ، فقد كانت تماؤهم ثقة بالإنسانية ، وثقة بتقدم العلم ، وثقة بذكائهم ، جعلتهم يتخيلون تاريخ الجماعة البشرية فى مختلف الأطوار ، وكأنهم يريدون إعادة خلق الدنيا وتشكيلها على مايتمنونه من صور .

ومن الثابت أن رفاعة قد قرأ بعض مؤلفات « روسو » و « ڤولتير » و « مونتسكيو » ، ولاشك أنه فى حديثه الفكه عن الباريسيات والباريسيين ، وعن سرعة تنقلهم من زى إلى زى ومن بدعة إلى بدعة ، متأثر بصفحات شهيرة لمونتسكيو فى « الرسائل الفارسية » ( Les Lettres Persanes ) .

وكان بين يدى رفاعة ، وهو يجمع مادة كتابه ويصنفها ، نماذج من كتب الرحلات ووصف الشعوب ، فهو يشير إلى «رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية» و «رحلة فى بلاد الجزائر» دون أن يهتم بذكر اسم مؤلف هذه ولا اسم مؤلف تلك .

ولكنه يذكر مرارا وفى دقة كتابا ثالثا قرأه فى باريس ، واقترح عليه جومار أن يترجمه وفرغ فعلا من ترجمته قبل أن يتم « تخليص الإبريز » بسنة على الأقل ،

وذلك هـو كتاب ديبنج : « لمحة تاريخية عن أخـلاق الأمم وعاداتها » .
( Depping : Aperçu historique sur les moeurs et coutumes des nations . )
الذى عنونه رفاعة « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » . إن هذا الكتاب الجامع يرجع إليه إلى حد كبير ، الطابع الموسوعى الذى اتخذته « رحلة» رفاعة . غير أنه علم رفاعة فن تقسيم مادته، وتبويبها ، وحسبك إلقاء نظرة على فهرست هذا الكتاب من ناحية ، وعلى فهرست « تخليص الإبريز » من ناحية أخرى ، حتى تقدر مبلغ مايدين به رفاعة لديبنج . فموضوعات فصول رفاعة عن باريس ، الفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس ، هى موضوعات الفصل الأول والفصل الثانى والفصل الثالث من كتاب ديبنج ، على التوازى : المسكن ، والمأكل ، والملابس . لقد مضى رفاعة يطبق على أهل باريس مادرسه ديبنج لدى شعوب الأرض المختلفة . ولعل إطناب هذا الأخير فى حديثه عن النساء ، وعن التجارة ، وعن الألعاب والرياضة ، وعن الرقص والملاهى ، هو الذى أغرى رفاعة بالاطناب فى وصفها عند الفرنسيين . ولا شك أن الشيخ رفاعة ، حينما أخذ فى تأليف كتابه الأول ، كان فى حاجة إلى مثال يحاكيه ، ومرشد يقتفى خطاه .

وفى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ ، يوم أدى رفاعة امتحانه النهائى فى باريس ، قدم « تخليص الإبريز » إلى اللجنة التى ناقشته ، كأنه رسالة تكميلية إلى جانب اثنى عشر موضوعا مترجما (١) .

وفى شهر فبراير سنة ١٨٣١ ، حرص رفاعة قبل مغادرته باريس على أن يستطلع رأى المستشرقين سيلفستردى ساسى وكوسان دى برسڤال فى « تخليص الإبريز » ، فعهد بمخطوطه إلى كل منهما ، وأثبت ترجمة شهادتيهما فى كتابه . ومن خلال هذين التقريرين ، وتقرير ثالث طويل نشرته بعد عامين « الجريدة الأسيوية » . بقلم كوسان دى برسڤال (٢) نستطيع أن نعرف كيف كان ذلك المخطوط

(1) Revue Encyclopédique, nov.1831, t. XLVIII. pp. 521 - 523.
(2) Nouveau Journal Asiatique , t. XI,Mars 1833.

فى جملته ، لأننا لم نعثر بين أوراق رفاعة التى تحفظها أسرته إلا على أجزاء متفرقة من مسودة « تخليص الإبريز » . وعلى كل حال ، فإن الصفحات الأربع التى ذيل بها كوسان دى برسڤال مقالته ، لتكون أمثلة من نثر رفاعة ، هى أول ما نشر من الكتاب ، سنة ١٨٣٣ .

* * *

تستوقفنا إذن فى دراسة تكوين الكتاب ثلاثة أطوار : المخطوط ، والطبعة الأولى التى تمت فى بولاق سنة ١٢٥٠ هـ . سنة ١٨٣٤ م . ، ثم الطبعة الثانية التى تمت فى بولاق سنة ١٢٦٥ هـ. سنة ١٨٤٩ م . أما الطبعة الثالثة ، الصادرة فى سنة ١٩٠٥ م وإن كانت لا تختلف عن سابقتها ، فلا تعنى الباحث عن تطور رفاعة ، لأنها أعدت ونشرت بعد وفاته .

وإلى جانب تقريرات المستشرقين عن مخطوط « تخليص الإبريز » ، لدينا اليوم من مسودته عدة أجزاء ، لم يرقم رفاعة صفحاتها ، وفيها نتتبع ما يأتى :

( ا ) آخر صفحات « المقدمة » ، ابتداء من « بلاد غرناطة الجديدة » ، وأول صفحات « المقصد » حتى منتصف الفصل الثالث من المقالة الأولى عند عبارة « غير أن المعتمد على الكريم ، لايخشى من الخطب العظيم » .

(ب) الصفحات الأخيرة فى الكلام على أهل باريس ؛ أى من الفصل الثانى فى المقالة الثالثة ؛ ابتداء من « ليلا ونهارا على أحجار أرض باريس خصوصا إذا كانت المستأجرة للعربية مرأة فإن العربجى يجهد خيله » حتى ترجمة « المادة الحادية عشرة » من الدستور الفرنسى .

(حـ) الصفحات الأخيرة من الفصل الثانى عشر « فى دين أهل باريس » ابتداء من « فساير من أراد أن تغفر ذنوبه » حتى نهاية المقالة الثالثة بنهاية الفصل الثالث عشر منها . وهنا تليها فى المسودة مباشرة « المقالة الرابعة فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » . وهذه المقالة تبدأ « بنبذة » فى « اللغة » يتصل بها الحديث عن « فن الكتابة » ؛ ثم عن « علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع » ؛ ثم عن « علم

المنطق » حتى « ومثال التعريف اللفظى قولك الإنسان هو الآدمى إذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف » .

( د ) وقد وجدنا ورقة مزدوجة ؛ على ثلاث صفحات منها ترجمة عاجلة بخط رفاعة لطائفة من مواد القانون المدنى التى تنظم الزواج فى فرنسا؛ أولها « ولنذكر لك عدة أحكام من شريعتهم المدنية » . — وثمة ورقة مزدوجة أخرى ؛ لا شك فى أنها من مسودات « تخليص الإبريز » إذ تبدأ إحدى صفحاتها بهذه الجملة ؛ ومكانها فى الفصل الحادى عشر من المقالة الثالثة : « وقد اخترعوا فى باريس عربيات كبيرة تدور إلى طرق المدينة وتوسق من عدة معدودة كالسفينة بثمن معلوم تسمى الأمنيبوس معناه لكل الناس » تلى هذه السطور محاولة قصيرة لبداية فصل جديد لم يتم « فى السجن والجنايز والمقابر » لا يحمل رقما بعد . والطريف أن الجزء الثانى من الورقة عينها بصفحتيه يحمل تعريفا بالموسيقى الغربية مترجما من بعض كتب تبسيط العلوم ، وقد نقل رفاعة أيضا فى هذا الحيز ثلاثة رسوم توضح أول علامات تدوين الموسيقى .

( هـ ) كما وجدنا ورقة مزدوجة ثالثة، مهد فيها رفاعة لفصل المنطق من مقالته الأخيرة بصفحة عامة عنوانها « الكلام جملى على علم الفلسفة » ، على حين اكتسى الجانب الآخر من الورقة بما قرأناه فى الكتاب من « الكلام على علم الحساب » . ولعل رفاعة قد أنجز ما وعدنا به فى عنوان تلك المقالة المدرسية الجامعة أى بذكر « نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة » فكتب بالفعل — نقلا عن مرجع فرنسى — فصولا عن « البحرية » وعن « علم مصالح البلدان المسمى بالافرنجية الدبلماسيا » وعن «علم الميكانيقى» يعنى علم التحليل بالآلات وعن «الايدروليقى» وعن « علم الكيميا » وعن غيرها مما ضاع مع بعض أوراق هذه الكراسة الصغيرة التى تقدم لنا من خط المؤلف ومن أسلوبه مرحلة أكثر رسوخا ونضجا ، غير أنه عدل عن نشر هذا كله فى كتاب رحلته ، أو لعله أعده لطبعة تالية .

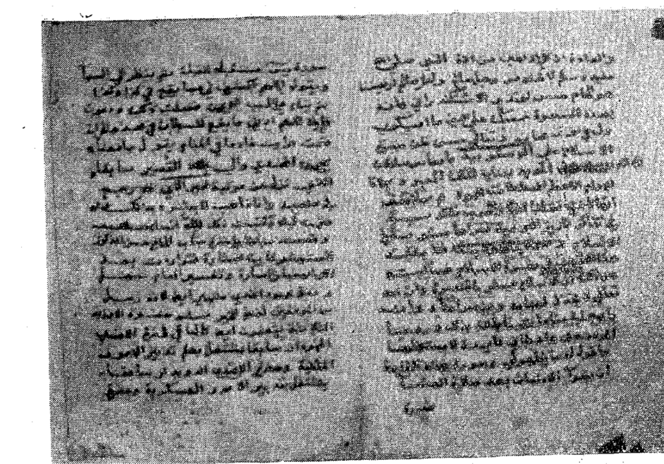
وتختلف الطبعة الأولى عن المخطوط فى الكم والكيف. فالمخطوط لم يكن يتألف كما لاحظنا إلا من أربع مقالات ، رابعتها « فى ذكر نبذات من العلوم والفنون » . بل كانت هذه المقالة الرابعة ناقصة يوم تصفح العمل « كوسان دى پرسڤال » فلم ير

سوى « لمحة فى الرياضة والفلك ومبادىء الهندسة والجغرافيا الطبيعية » . أضاف رفاعة إذن إلى فصول تلك المقالة بعد رجوعه من باريس صفحات عن اللغة والمنطق والتاريخ ، وأضاف إلى الكتاب خاتمة ومقالتين جديدتين رقمهما الرابعة والخامسة فأصبحت مقالة « العلوم والفنون » هى السادسة . وفى أولى المقالتين الجديدتين أودع أهم وثائق دراسته وامتحاناته ومراسلاته ، وفى الثانية روى ثورة الشعب الفرنسى سنة ١٨٣٠ . غير أنه نسى أن يصحح ، حتى فى الطبعة الثانية ، خطة الكتاب التى أعلنها فى مستهل « المقصد » فهى مازالت تنبىء القارىء بالمقالات الأربع القديمة .

وعلى الرغم من ازدياد الكتاب بنحو ثلث حجمه بعد عودة المؤلف إلى مصر فقد حذف رفاعة بعض صفحات مخطوطه الباريسى قبل أن يسلمه للمطبعة . وإذا كنا لانستطيع إحصاء جميع ماحذفه رفاعة ، لأننا لم نعثر على المخطوط كاملا ، فالثابت أنه حذف ـ على الأقل ـ نصين خطيرين .

وفيما يلى النص الأول ، نقلا من المسودة ، ومكانه فى نهاية الباب الرابع من « المقدمة » بعد تسمية « حسن أفندى الإسكندرانى » والدعاء له :

« والعادة أن كل أربعين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم لاتخلو من رجل صالح ولعل صالح أربعيننا هو الحاج حسن أفندى الاسكندرانى . فإنه بهذه السفرة تمسك على الدين ما أمكن . وله فى الله سبحانه وتعالى حسن ظن بنصرة الإسلام على الموسقوبية بأنفاس سلطان الإسلام المؤيد بعناية الملك المعبود ، مولانا الإمام الأعظم السلطان محمود . ومما اتفق أنها كانت تصلنا أخبار الحرب مكتوبة فى تذاكر باريز اليومية فنراها مشومة على الإسلام ، فلا يشك هذا الأفندى فى نصرة الإسلام . فسألته عن ذلك ، فكان يقول إن الإسلام مبشر بالنصرة ، وإن الله تعالى لايخذل أحبابه وينصر أعداءه وإنه رأى جملة منامات ناطقة بذلك ، ورؤيا المؤمن حق . وأعطانى فائدة لأستعملها وأقول مايظهر لى . وصورة هذه الفائدة أن يقرأ الإنسان بعد صلاة العشاء سورة يس مستقبلا للقبلة ، ثم ينظر إلى السماء ويقول اللهم اكشف لى عما يقع فى كذا وكذا ، ثم ينام على الجنب الأيمن . ففعلت ذلك ، ودعوت قائلا اللهم أرنى مايقع للسلطان فى هذه الحرابة . فنمت ، فرأيت خادما فى المنام يقول مامعناه : محمود أفندى والى القصير



من مسودة « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » .

صفحتان فى آخر مقدمة الكتاب حذفهما رفاعة عند طبعه .

سابقا الذى نزل عن مرتبة أميرالاى قد رجع فى منصبه ، وأنا ذاهب لأبشره بذلك اﻫ .

فقمت ليلا وكتبت ذلك لئلا أنساه ، وقصصته صباحا على حضرة جناب الحاج حسن المذكور فاستبشر غاية البشارة . فتواردت بعد ذلك الأنباء السارة . وتفسير المنام سهل»

* * *

لابد أن رفاعة ، وهو يقرأ فى سنة ١٨٣٤ هذا الكلام الذى كتبه قبل انقضاء ست سنين أو سبع - وعلى وجه التحديد قبل أن ينفرد المهردار برياسة البعثة - لاحظ ما يبدو فيه من سذاجة ، ورفض أن ينشره . وبالمثل لا نجد فى الكتاب المطبوع ثانى مصراعى هذه العبارة التى خطها رفاعة فى حديث رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية :
« ولا فائدة لذكر بعض البلاد أو القرى التى رسينا عليها ، غير أنه حصل لى الغم الشديد بعدم تيسر زيارتى سيدى إبراهيم الدسوقى فى القرب من دسوق » . فهو الآن قد يرى فى التبرك بالأضرحة إفراطا فى السذاجة أيضا .

ولكن ، هل رأى من الإفراط فى الجرأة أن يحتفظ بالفقرة الخطيرة التى أورد فيها إثبات علماء الافرنج لدوران الأرض حول الشمس ؟ ها هى ذى ، كما نقلها من مخطوطة كوسان دى پرسڤال[1] ، ومكانها بالمقالة السادسة فى آخر التعريف بالجغرافيا الفلكية :

« وقال بعض علماء الافرنج إن القول بدوران الأرض واستدارتها لا يخالف ما وردت به الكتب السماوية ، وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الأشياء فى معرض وعظ ونحوه جريا على مايظهر للعامة لاتدقيقا فلسفيا ، مثلا : ورد فى الشرع أن الله تعالى وقف الشمس ، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين وهذا يحصل بتوقيف الأرض ، وإنما أوقع الله الوقوف على الشمس لأنها هى التى يظهر فى رأى الأعين سيرها . إنتهى . فظاهر كلامه أنه ارتكب غاية التأويل » .

لقد اقتنع رفاعة بالبراهين العلمية التى درسها ، ثم أعاد النظر فى مخطوطه ، فحذف هذه السطور ! وحذف كذلك الإشارة التى بدرت منه إلى هذه المشكلة وهو يحذر مواطنيه - فى الفصل الثالث عشر عن أهل باريس - من « الحشوات الضلالية

---

(1) Nouveau Journal Asiatique, t. XL, Mars 1833, pp. 245, 251.

المخالفة للكتب السماوية » فقد كانت بقية الجملة : «كالقول بدوران الأرض ونحوه » . ويبدو أنه كان إذ ذاك شديد الحيرة ، فهو يعترف فى اللحظة نفسها بأنهم « يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها » . ولا بد من أنه وزن الأمور بعد أوبته إلى مصر بميزان معاصريه ، فتحاشى مايعتبرونه بدعة ، وتجنب أن يقف موقف «جاليليو» وأن يعيد مأساته . واكتفى فى هذا الموضوع بما سبق له من تلخيص مناظرة «علماء» المغرب حول كروية الأرض وبسطها وحول دورانها وسكونها(١) ، فلا خطر من ذكر آراء « العلامة الشيخ محمد المناعى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، والعلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو » !

* * *

أما أسلوب « تخليص الإبريز » فى المخطوط فكان مليئا بالأغلاط اللغوية والنحوية . وقد نبه « سيلفستر دى ساسى » إلى هذه الظاهرة ، وعللها بأن رفاعة « استعجل فى تسويده » ، ورجاه أن « يصححه عند تبييضه » . وقد اختفى بالفعل عند طبع الكتاب لأول مرة عدد كبير من هذه الأخطاء ومن التعبيرات الركيكة والعامية فلقد وجد رفاعة فى مصر من أوقات الفراغ ومن صحبة أساتذة الأزهر ، ما أتاح له أن يصحح وينقح كتابه قبل طبعه .

ولسنا نعنى أن الطبعة الأولى خلت من الأخطاء اللغوية ، فقد اشتغل رفاعة مرة أخرى ، وهو يعد الطبعة الثانية ، بمراجعة ألفاظه وتطبيق قواعد النحو والصرف وغنى عن القول أنه بدأ بتصحيح الأخطاء المطبعية . على أن الطبعة الثانية تمتاز فوق ذلك على الأولى بعدة زيادات وتعديلات أدخلها رفاعة فى مواضع مختلفة . من هذه الفروق مايصحح فكرة أو يحددها ، ومنها مايضيف ذكر أعمال تمت منذ نشر الطبعة الأولى ، غير أن معظمها لاينبئنا بجديد سوى رغبة المؤلف فى تحلية كتابه بما راح يجمعه من جميل النثر والشعر لكل مقام :

فمن التعديلات التى تصحح فكرة أو تحددها ؛ حذف رفاعة لكلمة « كفرة » التى استعملها أول الأمر مرادفة لكلمة « نصارى » فى قوله : « ثم إن بلاد أوروبا

(١) فى بداية الفصل الأول من المقالة الثانية .

نهاية « المقدمة » وبداية « المقصد » فى مسودة تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ».
لقد أضاف رفاعة أكثر من « مقالة » جديدة إلى مادة كتابه الأولى .

أغلبها نصارى أو كفرة (١) . وقد خط رفاعة هذا النعت مرارا فى مسودته ، فقد كان يقول مثلا فى تقديمه للدستور الفرنسى : « فأنذكره لك . . لتعرف كيف قد حكمت عقول الكفرة بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » . ولعل فى تكرار هذه الكلمة مايدلنا على أن رفاعة كان يستخدمها استخداما آليا ، مرددا فى ذلك تعبيرا جاريا على ألسنة أهل عصره ؛ أفقده التكرار معناه؛ ولم يتدخل رفاعة فى إنشائه على كل حال . أما إذا كان له أن يعبر تعبيرا شخصيا ؛ يعنى فيه ما يقول ؛ بعد أن عاش فى أوروبا ، وخبر « الافرنج » ، وكتب عن دينهم وناقش فى هذا الموضوع سيلفستر دى ساسى ، فإنه يتدخل فى التعبير ليزيل هذا المرادف الذى اقتنع بأنه غير مرادف . وفى الوقت نفسه يحرص المؤلف على اكتساب رضا أغلبية قرائه فقد ساءتهم بلا شك نهاية « عبد العال » ، أغا الانكشارية الذى هاجر من مصر إلى فرنسا ثم تنصر « بسبب الزواج بنصرانية ثم مات بعد قليل » وها هو ذا رفاعة يضيف فى الطبعة الثانية رواية أخرى لنهاية عبد العال : « ويقال إنه سمع منه عند موته يقول : أجرنى يارسول الله ، ولعله ختم له بخير وعاد إلى الاسلام فقال بلسان الحال :

الحمد لله الحنيفة ملتى والله ربى وابن آمنة نبيى »(٢)

ومن التعديلات التى تبعت عامل الزمن ، نجد بعض مايدل على تغير التاريخ ؛ ففى الطبعة الأولى نقرأ أن المهردار « يشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية » وفى الطبعة الثانية نقرأ الفعل فى صيغة الماضى : « اشتغل »(٣) كما يشير رفاعة إلى بعثة تعليمية جديدة إلى « بلاد النيمسا »(٤) وبعد أن شبه الاسكندرية بمرسيليا فى الطبعة الأولى ، يضيف فى الطبعة الثانية : « ولما ذهبت إليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوربا»(٥) . وكان فى الطبعة الأولى قد تمنى أن تقتبس مصر نظام رش الشوارع بمثل العربات

(١) فى الباب الثالث من المقدمة .

(٢) فى الفصل الأول من المقالة الثانية .

(٣) فى الباب الرابع من المقدمة .

(٤) فى آخر الباب الثالث من المقدمة .

(٥) آخر الفصل الأول من المقالة الأولى .

التى أعجب بها فى باريس ، وقد تحققت أمنيته قبل نشر الطبعة الثانية فكتب فى آخر تلك الفقرة بين قوسين : ( قد صار الآن جل ذلك بمصر )(١) .

على أن أكبر الزيادات حجما فى الطبعة الثانية هى أبيات الشعر التى دأب المؤلف الأديب على أن يستشهد بها ، ويضع صفحات مستحدثة تخللت الكتاب وفيها يستطرد رفاعة إلى ذكر موضوعات من تاريخ الحضارة العربية . ومن أطرف هذه الصفحات ما علق به على شخصية الأسكندر ذى القرنين ، فقد مضى يمزج بين أساطير اليونان وأساطير العرب ، ملبياً نزعته الجديدة إلى الدراسات المقارنة ، رافعا فكرة بحثه هذا فى « الميتولوچيا المقارنة » إلى الأكاديمية الفرنسية (٢) لقد تفاعلت فى عقله معارف من الشرق ومعارف من الغرب فأخصبت . وثمة صفحة أخرى ، يشيد فيها رفاعة بسالف مجد العرب ردا على مايراه من تفوق الافرنج ، وهو يسجع العبارة تلو العبارة ، حتى ينتهى بمدح ولى النعم . (٣) وحينما يضيف فى إطناب ترجمة حياة الفارابى لأنه شبَّه به « سيلفستر دى ساسى » (٤) ، أو يضيف نوادر أبى بكر الخوارزمى والصاحب بن عباد(٥) نتأكد نحن أن رفاعة قد عاد فى مصر إلى أحضان الأدب العربى .

* * *

وماذا أراد رفاعة من كتابة «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» ؟ لقد أفصح عن أغراضه فى « الخطبة » التمهيدية حيث قال :

«ليكون نافعاً فى كشف القناع ، عن محيَّا هذه البقاع ، التى يقال فيها إنها عرائس الأقطار وليبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ، خصوصا وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية على حسب ظنى شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ، ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها ... فما قصرت فى أن قيدت

---

(١) فى الفصل الأول من المقالة الثالثة .
(٢) فى الفصل الأول من المقالة الأولى .
(٣) فى الباب الثالث من المقدمة .
(٤) فى الفصل الثانى من المقالة الثالثة .
(٥) انظر المصدر السابق .

(من مسودة « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » . صفحة فى التعريف بالموسيقى الغربية – لم تطبع ؛ وبداية فصل « فى السجن والجنائز والمقابر » — لم تتم .

فى سفرى رحلة صغيرة ... وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الأفرنج أمر ثابت شائع « والحق أحق أن يتبع ».

لقد وضع نصب عينيه إذن أن يقدم للمسافر إلى فرنسا دليلا مفيدا . ولقارىء الأدب العربى كتابا طريفا ، وللشعوب الإسلامية دعوة إلى النهوض والأخذ من حضارة أوروبا . حاول أن يجعل من « ديوانه النفيس » ثلاثة أشياء فى آن واحد: رحلة عملية وتحفة فنية ، ودرسا وطنيا . فإلى أى مدى حقق كل غرض فى هذه الأغراض ؟

لكى يتحدث عن فرنسا بوصفها بلدا سياحيا كان عليه أن يجوب أرجاءها ، وأن يزور أشهر مدنها ومعالمها . ولكنه لم ينتقل من مكان إلى مكان ، فظل مجال خبرته ومشاهداته محدودا . لم يقم طوال السنوات الخمس التى قضاها بعيدا عن مصر إلا فى باريس ، باستثناء بضعة أسابيع أنفقها فى مرسيليا . وإذا كان قد استروح نسائم الريف الفرنسى من نافذة العربة التى قطعت به الطريق إلى العاصمة ، فإنه يجهل الحياة فى الأقاليم . لذلك لامه سيلفستر دى ساسى قائلا . « غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلا على أهل باريس » وفى الحق أن عنوان الكتاب ينصب على باريس وحدها لا على فرنسا بأسرها .

لقد اعتمد رفاعة فى كتابته عن باريس على ملاحظاته الخاصة ، ومحادثاته مع أهلها ، كما اعتمد على بعض الكتب التى تناولت بعض الحوادث الخاصة بالحياة هناك ، ولكنه عند ما كان يتكلم عن فرنسا عامة كان يتكلم عنها من خلال ثلاث نوافذ إحداها مشاهداته خارج باريس . ومن الحق أن نقرر أن هذه كانت محدودة فى العدد والنطاق . وثانيتها قراءاته عن الأمة الفرنسية مما كتبه المؤلفون الفرنسيون ، وثالثتها باريس نفسها ، فقد اتخذها مثالا لما يحدث فى فرنسا جميعها . ولعله هنا كان أميل إلى التعميم فيما كان الأولى به التخصيص . كما أشار إلى ذلك أحد أساتذته حينما عرض عليه رفاعة أصول كتابه . وخير ما نصور به هذا الكتاب من حيث وصفه لأهل فرنسا هما العبارتان اللتان أثبتهما رفاعة فى الكتاب نقلا عن بعض الأساتذة الفرنسيين :

فقد كتب له الأستاذ سلفستر دى ساسى : « أما بعد فانه سيصلك مع هذا

، طلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك . وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ، ويعجب من وقف عليه . ولا بأس أن نعرض خط يدنا على مسيو چومار » .

وكتب الأستاذ دى ساسى العبارة الآتية إلى مسيو چومار : « لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ ـ إلا اليسير منه ـ فحق لى أن أقول ؛ إنه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ؛ وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ؛ ولكنه يشتمل على بعض أوهام إسلامية . ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم ؛ وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ؛ سليم الفهم ؛ غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلا على أهل باريس والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها حيث لم يطلع على غير باريس وبعض المدن » .

وقد جد رفاعة فى معالجة موضوع « تخليص الإبريز » من نواح ثلاث ، مزودا السائح بالمعلومات ، متحفا القارىء بجودة التصنيف ، مقارنا دائما بين أحوال فرنسا « العجيبة » وأحوال مصر التى ينبغى إصلاحها . ويعترف رفاعة بأنه وشح كتابه بعد ذلك « ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة » ، أى بكل ما وجده مفيدا أو جميلا . وكثيرا ما بدت له فصول كتب الجغرافية والتاريخ الفرنسية مفيدة ، وكثيرا ما بدت له أبيات الشعر العربى التى يحفظها جميلة ، وليس يدهشنا الآن أن نراه قد أفسح فى « رحلته » مكانا لأربعة كتيبات مستقلة عنها كان أجدر به أن ينشر كلا منها على حدة ، وهى ترجمته للدستور الفرنسى ، وترجمته « لنصيحة الطبيب » ، وتاريخه لثورة ١٨٣٠ ، ومقتطفاته من « العلوم والفنون » . ولقد شرح المؤلف وجهة نظره فيما يختص بالمقالة الأخيرة ، فقد أراد أن يكمل فائدة رحلته للقارىء بإيراد «ثمرتها» أيضا . وفى الواقع ، كانت لفظة « باريس » بالنسبة لرفاعة لفظه جامعة شاملة ، تمثل فى ذهنه البعثة الدراسية ، والطريق بما فيه الاسكندرية ، والمنظمات الأوروبية ، والعلم الحديث . وذلك ما يبرر عنوانه الغريب ، فقد كانت كتابته فى هذه الموضوعات كلها

استخلاصا للذهب من مقامه الثمين فى باريس ، وتلخيصا لمعارفه التى استقاها عن باريس ومعارفه التى حصلها فى باريس .

وإذا كان لابد لنا أن نلخص أسلوب رفاعة فى هذا الكتاب فإن ذلك يتلخص فيما يأتى : أنه كان يتحرر من الأسلوب العتيق ، الذى كان سائدا فى عصره بالتزام السجع والمحسنات البديعية ، حينما كان يكتب فيما لايحتمل التلكؤ الذى تقتضيه هذه القيود اللفظية ، وحينما كانت الأفكار التى يتناولها ، كتابة أو ترجمة ، أهم فى نظره من الاحتفال باللفظ إذا كان يرمى إلى نشر معارف جديدة بين جماهير الشعب ، حتى لقد ذهب فى سبيل ذلك إلى ابتكار عبارات عربية تؤدى المعانى الفرنسية التى لم يجد مايقابلها فى اللغة العربية ، وأحيانا لجأ إلى تعريب اللفظ الفرنسى بوضعه فى صيغة عربية ، مع قدر غير هين من النجاح فى ذلك ، مما ستذكر له بعض الأمثلة .

على أنه كان يعود إلى السجع والحفاوة باللفظ فى بعض الأحيان ، ولا سيما فى استطراداته التى كان يستعرض فيها مقتبساته من الأدب العربى الذى كان سائدا فى عصره ، فمن ذلك أنه بعد أن ترجم « نصيحة الطبيب » فى نحو عشرين صفحة ، فى عبارة مرسلة اقتضتها طبيعة الموضوع التى لم تكن تحتمل السجع ، عقّب على ذلك بخاتمة فى نحو عشرين سطرا أتبع فيها شوقه للسجع بعد أن احتمى منه فى أثناء الترجمة .

ومن خصائصه الأسلوبية أنه كان كثيرا مايبدأ فصول كتابه بقوله : اعلم أن كذا وكذا وهو فى ذلك خاضع لأسلوب عصره . على أنه ، وهو الشيخ الأزهرى الوفىّ لثقافته ، لم يجد بأسا فى أن ينتقد كتب الأزهر وطريقة تأليفها ودراستها . فيقول مثلا « وإذا أراد المعلم أن يدرس كتاباً (فرنسيا) لايجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فإن الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلا ، فإن الإنسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها . وأما كتب الفرنسيس فلا شىء من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش ، إلا نادرا ، وإنما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفا ، تكميلا للعبارة بتقييد أو نحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى إفهام مدلولها!

فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكّة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن إنتاجه منها . وأما غير ذلك فهو ضياع ؛ مثلا إذا أراد إنسان أن يطالع علم الحساب فإنه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر إلى إعراب العبارات ، وإجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ونحو ذلك ... »

أما الاستطراد فهو ظاهرة من ظواهر أسلوبه ؛ يلجأ إليه أحيانا لمناسبة يرى فيها فائدة لقرائه ، وأحيانا لمجرد تداعى المعانى فى ذهنه ، ولو لم يكن الاستطراد ذا فائدة فيما هو بصدده .

ويسترعى نظرنا استطرادان على سبيل المثال : يدلان على ما كان يختلج فى صدر هذا الرائد العظيم من آمال لأمته ، وما كان يشعر به مما هو جار فى بلاده وقد تنسم نسيم الحرية فى خارجها . ففى الفصل الذى يتكلم فيه عن تدبير الدولة الفرنسية . يستطرد عند الكلام على مظاهر العدل فى الدستور الفرنسى باقتباس عدة عبارات وأشعار عربية . ونكاد نوقن أن شعوره بالحاجة إلى العدل فى بلاده دعاه إلى الاستطراد بقوله : « وقلوب الرعية خزائن ملكها . فما أودعه إياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ولا عمارة إلا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم » .

وعند كلامه فى كسب مدينة باريس ومهارتها ، نسمعه يتنفس ما فى نفسه عن الحكم فى مصر إذ يقول : « وقد يوجد بها ـ باريس ـ من أهالى الحرف الدنيئة من إيراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ؛ فهو المعول عليه فى أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار ، أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار . ولا شك أنه تأسس فى قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع ماعنده هاد ولا شفيع
رعية الجبار مرعى الحرب والملك العادل نصف الخصب

ونذكر فيما يلى بعض محاولات رفاعة فى الترجمة كما أشرنا إلى ذلك :

فقد عالج رفاعة الترجمة فى باريس : مقارنة فى سبيل الادراك . فعندما أخذ

يترجم دستور فرنسا ، نشطت ذا كرته فى البحث عن مصطلحات من تاريخ النظم الاسلامية تعادل المصطلحات الفرنسية ، ووجد بعض مايريد فوضع مقابل la loi كلمة « الشريعة » ومقابل le trésor public « بيت المال » ، ومقابل departement « عماله » ومقابل leprefét « المحتسب » الخ . وعندما أخذ فى ترجمة نصوص علمية استعمل — متبعا نفس الاتجاه — تسميات العلوم القديمة عند العرب فترجم «الميكانيكا» بعلم « الحيل » والتاريخ الطبيعى بعلم «التولدات أو المواليد الثلاثة» والفلك أو الجغرافيا الرياضية بعلم « الهيئة » الخ .

إنه يحاول أن يبعث من التراث العربى قوالب التعبير الثقافية والجمالية التى تقابل القيم الفكرية الحديثة ، وتفاصيل الحياة التى يعاصرها . ولكنه يصطدم بالعدم فى كثير من الأحيان ، فاللغة العربية التى بين يديه لغة قد تحجرت منذ قرون طوال ، وتخلفت عن الركب ، وأصبحت عاجزة عن تسمية محاصيل الحضارة الأخيرة . وكم كان يتمنى لو أنه استطاع أن يوفق دائما بين مايجده فى موارد الفرنسية والعربية من الجرْس والمعنى فى آن واحد ، كما وفق بين كلمة « شارت Charte » وكلمة « شرط أو شريطة » وطلع علينا بكلمة جديدة هى « الشرطة » ! غير أن مثل هذا الالتقاء لم يتوفر له ولم يتيسر ، وهيهات أن يقع الحافر على الحافر مادامت أرض فى الشرق وأرض فى الغرب فيضطر زفاعة إلى الاحتفاظ بالكلمة الفرنسية راسما إياها بحروف عربية ، لا سيما إذا كانت من الأسماء الجغرافية أو أسماء الأشهر ، فضلا عن أسماء الأعلام . وهو ينقل تلك الألفاظ من الكتب نقلا صوتيا تاما ، أى بإثبات كل حرف يراه فى الأصل وبهذه الدقة نسخ : washington : وسهنجتون ، و Afghanitan : أفغهانستان ، و Etats - unis · الإيتازونيا (١) . وأما غير أسماء الأعلام ، فإنه ينقلها نقلا صوتيا مع شرح معناها للقارئ ، مثل سبكتاكل Spectacle ، بال bal ؛ شمبر دوبير Chambrt des Pairs ، أكدمة Académie ، فسيولوجيا Phisiologie ، دلجنس Diligence ، أمنبوس Omnibus ، رسطراطور restaurateur ، جرنال Journal الخ .

على أنه يقنع بترجمة banguiers بصيارفة ، و acteurs بلاعبين ، و musiciens

(١) هى الولايات المتحدة الأمريكية .

بآلاتية . وتوخيا للوضوح فى نقل المعنى ، قد يلحق رفاعة باللفظة الجديدة تعريفا كاملا كما قال فى ترجمة Chambre des Séputés . « ديوان رسل العمالات الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم » . فإن الألفاظ فى رأيه هى التى ينبغى أن تكون فى خدمة المعانى ، وإن العلة التى أوجدت اللفظ الأصلى هى التى ينبغى إبرازها فى أدائه بلغتنا : وهكذا يترجم - فى المادة العشرين من « الشرطة » après un délai de dix jours بعد التفكر عشرة أيام لأن غاية تلك « المهلة délai » هى دعوة المجلس المذكور إلى إعادة النظر فى قراره أى « التفكر »

وبعد فمن إنصاف رفاعة فى حكمه ونزاهته أن نقرر هنا أن إعجابه بفرنسا والفرنسيين لم يكن إعجابا أحمق ، لا يرى إلا الحسنات ، فإلى جانب ما ذكره من فضائلهم ومزاياهم ، سطر كثيرا من مثالبهم فمن ذلك حديثه عن بخلهم ، « وليس عندهم المواساة إلا بأقوالهم وأفعالهم ؛ لا بأموالهم ، إلا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته ؛ لا هبته ؛ إلا إذا وثقوا بالمكافأة .وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم » .

ويتكلم عن الشحاذين المحترفين عندهم فيقول . « لأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال فى غالب الأحوال ؛ حتى إنهم يتشكاون فى صورة المجاريح ونحوهم ؛ ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم » .

كما أنه أشار غير مرة إلى الإباحية المنتشرة بين نسائهم ؛ مما نتركه للقارئ يجده فى الكتاب .

وأخيرا لا نختم هذه المقدمة دون أن نشير إلى ما كتبه رفاعة عن اغتصاب فرنسا للجزائر الباسلة التى نهضت اليوم نهضتها الثائرة لاسترداد استقلالها . فقد روى رفاعة أنه عندما جاء وصل خبر وقوع الجزائر فى يد الفرنسيين إلى « رئيس الوزراء ( بولنياق ) أمربتسييب مدافع الفرح والسرور .... وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث إن مراده نفذ ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر ؛ فما كانت أيام قلائل إلا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى إن مادة الجزائر نسيت بالكلية ، وصار الناس لا يتحدثون إلا بالنصرة

الأخيرة : على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها مايملكه ؛ وملك الفرنسيس خرج من مملكته يتندم على ماوقع منه ؛ وللزمان صروف تدول ، وأحوال تحول . وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لاتقتضى ذلك بل بمجرّد إرضاء هوى النفس ، وإذا نصر الهوى بطل الرأى . ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جاء إليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة ، فمن جملة كلامه مامعناه أنه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية ولا زالت كذلك ( انتهى ) : مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالى الجزائر إنما هو مجرد أمور سياسية ، ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات ومجادلات منشؤها التكبر والتعاظم .. : فلما وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعدهروبه ، وخربوه وأفسدوا جميع مافيه ، حتى إنه تخفى ، ولم يعلم له أثر ، ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته ثانيا ولا زال مذموما مخذولا ؛ قال الشاعر :

لاتعجبن ، رويدا ، إنها دول دنيا تنقل من قوم إلى قوم»

وبعد : فهذا كتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » نقدمه مع التعريف به وبكاتبه العظيم ، بمناسبة احتفال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بذكرى هذا الرائد العظيم للنهضة الفكرية العربية الحديثة :

القاهرة فى أكتوبر سنة ١٩٥٨

مهدى علام أنور لوقا أحمد أحمد بدوى

هذه رحلة الفقير إلى الله تعالى رفاعة بدوى رافع الطهطاوى إلى ديار فرانسا المسماة بتخليص الإبريز إلى تلخيص باريز أو الديوان النفيس بإيوان باريس .

---

تقريظ شيخنا شيخ الاسلام الشيخ العطار شيخ الجامع الأزهر على هذا الكتاب سبحان من أظهر عجائب مصنوعاته فى اختلاف أوضاع مخلوقاته * وتباين أنواع العالم واختلاف هيئاته * يرى ذلك بعين الاستبصار * من ولج فى البحار واقتحم القفار * فإن السفر مرآة الأعاجيب * وقسطاس التجاريب * وقد أودع فى هذه الرحلة مؤلفها الأديب الأريب * والفاضل الذكى اللبيب * ما شاهده من عجائب تلك البلاد * وأحوال هؤلاء العباد * ما يحرض العاقل على الأسفار * والتنقل فى الأمصار * حتى يزداد بذلك علما يقينا * ويفوق بالإحاطة بأحوال عباده فى الزمن اليسير بما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا .

حرره الفقير حسن العطار
خادم العلم بالأزهر
عفا الله عنه

( الوجه الأول من الورقة الأولى بعد الفهرست فى طبعة بولاق سنة ١٢٦٥ هـ ) .



سبحان من سير أقدام الأنام إلى مامضى فى سابق علمه ، ويسر للإنسان الإقدام على محتم قضائه وحكمه ، فلا محيص لقوى وضعيف ، ووضيع وشريف ؛ عما جرى فى أم الكتاب ، ولا مفر لغنى وفقير ، وخطير وحقير ؛ عن الاقتراب إلى مطوى ذلك الحجاب .

أحمده سبحانه وتعالى حمد من ابتلاه فصبر ، وأغناه فشكر . وأشكره شكر من توجه بجنانه للسير إلى مرضاته ، فتنزه فى رياض القبول وجناته . وأصلى وأسلم على من سارت ركائب شوقه إلى مدبره ، وأشارت مواكب حسن خلقه إلى طيب عنصره : سيدنا محمد الذى سافر إلى الشام وهاجر إلى المدينة ، وسار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وكان جبريل أمينه . وعلى آله وأصحابه ، وعترته وأحبابه .

أما بعد : فيقول العبد الفقير إلى أمداد سيده ومولاه ، السائر حيث وجهه ووولاه . المعتمد على الكريم النافع ، رفاعة ابن المرحوم السيد بدوى رافع الطهطاوى بلدا ، الحسينى القاسمى نسبا ، الشافعى مذهبا : لما من الله سبحانه وتعالى على بطلب العلم بالجامع الأزهر والمحل الأنور ، الذى هو جنة علم دانية الثمار ، وروضة فهم يانعة الأزهار ، كما قال أستاذنا العلامة العطار :

لازم إذا رمت الفضائل مسجدا ... بشموس أنوار العلوم تنورا
فيه رياض العلم أينع زهرها ... فلذلك المعنى تسمى «الأزهرا»

وقال بعضهم —وأحسن— بيتين ، معرّضا بعلماء الحرمين :

ومن يغترب عن «أزهر» العلم فلينح  على بُعد دار العلم والعلماء
ففيه بحور طاميات ، وغيره  بحور عروض لا تجود بماء(١)

وحصلت ما يسر به على الفتاح مما يخرج به الإنسان من الظلام ، ويمتاز به عن مرتبة العوام ، وكنت من معشر أشراف جارت عليهم الأيام ، بعد أن أجرت غيثهم فى ديارهم ، وأشارت إلى نصبهم(٢) الأعوام . بعد أن نصبت أعلام راحتها فى مزارهم ؛ ومن المركوز فى الأسماع فى القديم والحديث ، وعليه الإجماع بعد الكتاب والحديث ؛ أن خير الأمور العلم ، وأنه أهم كل مهم . وأن ثمرته فى الدنيا والآخرة على صاحبه تعود ، وأن فضله فى كل زمان ومكان مشهود . سهّل لى الدخول فى خدمة صاحب السعادة أولا فى وظيفة واعظ فى العساكر الجهادية ، ثم منها إلى رتبة مبعوث إلى باريس صحبة الأفندية المبعوثين لتعلم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهية . فلما رسم اسمى فى جملة المسافرين ، وعزمت على التوجه أشار على بعض الأقارب والمحبين ، لا سيما شيخنا العطار(٣) ، فإنه مولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب (ص٤) الآثار ، أن أنبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة ، والأشياء العجيبة . وأن أقيده ليكون نافعا فى كشف القناع ، عن محيا هذه البقاع . التى يقال فيها : إنها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار ؛ خصوصا وأنه من أول الزمن إلى الآن لم يظهر باللغة العربية — على حسب ظنى — شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسىّ مملكة الفرنسيس . ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها . فالحمد لله الذى جعل ذلك بأنفاس ولى النعمة وفى عهده ، وبسبب عنايته وتقويته للعلوم والفنون ، فما قصرت فى أن قيّدت فى سفرى رحلة صغيرة ؛ نزهتها عن خلل التساهل والتحامل ، وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ،

(١) فى العروض تورية ، فالعروض ميزان الشعر ، واسم لمكة والمدينة .

(٢) النصب : التعب .

(٣) هو الشيخ حسن العطار ، ولد بالقاهرة سنة ١١٨٠ هـ ( ١٧٦٦ م ) وتتلمذ على أكابر علماء عصره ، وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ ، وظل فى منصبه إلى أن توفى سنة ١٢٥٠ هـ ( ١٨٣٥م ) .

ووشحتها ببعض استطرادات نافعة ، واستظهارات ساطعة ، وأنطقتها بحثّ ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فإن كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع . والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله إننى ، مدة إقامتى بهذه البلاد ، فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسلام منه ، وإياك أن تجدما أذكره لك خارجا[1] عن عادتك ، فيعسر عليك تصديقه ؛ فتظنه من باب الهذر والخرافات ، أو من حيز الإفراط والمبالغات . وبالجمله فبعض الظن إثم ، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب :

وإذا كنت بالمدارك غرًّا ثم أبصرت مدركا لا تمارِ[2]
وإذا لم ترَ الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصارِ

وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على ألاَّ أحيد فى جميع ما أقوله عن طريق الحق ، وأن أفشى ما سمح به خاطرى من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها ، على حسب ما يقتضيه الحال . ومن المعلوم أنى لا أستحسن إلا ما لم يخالف نصّ الشريعة المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية .

وليست هذه الرحلة مقتصرة على ذكر السفر ووقائعه ؛ بل هى مشتملة أيضا على ثمرته وغرضه ؛ وفيها إيجاز العلوم والصنائع المطلوبة ، والتكلم عليها ، وعلى[3] طريق تدوين الإفرنج لها ، واعتقادهم فيها ، وتأسيسهم لها ؛ ولذلك نسبت فى غالب الأوقات (ص٥)الأشياء التى هى محل للنظر أوللاختلاف ، مشيرا إلى أن قصدى مجردحكايتها .

وقد سميت هذه الرحلة : « تخليص الإبريز[4] ، فى تلخيص باريز » ، أو : «الديوان النفيس ، بإيوان[5] باريس» .

وقد رتبتها على مقدمة ، وفيها عدة أبواب ، وعلى مقصد ، وفيه عدة مقالات ، وكل مقالة فيها عدة فصول ، أو كتب مشتملة على فصول ، وعلى خاتمة ، ـ راجع الفهرست فى أول الكتاب ـ .

وقد حاولت فى تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز ، وارتكاب السهولة

---

(١) فى المطبوعة : خارجا .
(٢) فى المطبوعة : لاتمارى .
(٣) فى المطبوعة : على بدون واو .
(٤) ذهب إبريز : أى خالص.
(١) الايوان : المكان المتسع من البيت يحيط به ثلاث حوائط

فى التعبير ؛ حتى يمكن لـكل الناس الورود على حياضه ، والوفود على رياضه ؛ ولو صغر حجمه ، وقل جرمه ، فهو مشحون بما لا يحصى؛ من فوائد الفرائد ، وبما لايستقصى؛ من جزائل الخرائد . ( شعر ) :

فإذا بدا لا تستقلوا حجمه وحياتكم ، فيه الـكثير الطيب

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الـكتاب مقبولا . (لدى الخاص والعام) وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم . إنه سميع مجيب ، قاصده لا يخيب.

## المقدمـة

# الباب الأول

في ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد ،
التى هى ديار كفر وعناد ، وبعيدة عنا غاية الابتعاد ،
وكثيرة المصاريف لشدة غلو الأسعار فيها غاية الاشتداد .

أقول : إن هذا يحتاج إلى تمهيد ، وهو أن الأصل فى الإنسان الساذجية ، والخلوص عن الزينة . والوجود على أصل الفطرة، لايعرف إلا الأمور الوجدانية ، ثم طرأعلى بعض الناس عدة معارف لم يسبق بها، وإنما كشفت له بالصدفة والاتفاق ، أو بالإلهام والايحاء ، وحكم الشرع أو العقل بنفعها، فاتُّبعت وأبقيت .

مثلا : كان فى أوائل الزمن ، يجهل بعض الناس تنضيج المطعومات بالنيران ، لجهل النار بالكلية عندهم ، ويقتصرون على الغذاء بالفواكه أو بالأشياء المنضجة بالشمس ، أو أكل الأشياء النيِّئة ؛ كما هو باق فى بعض البلاد المتوحشة إلى الآن ، ثم حصل اتفاقا أن بعضهم رأى خروج شرارة نار من الصوان ، بمصادمة حديدة أو نحوها ، ففعل مثل ذلك ، وقدِم وأخرج النار وعرف خاصيتها . وكان ( ص ٦ ) فى الناس من يجهل الصبغ ، والتلوين للثياب باللون الأرجوانى مثلا ؛ فرأى بعضهم كلبًا أخذ محارة من البحر ، وفتحها وأكل ما فيها ، فاحمر حنكه، وتلون بما فيها ، فأخذوها ، وعرفوا منها صناعة الصباغة بهذا اللون، كما يحكى ذلك عن أهالى «صور» ببر الشام .

وكانت الناس فى أول الأمر تجهل ركوب البحر ، ثم بإلهام إلهى ، أو باتفاق بشرى ؛ عرفوا أن من خواص الخشب السبح على وجه الماء ، فصنعوا السفينة ، ثم

تبحروا فى السفن، وعمّروها ، ونوّعوها أنواعا ، فكانت أولا صغيرة للتجارات ، ثم ترفعوا فيها ، حتى صلحت للجهاد والحرب ، وقس على ذلك ما أشبهه ؛ من المحاربة بالسهام والرماح أولا ، ثم بعد ذلك بالسلاح ، ثم بالمدافع ، والأهوان .

وقد كانت الناس فى أول الزمن تعبد الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك ، ثم بإلهام الله تعالى ، وبإرساله الرسل صاروا يعبدون(١) إلها واحدا ، فكلما تقادم الزمن فى الصعود ؛ رأيت تأخر الناس فى الصنايع(٢) البشرية والعلوم المدنية . وكلما نزلت ، ونظرت إلى الزمن فى الهبوط رأيت فى الغالب ترقيهم وتقدمهم فى ذلك ؛ وبهذا الترقى ، وقياس درجاته ، وحساب البعد عن الحالية الأصلية ، والقرب منها ؛ انقسم سائر الخلق إلى عدة مراتب :

المرتبة الأولى : مرتبة الهمل المتوحشين .

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخُشْنيين.

المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب والظرافة، والتحضر ، والتمدن ، والتمصر المتطرقين .

مثال المرتبة الأولى: همل بلاد [ المتوحشين ] الذين هم دائما كالبهائم السارحة ؛ لا يعرفون الحلال من الحرام ، ولا يقرءون ، ولا يكتبون ، ولا يعرفون شيئا من الأمور المسهلة للمعاش ، أو النافعة للمعاد ؛ وإنما تبعثهم الوجدانية على قضاء شهواتهم كالبهائم ، فيزرعون بعض شيء ، أو يصيدونه ؛ لتحصيل قوتهم ، ويخصصون بعض أخصاص أو خيام ؛ للتوقى من حر الشمس ونحوه ؛ .

ومثال المرتبة الثانية : عرب البادية ، فإن عندهم نوعا من الاجتماع الإنسانى . والاستئناس ، والائتلاف ، لمعرفتهم الحلال من الحرام ، والقراءة والكتابة وغيرها ، وأمور الدين ، ونحو ذلك ؛ غير أنهم أيضا لم تكمل عندهم دوجة الترقى فى أمور المعاش ، والعمران ، والصنائع البشرية ، والعلوم العقلية والنقلية ، وإن عرفوا البناء ، والفلاحة ، وتربية البهائم ، ونحو ذلك .

ومثال المرتبة (ص٧) الثالثة : بلاد مصر ، والشام ، واليمن ، والروم ، والعجم ، والإفرنج والمغرب ، وسنار ، وبلاد أفريقية(٣) على أكثرها ، وكثير من جزائر البحر المحيط ،

(١) فى المطبوعة : يعبدونه . (٢) فى المطبوعة : فى الصنايع .
(٣) فى المطبوعة : أمريقة .

فإن جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات، وعلوم وصناعات، وشرائع وتجارات . ولهم معارف كاملة فى آلات الصنائع، والحيل على حمل الأشياء الثقيلة بأخف الطرق . ولهم علم بالسفر فى البحور؛ إلى غير ذلك .

وهذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها، وحسن حالها، وتقليد شريعة من الشرائع، وتقدّمها فى النجابة والبراعة فى الصنائع المعاشية .

مثلا : البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية، والطبيعية، وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها؛ ولبعضهم نوع مشاركة فى بعض العلوم العربية، وتوصلوا إلى فهم دقائقها وأسرارها، كما سنذكره . غير أنهم لم يهتدوا إلى الطريق المستقيم، ولم يسلكوا سبيل النجاة، ولم يرشدوا إلى الدين الحق، ومنهج الصدق .

كما أن البلاد الإسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها، وفى العلوم العقلية، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها؛ فلذلك احتاجت إلى البلاد الغربية فى كسب مالا تعرفه، وجلب ماتجهل صنعه، ولهذا حكم الفرنج بأن علماء الاسلام إنما يعرفون شريعتهم ولسانهم، يعنى مايتعلق باللغة العربية، ولكن يعترفون لنا بأنّا كنا أساتيذهم فى سائر العلوم، وبقَدَمنا(١) عليهم .

ومن المقرر فى الأذهان، وفى خارج الأعيان أن الفضل للمتقدم؛ أوليس أن المتأخر يغترف من فضالته(٢)، ويهتدى بدلالته، وما أحسن قول الشاعر:

ومما شجانى أننى كنت نائما ... أعلَّل من فرط الكرى بالتنسم
إلى أن بكت ورقاء فى غصن أيكة ... تردد مبكاها بحسن الترنم
فلو قبلُ مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى، شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى، فهيَّج لى البكا ... بكاها، فقلت الفضل للمتقدم

ويعجبنى أيضا قولهم فى هذا المعنى عند المكافأة :

أنا الشجاع الذى قد كنت فى ظمأ ... وسط الهجير على الرمضاء فى الوادى
فجدت بالماء، فضلا منك مبتدئا ... بغير قلٍّ، فأشفى غلة الصادى
هذا جزاؤك منّا، لا نمنُّ به ... فضلا بفضل، وكان الفضل للبادى

---

(١) القدم : السبق والتقدم .
(٢) الفضالة كالفضلة : البقية .

(ص٨) فإننا كنا فى زمن الخلفاء العباسيين أكمل سائر البلاد، تمدنا، ورفاهية، وتربية زاهرة زاهية، وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون وغيرهم، على أن منهم من كان يشتغل بها بنفسه، فانظر إلى المأمون بن هارون الرشيد، فانه زيادة عن إعانة ميقاتية (١) دولته كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك، كيف، وهو الذى قد حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء، فوجده بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة، وخمسا وثلاثين دقيقة، وغير ذلك.

وقد أعان «جعفر المتوكل» من العباسية «أصطفان»(٢) على ترجمة الكتب اليونانية، ككتاب «ذيسقوريدس» فى الأدوية.

وكذلك الملك «عبد الرحمن الناصر» صاحب الأندلس، فإنه طلب من ملك «قسطنطينية» المسمى «أرمانيوس» أن يبعث إليه رجلا يتكلم باللسان اليونانى واللاطينى ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين عنده، فبعث له راهبا يسمى. «نقولا» إلى غير ذلك.

فمن هنا تفهم أن العلوم لاتنتشر فى عصر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله، وفى الأمثال الحكمية: «الناس على دين ملوكهم».

وقد تشتت عز الخلفاء، وانهدم ملكهم؛ فانظر إلى الأندلس، فإنها بأيدى النصارى الاسبانيول، من نحو ثلاثمائة وخمسين سنة.

وقد قويت شوكة الإفرنج ببراعتهم، وتدبيرهم، بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب، وتنوعهم واختراعهم فيها؛ ولولا أن الإسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعالى لكان كلا شىء؛ بالنسبة لقوتهم، وسوادهم، وثروتهم، وبراعتهم وغير ذلك. ومن المثل المشهورة: «إن أعقل [الحكام] أبصرهم بعواقب الأمور».

ولهذا تنبه (المتولى) على بلاد مصر — القاهرة — أن يرجع إليها شبابها القديم، ويحيى رونقها الرميم، فمن مبدأ توليته وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا، ويصلح فسادها الذى قد كاد يكون زواله محالا، ويلتجىء إليه أرباب الفنون البارعة، والصنائع النافعة، من الإفرنج، ويغدق عليهم فائض نعمته، حتى

(١) الميقاتية: هم الذين يحددون الوقت ويبينون ساعات الليل والنهار، لمعرفة أوقات الصلاة.

(٢) هو اصطفان بن «بازيل» من تلامذة حنين بن إسحق، وأول من قام بترجمة كتاب Dioscorides فى الطب.

إن العامة بمصر ، وبغيرها . من جهلهم يلومونه فى أنفسهم غاية اللوم ، بسبب قبوله(١) الإفرنج ، وترحيبه بهم ، وإنعامه عليهم ، جهلا منهم بأنه إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم ، لا لكونهم نصارى ، فالحاجة دعت إليه ، ولله در من قال :

(ص٩) إن المعلم والطبيب كلاهما  لم ينصحا إذا لم يكرّما(٢)
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه  واصبر لجهلك إن جفوت معلما

ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن ، بل وقد وجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى باوغها درجة كمال وفوقان ، فما أنفقه ( الوالى ) على ذلك كان فى محله اتفاقا ؛ فانظر إلى « الورش » والمعامل والمدارس ونحوها ، وانظر إلى ترتيب أمر العساكر الجهادية من « ألايات » ومدارس حربية ، فإنه من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ؛ ولا يمكن إدراك ضرورية هذا النظام إلا لمن رأى بلاد الافرنج ، أو شاهد الوقائع .

وبالجملة والتفصيل ؛ [ فإن الوالى ] آماله دائما متعلقة بالعمار ، ومن الحكم المعروفة » العمارة كالحياة ، والخراب كالموت ، وبناء كل [ إنسان ] على قدر همته .

وقد سارع ( الوالى ) فى تحسين بلاده ، فأحضر فيها ما أمكنه إحضاره من علماء الافرنج ، وبعث ما أمكنه بعثه من مصر إلى تلك البلاد ؛ فإن علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكمية . وفى الحديث « الحكمة ضالّة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك » قال بطليموس الثانى : «خذوا الدر من البحر ، والمسك من الفأرة ، والذهب من الحجر ، والحكمة ممن قالها » . وفى الحديث : « اطلب العلم ولو بالصين » ومن المعلوم أن أهل الصين وثنيون وإن كان المقصود من الحديث السفر إلى طالب العلم ، وبالجملة حيثما أمن الانسان على دينه ، فلا ضرر فى السفر ، خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة .

ولعل هذا كله مطمح نظر ( الوالى ) فى هذه الإرسالية وغيرها من

---

(١) فى المطبوعة : قبول .

(٢) الرواية المشهورة : لاينصحان إذا هما لم يكرما .

الإرساليات المتتالية المتسلسلة(١) فثمرة هذا السفر تحصل - إن شاء الله تعالى - بنشر هذه العلوم والفنون الآتية فى الباب الثانى ، وبكثرة تداولها ، وترجمة كتبها وطبعها فى مطابع ولى النعم .

فينبغى لأهل العلم حثّ جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون، والصنائع النافعة ، وليس هذا الزمان قابلا لأن يقال فيه كما «قال بهاء الدين أبو حسين العاملى» فى صرف العمر فى جمع كتب العلم وادّخارها ومطالعتها، فى شعره:

على كتب العلوم صرفت مالك … وفى تصحيحها أتعبت بالك
(ص١٠) وأنفقت البياض مع السواد … إلى ماليس ينفع فى المعاد
تظل من المساء إلى الصباح … تطالعها ، وقلبك غير صاح
وتصبح مولعا من غير طائل … بتحرير المقاصد والدلائل
وتوضيح الخفا فى كل باب … وتوجيه السؤال مع الجواب
لعمرى ، قد أضلتك الهدايه … ضلالا ماله أبدا نهايه
وب«المحصول» حاصلك الندامة … وحرمان إلى يوم القيامه
وتذكرة «المواقف» والمراصد … تسد عليك أبواب المقاصد
فلا ينجى النجاة من الضلاله … ولا يشفى الشفاء من الجهاله
وبالإرشاد لم يحصل رشاد … وبالتبيان مابان السداد
وبالإيضاح أشكلت المدارك … وبالمصباح أظلمت المسالك
وبالتلويح مالاح الدليل … وبالتوضيح مااتضح السبيل
صرفت خلاصة العمر العزيز … على تنقيح أبحاث الوجيز(٢)
بهذا الأمر صرف العمر جهل … فقم واجهد فمافى الوقت مهل
ودع عنك الشروح مع الحواشى … فهن على البصائر كالغواشى(٣)

---

(١) زيادة فى الطبعة الثانية . وليست فى الطبعة الأولى .

(٢) المقاصد ، والدلائل ، والمحصول ، والمواقف ، والمراصد ، والنجاة ، والارشاد ، والتبيان ، والايضاح ، والمصباح ، والتلويح ، والتوضيح ، والوجيز أسماء لكتب شرعية ولغوية ونحوية.

(٣) الغواشى: جمع غاشية ، وهى الغطاء .

وقوله :

أيها القوم الذى فى المدرسه　　كل ماحصلتموه وسوسه
فكركم إن كان فى غير الحبيب　　ماله فى النشأة الأخرى نصيب
فاغسلوا بالراح عن لوح الفواد　　كل علم ليس ينجى فى المعاد

لأن هذا مقال من تجرد عن الدنيا ، وانهمك على الأخرى ، أو من اشترى العلوم بأغلى ثمن ، فبخس صفقتها حادث الزمن .



## من المقدمة

[ يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة ، والحرف والصنائع المرغوبة ]

ولنذكر لك هنا الصنائع المطلوبة ، لتعرف أهميتها ، ولزومها فى أى دولة من الدول . وهذه الفنون إما واهية فى مصر ، أو مفقودة بالكلية .

وهى قسمان : قسم عام للتلامذة ، وهو : الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم . وقسم خاص(ص١١) متوزع عليهم ، وهو عدة علوم :

العلم الأول : علم تدبير الأمور الملكية ، ويتشعب عنه عدة فروع :

الحقوق الثلاثة التى يعتبرها الأفرنج ، وتسمى بالنواميس ، وهى الحقوق الطبيعية ، والحقوق البشرية ، والحقوق الوضعية ، وعلم أحوال البلدان ومصالحها وما يليق بها ، وعلم الاقتصادفى المصاريف وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات ، والخازندارية وحفظ بيت المال

العلم الثانى : علم تدبير العسكرية .

العلم الثالث : علم القبطانية ، والأمور البحرية .

العلم الرابع : فن معرفة المشى فى مصالح الدول[١] ، يعنى علم السفارة ، ومنه (الإيلچية )[٢] ، وهى رسالة البلدان . وفروعه . معرفة الألسن ، والحقوق ، والاصطلاحات .

العلم الخامس : فن المياه[٣] ، وهو صناعة القناطر ، والجسور ، والأرصفة ، والفساقى ، ونحو ذلك .

---

(١) ترجمة لـ La Diplomtie

(٢) عرف رفاعة ( الإيلچية ) بأنهم رسل البلاد ، ولعلهم الوزراء المفوضون . و ( الإيلچية ) مأخوذة فى الفرنسية من مادة Elire . ومنها Eligibilité

(٣) ترجمة لـ L' Hidraulique .

العلم السادس : الميكانيقا[1] ، وهى آلات الهندسة ، وجر الأثقال .

العلم السابع : الهندسة الحربية .

العلم الثامن : فن الرمى بالمدافع وترتيبها ، وهى فن (الطوبجية)

العلم التاسع : فن سبك المعادن ، لصناعة المدافع والأسلحة وغيرها .

العلم العاشر : علم الكيميا ، وصناعة الورق ، والمراد بالكيميا معرفة تحليل الأجزاء وتركيبها ، ويدخل تحتها أمور كثيرة ، كصناعة البارود والسكر وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة ، كما يظنه بعض الناس ، فإن هذا لاتعرفه الإفرنج ، ولا تعتقده أصلا .

العلم الحادى عشر : فن الطب ، وفروعه ، فن التشريح ، والجراحة ، وتدبير الصحة ، وفن معرفة مزاج المريض ، وفن البيطرة ، أى معالجة الخيل وغيرها .

العلم الثانى عشر : علم الفلاحة ، وفروعها ، معرفة أنواع الزروع ، وتدبير الخلا بالبناء اللائق به ، وغيرها . ومعرفة مايخصه من آلات الحراثة المدبرة للمصاريف .

العلم الثالث عشر : علم تاريخ الطبيعيات ، وفروعه ، الحيوانات ، ومرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن .

العلم الرابع عشر : صناعة النقاشة ، وفروعها ، فن الطباعة ، وفن حفر الأحجار ونقشها ، ونحوها .

العلم الخامس عشر : فن الترجمة ، يعنى ترجمة الكتب ، وهو من الفنون الصعبة ، خصوصا ترجمة الكتب العلمية ، فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها ، فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه وإليه ، والفن المترجم فيه .

---

(١) ترجمة لـ Mècanique .

فإذا نظرت بعين الحقيقة (ص١٢) رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا ، ومن جهل شيئا فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء ، وكلما تكبر الإنسان عن تعلمه شيئا مات بحسرته ، فالحمد لله الذى ( أنقذنا ) من ظلمات جهل هذه الأشياء الموجودة عند غيرنا . وأظن أن من له ذوق سليم ، وطبع مستقيم يقول كما أقول ، وسأذكر بعضها بالاختصار فى آخر الكتاب إن شاء الله تعالى ، وهو المستعان .

# الباب الثالث

## من المقدمة

[ في ذكر وضع البلاد الافرنجية ، ونسبتها إلى غيرها من البلاد*، ومزية الأمة الفرنساوية على من عداها من الافرنج ، ( وبيان وجه الحكمة في إ)رسالنا (إليها) ، دون ماعداها من ممالك الافرنج ] .

فنقول : اعلم أن الجغرافيين من الافرنج قسموا الدنيا من الشمال إلى الجنوب، ومن المشرق إلى المغرب خمسة أقسام، وهي : بلاد أوروبا (بضم الهمزة والراء وتشديد الباء) ، وبلاد « آسيا » ( بكسر السين ) ، وبلاد « الافريقية » ، وبلاد « الأمريقة » وجزائر البحر المحيط المسماة « الأوقيانوسية » .

فبلاد « أوروبا » محدودة جهة الشمال بالبحر المنجمد، المسمى: بحر. الثلج الشمالي وجهة الغرب ببحر الظلمات ، المسمى: البحر المظلم ، والبحر الغربي ،وجهة الجنوب ببحر الروم . المسمى : البحر المتوسط والأبيض ، وبلاد « آسيا » . وجهة الشرق ببحر « الخزر » ، (بضم الخاء والزاي ، آخره راء) ، ويقال له : بحر الخزز ، (بحاء مهملة مفتوحة ، ثم زايين معجمتين ، أولاهما مفتوحة) ، ويسمى أيضا : بحرجرجان وبحر طبرستان ، وببلاد « آسيا »

فحينئذ بلاد أوروبا تقال على بلاد الافرنج، وبلاد الأروام، وبلادقسطنطينية . وبلاد الخزر (١) ، والبلغار ، والأفلاق ، والبغدان (٢) ، والصرب ، وغيرهما .

وهي نحو ثلاث عشرة أرضا ، أي ولاية أصلية:

أربعة منها في الشمال : وهي بلاد الانكليز ، وبلاد « دانيمرق » ، (بكسر النون

---

(١) تقع إلى الغرب والشمال لبحر قزوين .

(٢) الأفلاق والبغدان يكونان دولة رومانيا الحديثة .

وفتح الميم ، وسكون الراء) ، وبلاد « أسوج » ، ( بفتح الهمزة ، وسكون السين ، وكسر الواو ) ، وبلاد « الموسقو » .

وستة في الوسط ، وهي : « بلاد الفلمنك » ، وبلاد « الفرنسيس » ، وبلاد « السويسة » ، وبلاد « النيمسة » ، وبلاد « البروسية » ( بضم الباء ) . وبلاد «جرمانية» المتعاهدة .

وثلاثة في الجنوب ، وهي : بلاد(ص١٣) إسبانيا مع «البورتوغال» وبلاد«إيطاليا» ، وبلاد « الدولة العلية العثمانية » في بلاد « أوروبا » ، التي هي : بلاد الأروام ، والأرناؤط والبشناق ، والسرب ، ( بالباء أو الفاء ) ، والبلغار ، والأفلاق ، والبغدان ، ( بضم الباء ، وسكون الغين ) .

فمن ذلك تعلم أن تفسير بعض المترجمين بلاد أوروبا وبلاد الإفرنج فيه قصور ، اللهم إلا أن تكون بلاد الافرنج تطلق على مايعم بلاد الدولة العلية ، ولكن يناقض ذلك أن (مترجمي ) الدولة العثمانية يقصرون بلاد «إفرنجستان» على ماعدا بلادهم من بلاد أوروبا ، ويسمون بلادهم ببلاد الروم ، وإن كانوا يعممون أيضا في لفظ الروم ، فيريدون به بعض الأحيان مايعم بلاد الافرنج ، وبعض البلاد الداخلية في حكمهم من بلاد « آسيا »

وبلاد « آسيا » محدودة أيضا جهة الشمال بالبحر المنجمد الشمالي ، وجهة الغرب ببلاد « أوروبا » و«الأفريقية» ، وجهة الجنوب ببحر الهند ، وبحر الصين ، وجهة الشرق ببحر الجنوب المحيط ، وببحر بهرنغ(١) . ( بكسر الباء ، وسكون الهاء ، وفتح الراء ، وسكون النون ، وبالغين أو الكاف ) .

وهي تنقسم أيضا إلى عشر أراض أصلية :

واحدة جهة الشمال ، وهي بلاد « سبير » .

وسبعة في الوسط ، وهي : بلاد الدولة العلية العثمانية ، التي هي « الشام » ، و«أرمينية» و « كردستان » و «بغداد» ، و« البصرة » ، و « قبرص » ، وغيرها ، ثم بلاد العجم ، وبلاد « بلوجستان» ، وبلاد « قابولستان » ، و « أفغهانستان » وبلاد « التتار الأكبر» ، وبلاد الصين ، وبلاد « يابونيا » (٢) .

---

(١) يفصل بين شبه جزيرة ألاسكا وقارة آسيا .

(٢) هي اليابان .

واثنان فى الجنوب ، وهى : بلاد العرب ، وبلاد الهند ، فبلاد الحجاز ، وبلاد الوهابية تحت حكم الدولة العلية ، وبلاد اليمن تحت حمايتها ، وبلاد عمان مستقلة ، وكلها أقاليم جزيرة العرب .

فهذه هى ولايات آسيا .

ثم بلاد « الإفريقية » ، وهى محددة جهة الشمال ببحر الروم ، وجهة الغرب بالبحر الأطلنتيقى ، المسمى : بحر الظلمات ويسمى : بحر المغرب ، وجهة الجنوب بالبحر المحيط الجنوبى ، وجهة الشرق ببحر الهند ، « وببغاز باب المندب » وببحر « القلزم » ، المسمى : البحر الأحمر ، وببلاد العرب .

ويمكن تقسيم « الإفريقية » إلى ثمان أراض أصلية .

اثنتان فى الشمال ، وهى : بلاد المغاربة ، وبلاد مصر .

وأربعة فى الوسط ، وهى : «السينيغبينيا »(1) ، وبلاد« الزنج » ، وبلاد « النوبة » وبلاد « الحبشة » .

واثنتان فى الجنوب وهما : بلاد « غينيا » وبلاد « كفرية »(2) .

فهذا ما يسمى الآن عند الإفرنج : بلاد إفريقية ، وإن كانت « إفريقية » فى الأصل بلدة (ص ١٤) معلومة جهة «تونس» وما حوالها ، ثم أضيف إلى بلاد أوروبا ماقاربها من الجزائر ، وكذلك لبلاد «آسيا » و « إفريقية » وهذه الأقسام الثلاثة يعنى . «أوروبا» و « آسيا » و « إفريقية » تسمى : الدنيا القديمة ، أو الأرض القديمة ، يعنى المعروفة للقدماء .

وأما بلاد « أمريكة » أو « أمريقة » ، ( بالكاف أو القاف ) فتسمى : الدنيا الجديدة ، وتسمى أيضا : الهند الغربى ، وتسمى فى بعض الكتب العربية ( عجائب المخلوقات ) .

وهى إنما عرفت للإفرنج بعد تغلب النصارى على بلاد الأندلس ، وإخراج العرب منها ، فإن هذا الوقت كان مبدأ للسياحة ، وجوب البحر المحيط ، واستكشاف البلاد بإعانة لدول لأرباب الأسفار والملاحة .

---

(١) فى المطبوعة : « السينغبينيا » .

(٢) عرفها رفاعة فى مقدمة كتاب قلائد المفاخر ص ٧٥ ، فقال : كفرية ( بضم الكاف وفتحها ) ... ولاية فى جنوب إفريقية ، جهة إقليم زنجبار .

وأما الآن فقد كادت السياحة تكون عند الافرنج فنا من الفنون ، فليس كل أحد يحسنها ، ولا كل دولة تتقنها ، وذلك أنه لما كثرت الآلات الفلكية والطبيعية ، سهلت الاستكشافات البرية والبحرية ، وتداولت الأسفار ، واستكشفت الأماكن والأقطار ، وضم إلى ما يعرف من قديم الزمان ، هذه الدنيا الجديدة التى انتظمت فى سلك معرفة أولى العرفان .

ثم زاد الحال باختراع سفن النار ، ومراكب البخار ، فتقاربت الأقطار الشاسعة ، وتزاورت أهالى الدول وصارت المعاملات والمخالطات بينها متتابعة .

ومما قام مقام آلات السياحة قبل ابتداعها ، وناب عن أدوات الملاحة قبل اختراعها . الأنوار المحمدية ، والغيرة الإسلامية ، بل والمعارف الوافرة فى العلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ، فى زمن الخلفاء العباسية ، ففتحوا بلاد مصر ، والسودان ، والمغرب ، والعجم ، وبلاد قابول ، وبخارى ، والهند ، والسند ، وجزائر سيلان ، وسومطرة ، وبلاد التبت ، والصين ، وعدة ولايات ببلاد أوروبا ، مثل ممالك الأندلس ، وصقلية ، وبلاد الروم ، وغير ذلك .

وتقدمت عندهم العلوم الجغرافية ، واشتهر من علماء الجغرافية كثيرون . كالمسعودى(١) ، وابن حَوْقَل(٢) ، والشريف الإدريسى(٣) ، وابن الوردى(٤) ، والسلطان عماد الدين أبى الفدا صاحب حماة(٥) .

ثم لما خمدت عندهم أنوار هذه المعارف ، وأهملوها ، ازدراء لها ، أو لسبب آخر ، قلت سياحاتهم ، وقام مقامهم طوائف الافرنج ، وبرعوا فى ذلك ، واستفادت الدولة والرعية الفوائد الجسيمة ، بالأمور السياسية والتجارية ( ص١٥ ) ، وصيروا الأمم أشباه البهائم إلى ملة النصرانية ، وكان الإسلام أولى بتلك المزية ، ولقد تصدى ( الحاكم ) ، لإحياء هذه المعارف ، التليد منها والطارف ،

(١) جغرافى فقيه ، أديب : توفى بدمشق سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) .
(٢) رحالة جغرافى له كتاب «المسالك والممالك» ( توفى نحو سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠م ) .
(٣) مؤرخ ومن أكابر العلماء بالجغرافيا ، ورحالة ، له كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ( ٤٩٣—٥٦٠هـ ) ( ١١٠٠ — ١١٦٥ م ) .
(٤) توفى سنة ٧٤٩ هـ .
(٥) أمير مؤرخ جغرافى له تقويم البلدان ( ٦٧٢ - ٧٣٢ هـ ) ( ١٢٧٣ - ١٣٣٢ م ) .

حتى لاحت تباشير بدو ( ر )(١) العاوم ، وتلاشت عن المعارف غياهب الأحلاك والغيوم . ( شعر ) :

وإذا رأيت من الهلال نموّه          أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

ثم إن بلاد « الأمريقة » تتصل بستة بحور ، فيتصل بها من جهة الشمال البحر المحيط المنجمد وبحر بافين(٢) ، ومن جهة الشرق ببحر المغرب ، وببحر جزائر « الأنتيلة » (٣) ، وبالبحر المحيط الأكبر ، المسمى « أقيانوس » ، « وبحربهرنغ » جهة الغرب .

وهى قسمان : الأمريقة الشمالية ، والأمريقة الجنوبية .

فأمريقة الشمالية ست أراض أصلية ،وهى : الأمريقة الروسية (٤)، أوالمحكومة بالموسقو ، وبلاد « أغرونلنده»(٥) ،وبلاد « بريطانية الجديدة»(٦)، أو بلاد الانكليز الجديدة ، وبلاد « الايتازونيا » ، وهى الأقاليم المجتمعة(٧) ، وبلاد « مكسيك » ، وبلاد « غواتيمالا » .

والأمريقة الجنوبية تسع أراض،وهى: بلاد «كلنبيا » ، وبلاد « ابزيزيلة »(٨)، وبلاد « برّو » ،وبلاد«بولوية »(٩)، وهى : «برّو العليا »،وبلاد « براغية »(١٠)، وبلاد « بلاطة »(١١)، وبلاد « شلى » ، ( بكسر الشين، وتشديد اللام المكسورة » ، وبلاد « ابتاغونيا » ( بفتح الباء والتاء ، وضم الغين ، وكسر النون ) .

وأما جزائر البحر المحيط فإنها غربى بلاد الأمريقة ، وعلى الجنوب الشرقى من

---

(١) فى الأصل : « بدو » .

(٢) يفصل بين جرينلاند وأمريكا الشمالية .

(٣) جزائر كثيرة متناثرة شرق أمريكا الوسطى .

(٤) هى شبه جزيرة « ألاسكا » .

(٥) هي ما تسمى اليوم: « جرين لاند » Greenland .

(٦) Nouveelle-Brotagne-New England .

(٧) نسميها اليوم بالولايات المتحدة Etas-Unis .

(٨) البرازيل Brésil · (٩) بوليفيا Bolivie .

(١٠) براجواى Paraguay.

(١١) دلتا نهر بلاتا . وهى جزء من البرازيل .

بلاد « آسيا » ، وهى محددة « من سائر جهاتها بالبحر المحيط وهى » ، ثلاثة أجزاء أصلية « النوتازية »(١) ( بضم النون المشددة ، وكسر الزاى ) .

« والأستورالية » ، ( بضم الهمزة ، وسكون السين ، وضم التاء ، وكسر اللام )

« والبولينيزية » ، ( بضم الباء ، وكسر اللام ، والنون والزاى ) .

ثم بلاد « أوروبا » فيها أربعة بنادر أصلية مشهورة بالتجارة: « اسلامبول » تحت الدولة العلية ، « ولوندرة » ، ( بضم اللام ، وسكون النون ، وفتح الدال ) تحت بلاد الإنكليز ، « وباريس » تحت بلاد الفرنسيس ، « ونابلى » ، ( بضم الباء ) ببلاد « إيطاليا » .

والبنادر الأصلية ببلاد آسيا أربعة أيضا : « بكين » ، ( بكسر الباء والكاف ) قاعدة بلاد الصين ، « وقلقوطة » ، ( بفتح القاف واللام ، وضم القاف ) ، ويقال « كلكتة » ، ( بكافين ) قاعدة بلاد الهند التى تحت حكم الانكليز ، « وصورة » ، ببلاد الهند أيضا ، ويقال : هى التى كانت تسمى « المنصورة » ، « ومياقو » ، (ص ١٦) ( بكسر الميم ، وضم القاف ) فى بلاد جزيرة « يابونيا » .

والبنادر الأصلية ببلاد «الافريقية » أربعة « القاهرة » قاعدة مصر ، « وسنار » قاعدة حاكم بلاد النوبة ، والجزائر ، وتونس ، ببلاد المغاربة .

والبنادر الأصلية ببلاد « أمريقة الشمالية » هى : « مكسيكو » ، ببلاد « مكسيك» « ونويرق » (٢) فى بلاد « الايتازونيا » ، « وفيلادلفيا » ، (بكسر الفاء والدال ، وسكون اللام ، وكسر الفاء ) ، ومدينة « وسهنغتون »(٣) ( بسكون السين ، وكسر الهاء ، ثم نون ساكنة بعدها غين مكسورة ) .

وأربعة فى «أمريقة الجنوبية» ، وهى : « ريوجانير » ، ( بكسر الراء ، وضم الياء وكسر النون ) فى بلاد « ابريزيلة » « وبنوسيرس » ، ( بكسر الباء والسين والراء ) فى بلاد « بلاطة » ، « وليمة » ، ( بكسر اللام ) فى بلاد « برو » ، «وقيطو » ، ( بكسر القاف ) فى بلاد « غرناطة الجديدة » .

---

(١) هى أندونسيا Jndonerie .

(٢) هى نيويورك New york .

(٣) هى واشنطون Washington .

وفى بلاد البحر المحيط بندران شهيران ، وهما : مدينة « بتاويا » ، بندر جزيرة « جاوة » ، ومدينة « مانيلة » ، الواقعة فى جزيرة « مانيلة » إحدى جزائر « فيليبينة » ، فهذه المدينة هى قاعدة جميع هذه الجزائر .

ثم إن بلاد « أوروبا » أغلبها نصارى ، وبلاد الدولة العلية هى بلاد الإسلام بهذه القطعة .

وأما بلاد « آسيا » فإنها منبع بلاد الإسلام ، بل وسائر الأديان . وهى أوطان الأنبياء والمرسلين ، وبها نزلت سائر الكتب السماوية ، وهى تتضمن أشرف الأماكن والأرض المباركة ، والمساجد التى لاتشد الرحال إلا إليها ، وفيها منشأ ومضم عظام سيد الأولين والآخرين ، والصحابة . وهى منشأ الأئمة الأربعة (رضى الله تعالى عنهم) لأن منشأ الإمام الشافعى ( رضى الله عنه ) غزة ، ومنشأ الإمام مالك ( رضى الله عنه ) المدينة المشرفة ، ومنشأ الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان الكوفة ، ومنشأ الامام أحمد بن حنبل بغداد ، التى كانت (كما قيل ) فى أيام الخلفاء ، بالنسبة للبلاد ، كالأستاذ فى العباد . وكلها من بلاد « آسيا » .

وبها ، يعنى ببلاد « آسيا » العرب ، وهم أفضل القبائل على الإطلاق ، ولسانهم أفصح الألسن باتفاق ، وفيهم بنوهاشم ، الذين هم ملح الأرض ، وزبدة المجد ، ودرع الشرف .

ومما يدل على فضلها أن بها الأماكن المفضلة ، كالقبلة ، التى يجب على كل إنسان أن يتوجه إليها خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ والمدينتين اللتين نزل بهما القرآن العظيم ؛ ففضائلها لاتحصى ، وآثار أهلها لاتستقصى ، قال بعض أهلها :

عطفة ، ياجيرة « العلم »(١) يا أهيل الجود والكرم
نحن جيران لذا « الحرم » حرم الإحسان والحسن
(ص ١٧) نحن أقوام به سكنوا وبه من خوفهم أمنوا
وبآيات الكتاب عنوا فاتشد فينا أخا الوهن
نعرف « البطحا » ، وتعرفنا و « الصفا » و « البيت » يألفنا

---

(١) العلم : الجبل .

ولنا «المَعْلى» ، «وخيف » منى . فاعلمن هذا ، وكن ، وكن
ولنا بخير الأنام أب و «على» المرتضى » حسب
وإلى « السبطين » ننتسب نسبا ما فيه من دخن(١)

ومع أن الاسلام قد تولد فيها ، وانتشر منها إلى غيرها ، ففيها جزء عظيم باق على الاتباع أو الكفر ، كبلاد الصين ، وبعض بلاد الهند ، وجزء سالك فى إسلامه طريق الضلال ، كروافض العجم .

وأما بلاد « إفريقية » فإنها تشتمل على أعظم البلاد ، كبلاد مصر التى هى من أعظم البلاد وأعمرها وهى أيضا عش الأولياء والصلحاء والعلماء ، وكبلاد المغرب التى أهلها أهل صلاح وتقى وعلم وعمل ، وإن شاء الله يمتد بها الاسلام .

وأما « أمريقة » فهى بلاد كفر ، وذلك أنها كانت عامرة فى الأصل بهمل عبدة الأصنام ، فتغلب عليها الافرنج ، لما قويت شوكتهم فى الفنون الحربية ، ونقلوا إليها جماعة من بلادهم ، وأرسلوا إليها قسيسين ، فتنصر كثير من أهلها ، فالآن بلاد « أمريقة » غالبها نصارى إلا الهمل ، فهم وثنيون ، ولم يوجد بها دين الاسلام. وسببه قوة الافرنج فى علم ركوب البحر ، ومعرفتهم العلوم الفلكية والجغرافية ، ورغبتهم فى المعاملات والتجارات ، وحبهم للسفر ، قال الشاعر :

إن العلا حدثتنى ، وهى صادقة فيما تحدث : أن العز فى النقل
لو كان فى شرف المأوى بلوغ مُنى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

وقال آخر :

قلقل ركابك للفلا ودع الغوانى والقصور
فمحالفو أوطانهم أمثال سكان القبور
لولا التغرب ما ارتقت درر البحور إلى النحور

( ص ١٨ ) وقال الحريرى :

لَجوْب البلاد مع المَتْرَبة أحب إلى من المرتبة

---

(١) الدخن : الفساد .

وقال غيره :

قم واغترب فى البلاد مجتهدا    فمن ثوى فى بلاده هانا
كبَيْدق لايزال محتقرا    حتى إذا سار صار فرزانا(١)

وقال :

أنفق من الصبر الجميل ، فإنه    لم يخش فقرا منفق من صبره
والمرء ليس ببالغ فى أرضه    كالصقر ليس بصائد فى وكره

ومن المعلوم أن الدر والمسك لايشرُفان مالم يفارقا وطنهما ومعدنهما . وكل هذا لاينافى أن حب الوطن من شعب الايمان ، لأن المقصود السياحة ، والأخذ فى أسباب طلب الرزق ، وهذا لايمنع من تعلق الانسان بوطنه ومسقط رأسه ، فإن هذا أمر جِبِلّى ، قال الشاعر :

يابعيد الدار عن وطنه    مفردا يبكى على شَجنه
كلما جد الرحيل به    زادت الأسقام فى بدنه

وقال غيره :

ولقد زاد الفؤاد شجى    طائر يبكى على فننه
شفّه ما شفنى ، فبكى    كلنا يبكى على سكنه

ولا ينافى أيضا هذا الأمر مادّة التوكل والاعتماد على المولى ، كما يفهم من كلام الشاعر فى قوله :

لقد علمت ، وما الإسراف من خلقى    أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه ، فيعيينى تطلبه    ولو قعدت أتانى ليس يعيينى(٢)

وقول الآخر :

اقنع بأيسر رزق أنت نائله    واحذر ، ولا تتعرّض للارادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص    وما تكدّر إلا فى الزيادات

---

(١) البيدق : الجندى الراجل ، وهو اسم لقطعة فى الشطرنج ، والفرزان : الوزير ، قطعة فى الشطرنج أيضا ، يشير الشاعر إلى أن البيدق لا يزال يتحرك فى مكانه من قطعة الشطرنج ، إلى أن يحل فى مكان الوزير بعد أن يفقده صاحبه ، فيكون مطلق الحرية فى التحرك كما يشاء يمينا ويسارا وإلى الأمام ، وإلى الخلف .

(٢) فى المطبوعة « لايعيينى » .

فإن هذا معناه التسلية لمن لا يحب الأسفار ، أو النهى عن السفر للطمع .

وأما بلاد (ص ٩١) جزائر البحر المحيط فإنها قد فتح كثير منها بالإسلام ، كجزيرة « جاوة » ، فإن أهلها مسلمون . وبالجملة فبلاد « النوتازية » أغلبها إسلام ، وندر وجود دين النصرانية فيها .

ومن ذلك كله تعلم أنه يمكن أن أقسام الدنيا الخمسة يصح تفضيل بعضها على بعض ، يعنى تفضيل جزء بتمامه على الآخر بتمامه ، بحسب مزية الإسلام وتعلقاته ، فحينئذ تكون « آسيا » أفضل الجميع ، ثم تليها « إفريقية » لعمارها بالإسلام والأولياء والصلحاء ، خصوصا باشتمالها على مصر القاهرة ، ثم تليها بلاد « أوروبا » لقوة الاسلام ، ووجود الإمام الأعظم ، إمام الحرمين الشريفين ، سلطان الاسلام فيها ثم بلاد الجزائر البحرية ، لعمارها بالاسلام أيضا ، مع عدم تبحرها فى العلوم كما هو الظاهر ؛ فأدنى الأقسام بلاد « أمريكة » ، حيث لا وجود للإسلام بها أبدا . هذا ما يظهر لى ، والله أعلم بالصواب

وهذا كله بالنظر للاسلام ، والأمور الشرعية ، والشرف الذاتى ، فإن المراد بالشرف ما يعم الشرعى وغيره ، فلا يقال : إن أغلب ذلك من باب المزية ، وهى وحدها لا تستدعى أفضلية ..

ولا ينكر منصف أن بلاد الافرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكمية .. وأعلاها فى التبحر فى ذلك ، بلاد الانكليز ، والفرنسيس ، والنمسا ، فإن حكماءها فاقوا الحكماء المتقدمين ، كأرسطاطاليس ، وأفلاطون ، وبقراط ، وأمثالهم . وأتقنوا الرياضيات ، والطبيعيات ، والإلهيات ؛ وما وراء الطبيعيات أشد إتقان ، وفلسفتهم أخلص من فلسفة المتقدمين ، لما أنهم يقيمون الأدلة على وجود الله تعالى ، وبقاء الأرواح ، والثواب والعقاب .

فأعظم مدائن الافرنج مدينة « لوندرة » ، وهى كرسى الانكليز ، ثم « باريز » ، وهى قاعدة ملك فرنسا ، و« باريز » تفضل على « لوندرة » بصحة هوائها ، كما قيل ، وطبيعة القطر والأهل ، وبقلة الغلاء التام .

وإذا رأيت كيفية سياستها علمت كمال راحة الغرباء فيها وحظهم وانبساطهم

مع أهلها ، فالغالب على أهلها البشاشة فى وجوه الغرباء ، ومراعاة خواطرهم ، ولو اختلف الدين . وذلك لأن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا ينتحل دينه ، ولا غيرة له عليه ، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الاباحيين الذين يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب ، فإذا ذكرت له دين الاسلام فى مقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها ، من حيث (ص ٢٠) إنها كلها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وإذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية قال : إنه لا يصدّق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب ، لخروجه عن الأمور الطبيعية .

وبالجملة فنى بلاد الفرنسيس يباح التعبد بسائر الأديان ، فلا يعارض مسلم فى بنائه مسجدا ، ولا يهودى فى بنائه بيعة ، إلى آخره ، كما سيأتى فى ذكر سياستها ، ولعل هذا كله هو علة وسبب إرسال البعوث فيها هذه المرة الأولى أبلغ من أربعين نفسا ، لتعلم هذه العلوم المفقودة . بل سائر النصارى تبعث أيضا إليها ، فيأتى إليها من بلاد « أمريكة » وغيرها ، من الممالك البعيدة . وقد بعث أيضا عدّة طلاب للعلوم ببلاد الانكليز ، لكنهم ليسوا عديدين ، وكذلك ببلاد النمسا . وبالجملة فسائر الأمم تطلب العز ، وتسعى إليه ، كما قال الشريف الرضى : « أطلب العز ، فما العزّ بغالى » .

ولا أعز من العلوم والفنون تطلبها الولاة والحكام ، فإنهم كلما كانوا أجل خطرا ، وجب أن يكونوا أدق نظرا .

# الباب الرابع

## من المقدمة

### [ فى ذكر رؤساء هذه السفرة ]

قد بعث الوالى فى السفر إلى بلاد فرنسا ثلاثة رؤساء من أكابر ديوانه ، وجعلهم رباب نظر عام على من عداهم ، وهم على هذا الترتيب :

فأولهم : صاحب الرأى التام ، والمعرفة الأحكام ، حائز فضيلتى السيف والقلم ، والعارف برسوم العرب والعجم . حضرة عبدى أفندى المهردار .

والثانى : صاحب الرأى السديد ، والطالع السعيد ، حضرة مصطفى مختار أفندى الدويدار .

والثالث : الحاوى بين العلم والعمل ، والبراع والأسل : حضرة الحاج حسن أفندى الاسكندرانى ، بلغه الله فى الدارين الأمانى . (آمين) .

ثم إن حضرة الأفندية الثلاثة كانوا يتعلمون أيضا كالباقى ، فحضرة الأفندى المهردار سابقا اشتغل بعلم تدبير الأمور الملكية . وحضرة الأفندى الدويدار سابقا (يشتغل)[1] بعلم تدبير الأمور العسكرية . وحضرة الحاج حسن أفندى يشتغل بعلم القبطانية والهندسة البحرية .

وكان لسائر الثلاثة اجتهاد زائد ، وتحصيل بالغ ، مع أن الأمرية فى الغالب تأنف ذلك . وقد كان حكم هؤلاء الثلاثة بالنوبة (ص٢١) فكانت نوبة الواحد يوما ، والآخر يوما آخر ، وهكذا ؛ فآل الأمر إلى أن صارت شهرا شهرا ، ثم صار الأفندى المهردار وحده .

ثم إن حضرة الأفندية الثلاثة كان معهم فى تدبير الدروس جناب «مسيو چومار»

---

(١) زيادة ليست فى المطبوعة .

الذى (عين) ناظرا على الدروس. وهو أحد علماء «الأنستتوت» (١)، (بفتح الهمزة، وسكون النون، وكسر السين) أى مشورة (٢) العلماء وأكابرهم، والذى يتراءى فى طبعه ويشاهد منه دائما أنه يرغب فى الاعتناء بمصالح مصر من جهة نشر المعارف والعلوم فيها، بل وفى سائر بلاد « الإفريقية »، كما يفهم ذلك من حاله، ومما قاله فى طالعة « رزنامته » (٣) التى ألفها سنة ألف ومائتين وأربعة وأربعين من الهجرة: «وشهرة معارف «مسيو چومار» وحسن تدبيره يوقع فى نفس الإنسان من أول وهلة تفضيل القلم على السيف، لأنه يدبر بقلمه ما لا يدبر غيره بسيفه ألف مرة، ولا عجب، فبالأقلام تساس الأقاليم. وهمته فى مصالح العلوم سريعة، كثيرة التأليف والاشتغال.

والغالب أن هذه الخصلة فى سائر علماء الافرنج، فإن مثل الكاتب كالدولاب إذا تعطل تكسر، وكالمفتاح الحديد. إذا ترك ارتكبه الصدأ. وجناب «مسيو چومار» يشتغل بالعلوم آناء الليل، وأطراف النهار، وسيأتى ذكره عدة مرات. وسنذكر لك عدة من مكاتبه التى وصلت بيدى، إن شاء الله تعالى.

وهنا انتهت المقدمة.

---

(١) كلمة فرنسية L' Institut .

(٢) يريد بمشورة العلماء: مجلسهم.

(٣) الرزنامه: كلمة تركية بمعنى تقويم.

# المقصــــد

[ فى مدة السفر «من مصر إلى باريس » ، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق ، أو مدة الإقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية ، والفنون والعدل العجيب ، والإنصاف الغريب ، الذى يحق أن يكون من باب أولى فى ديار الإسلام ، وبلاد شريعة النبى (صلى الله عليه وسلم)] .

وهذا المقصد يتضمن عدة مقالات ، تشتمل على عدة فصول :

المقالة الأولى : فيما كان من الخروج من مصر إلى دخول مدينة «مرسيليا» التى هى فُرضة من فرضات الفرنسيس ، وفيها عدة فصول .

المقالة الثانية : فيما كان من دخول «مرسيليا» إلى دخول مدينة «باريس» (ص٢٢) وفيها فصلان .

المقالة الثالثة : فى دخول «باريس» ، وذكر جميع ماشاهدناه ، وما بلغنا خبره من أحوال « باريس » .

وهذه المقالة : هى الغرض الأصلى من وضعنا هذه الرحلة ، فلذلك أطنبنا فيها غاية الإطناب ، وإن كان جميع هذا لايفى بحق هذه المدينة ، بل هو تقريبىٌّ ، بالنظر لما اشتملت عليه ، وإن استغرب هذا من لم يشاهد غرائب السياحة . قال بعضهم :

من لم يرالروم ، ولا أهلها    ماعرف الدنيا ولا الناسا

فمن باب أوْلى بلاد « إفرنجستان » .

المقالة الرابعة : فى ذكر نبذ من العلوم والفنون المذكورة فى الباب الثانى من المقدمة

# المقالة الأولى

## الفصل الأول

[ فى الخروج من مصر ، إلى دخول ثغر إسكندرية ]

كان خروجنا من مصر عصر يوم الجمعة ، الذى هوثامن يوم من شعبان ، سنة إحدى وأربعين ومائتين بعد الألف ، من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فتفاءلت بأن عقب هذا الفراق يحصل الاجتماع ، وأن تسليم العودة سيقوم مقام الوداع .

فركبنا زوارق صغيرة ، وتوجهنا إلى إسكندرية ، وأقمنا على ظهر النيل المبارك أربعة أيام ، ولا فائدة لذكر بعض البلاد والقرى التى رسونا عليها .

وكان دخولنا الإسكندرية يوم الأربعاء (ثالث عشر يوما )[1] من شهر شعبان ، فمكثنا فيها ثلاثة وعشرين يوما ، فى (سراية) الوالى بها .

وكان خروجنا إلى البلد فى هذه المدة[2] قليلا، فلم يسهل لى ذكر شىء فى شأنها، غير أنه ظهر لى أنها قريبة الميل فى وضعها وحالها إلى بلاد الإفرنج . وإن كنت وقتئذ لم أر شيئا من بلاد الإفرنج أصلا، وإنما فهمت ذلك مما رأيته فيها دون غيرها من بلاد مصر؛ ولكثرة الإفرنج بها، ولكون أغلب السوقة يتكلم ببعض شىء من اللغة الطليانية ونحو ذلك ، وتحقق ذلك عندى بعد وصولى إلى «مرسيليا» فإن اسكندرية (عينة) «مرسيليا» وأنموذجها ، ولما ذهبت إليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوروبا .

(١) الصواب : الثالث عشر .
(٢) فى المطبوعة « المدئية .

# الفصل الثانى

[ فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة ، لخصناها من عدة كتب
عربية وفرنساوية وذكرنا ماظهر لنا صحته ]

فنقول : قال فى القاموس : إن «إسكندرية» منسوبة إلى «إسكندر» ابن الفيلسوف ( صوابه فيليبش ) ، وهو الذى قتل « دارا » ، وملك البلاد .

والاسكندرية ستة عشر بلدا منسوبة إليه ، منها بلدة ببلاد الهند ، وبلدة بأرض بابل ، وبلدة بشاطىء النهر الأعظم ، وبلدة بصغد سمرقند ، وبلدة بمرو ، واسم لمدينة بلخ ، والثغر الأعظم ببلاد مصر ، وقرية بين حماة وحلب ، وقرية على دجلة قرب واسط ، منها الأديب أحمد بن المختار بين مبشّر ، وقرية بين مكة والمدينة وبلدة فى مجارى الأنهار بالهند ، وخمس مدن أخرى .

ومرو : بلدة من خراسان ببلاد الفرس ، والنسبة إليها مروىّ ومروزى . وانظر مامراده بالنهر الأعظم ؟ ثم رأيت فى كتاب تقويم البلدان لعماد الدين أبى الفداء إسماعيل ابن ناصر سلطان حماة أن بالأندلس نهرا ، يسمى بالنهر الأعظم ، وهو نهر « إشبيلية » ونص عباراته . ومنها نهر « إشبيلية » من بلاد الأنديس ، ويسمى عند أهل الأندلس النهر الأعظم . انتهى . ولعله إنما سمى عندهم بالنهر الأعظم لامتيازه بحادثة المد والجزر ، كما نبه على ذلك أبو الفدا فى قوله : يدخله المد والجزر عند مكان يسمى الأرحا لاتزال فيه المراكب منحدرة مع الجزر ، صاعدة مع المد . وقال بعضهم فى المد والجزر :

خليلى ، بادر بى إلى النهر بكرة     وقف منه حيث المد يثنى عنانه
ولا تجز الأرحا ، فإن وراءها     يبابا ، وعينى لا تريد عيانه

فعلى هذا تكون « إسكندرية » اسم بلدة بالأندلس . ولعل « إسكندر » حين اجتيازه بجزيرة الأندلس بنى بها بلدة .

وذكر صاحب كتاب « نشق الأزهار ، فى عجائب الأقطار » أن ا(لا)سكندر

ذا القرنين اجتاز بلاد الأندلس ، وفتح بها ( بغاز ) جبل الطارق ، المسمى بحر الزقاق ، وأن محل هذا البغاز كان أرضا بين « طنجة » وبلاد الأندلس . ولم يذكر فى هذا الموضع أن « إسكندر » بنى بلدة بهذه الجزيرة ، لكن هذا لايدل على عدم وجود بلدة بها .

وظاهر عبارتهم أنه يوجد اثنان ، كل منهما يسمى ( ص٢٤ ) الاسكندر: أحدهما « إسكندرذو القرنين » والآخر . هو قاتل « دارا » .

وقال فى القاموس فى موضع آخر : «ذوالقرنين» إسكندر الرومى ، لأنه لما دعاهم إلى الله تعالى ضربوه على قرنه ، فأحياه الله تعالى ، ثم دعاهم ، فضربوه على قرنه الآخر ، فمات ، ثم أحياه الله . أو لأنه بلغ قطرى الأرض ، أو لضفيرتين له . انتهى . فظاهر كلامه أن إسكندر ذا القرنين هو نفس إسكندر الرومى .

والذى عليه علماء الشرق أن ذا القرنين المذكور فى الآية الشريفة هو غير إسكندر اليونانى ، فإن الأول أقدم من الثانى ، وهو الذى قيل بنبوّته ، وإنه بنى سد« يأجوج ومأجوج » ، وإنه بحث عن ماء الحياة بلا طائل ، وفاز به الخضر ( عليه السلام ) فلذلك كان حيا إلى الآن . وأما الثانى فإنه يسمى « إسكندر الرومى » أو اليونانى ، يعنى الإغريقى ، لأن قدماء الأغارقة تسمى : اليونان ، والمتأخرون يشتهرون باسم الأروام .

وأما الافرنج فلا يقولون إلا بوجود « إسكندر الأكبر » بن « فيليبش » أو ابن « فيلبوش » المقدونى[١] ، ويجعلونه عين ممايعبر عنه فى التواريخ العربية باسم «إسكندر ذى القرنين » ، وينسبون إليه سائر مايحكى عنه من العجائب ، كسد «يأجوج ومأجوج» ونحو ذلك . غير أنهم لايصدّقون بمالا يوافق العادة[٢] .

وعلى كل حال ، فقد اتفق كلام العلماء وحكماء الافرنج على أن « إسكندرية » تنسب إلى اسكندر الرومى ، وهو ابن « فيلبش » .

وأنا أقول : الظاهر أن ذا القرنين هو الذى يعبر عنه عند اليونان « بهرقليوس » أو « هرقول » . يدل على ذلك تسمية بوغاز جبل طارق « بوغاز هرقليوس » ، مع

(١) فى المطبوعة « المقدوانى » . (٢) فى المطبوعة « للعادة » .

عبارة كتاب « نشق الأزهار » . وكذلك ماذكر فى خرافات اليونان ، عند الكلام على عمودى « هرقول » ، من أنه أدخل « أو قيانوس » ( البحر المحيط ) فى الجزء الذى يفصل « أوروبا » من « إفريقة » ، حين فتح « بغاز قادس » المسمى الآن «جبل طارق» بين جبلين كانا قبل ذلك متصلين ببعضهما . أحدهما يسمى : « قلبة » فى جهة إسبانيا ، والآخر يسمى « بيلا » فى جهة « أفريقة » ، وصارا بعد فتح البوغاز بينهما كأنهما عمودان ، وكتب عليهما « هرقول » مامعناه « ليس خلف ذلك شىء » .

ومما يدل على ذلك أيضا : ماذكره اليونان فى خرافاتهم ، من أن هرقول من فحول الرجال الذين يعبرون عنهم بأنصاف الآلهة ، ويعتقدون أنهم متولدون بين الباقى والفانى ، أى بين إله وبشر ، فإن «هرقول» (ص٢٥) (على زعمهم) متولد من «جوبتير» أى « المشترى » و « اللمينة » زوجة « أنفتريون » ملك «طيوه» حيث تشكل بشكل هذا الملك ، وواقعها ، فحملت به منه .

وذلك قريب مما ذكره «الدميرى» فى كتابه : «حياة الحيوان» نقلا عن « الجاحظ » حيث قال ما ملخصه : إن عمرو بن يربوع كان متولدا بين السعلاة والانسان :

قال : وذكروا أن «جرهما» كان من نتاج الملائكة والآدميين ، فكان إذا عصى الملك ربه فى السماء أهبط إلى الأرض فى صورة رجل ، كما صنع بهاروت وماروت ، وأن من هذا القبيل كانت «بلقيس» ملكة « سبأ » ، وكذلك كان ذو القرنين ، وكانت أمه آدمية ، وأبوه من الملائكة ، ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) رجلا ينادى رجلا : ياذا القرنين ، قال : أفرغتم من أسماء الأنبياء ، فارتفعتم إلى أسماء الملائكة ؟ .

قال : وزعموا أن التناكح والتلاقح قد يقع بين الجن والانس ، فقال تعالى : « وشاركهم فى الأموال والأولاد » ، وذلك أن الجنيات إنما تعرض لصرع رجال الإنس على جهة العشق ، فى طلب السفاد ، وكذلك رجال الجن لنساء الإنس ، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء . وقال تعالى : « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » ، ولو كان الجان لايفتض الآدميات ، ولم يكن : ذلك فى تركيبه لما قال الله هذا القول . انتهى .

غاية ماهناك أن العلوية فى اعتقاد العرب آلهة فى اعتقاد اليونان . وأظن أن هذه المسألة لو عرضت كالجارى على أرباب مدرسة فرنسا العظمى المسماة « أكَـدِمة » لأجابت بعد النظر فيها بالصحة ، وأيّدت القول بذلك ؛

وقد سلف فى عبارة القاموس أسماء البلاد التى تسمى « باسكندرية » ، وليس مما ينسب إلى « اسكندر » الرومى الشهير بلدة « الأرناؤط » المسماة « اسكندرياسى » ؛ يعنى « اسكندرية » ، بل هى منسوبة إلى « اسكندربيك » .

وقال بعضهم : مدينة « اسكندرية » ببرمصر كانت تسمى قبل بناء الاسكندر لها بنحو ثلاثمائة سنة واثنتين قبل ظهور عيسى ( عليه السلام ) «قيسون» (بفتح القاف وسكون الياء التحتية ) .

وقال الإفرنج : إنها كانت تسمى « نو » ، (بضم النون) . وقبل فتحها بالاسلام كانت تارة تحت حكم الرومان ، وتارة تحت حكم الأروام أو اليونان .

وفتحها عمرو بن العاص بأمر عمر بن الخطاب ، ولما فتحها كتب إلى عمر ( رضى الله عنهما) أنه وجد بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة (ص٢٦) آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى تدفع الجزية ، وأربعمائة ميدان ، واثنى عشر ألف بقال ، وخضرى ، وفاكهانى . ولعل هذا من مبالغاة المؤرخين ، كما بالغوا فى غيرها من البلاد ، كمدينة بغداد .

ومن عجائب مافيها خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص (رضى الله تعالى عنه) ، فكانت عدة مافيها من الكتب سبعمائة ألف مجلد .

وقد كان أهل هذه المدينة فى سالف الزمان ثلثمائة ألف نفس تقريبا ، وأهلها الآن أقل من ذلك بكثير .

وقد تغلب عليها الفرنسيس ثم أخرجهم الإنكليز منها ، ورجعت إلى يد الاسلام .

وهى الآن يلوح عليها أنوار العمارات ، وبها بهجة التجارة ، كما أنها كانت فى الزمن السابق مركزا للتجارات ، وصارت فى هذا الوقت دار إقامة الحاكم فى أغلب الأوقات . وهى أشبه وضعا وعمارة بفرضات الافرنج .

وهى على الشمال الغربى من القاهرة بنحو خمسين فرسخا ، موضوعة فى إحدى وثلاثين درجة ، وثلاث عشرة دقيقة من العرض ، يعنى درجة البعد عن خط الاستواء ، وسيأتى ذكر المسافة بينها وبين باريس .

# الفصل الثالث

## [ فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر الإسكندرية ][1]

اعلم أن هذا البحر يسمى فى كتب الجغرافيا العربية « بحر الروم» لأنه يتصل إحدى جهاته ببلاد الروم ، ويسمى أيضا فيها « بحر الشام » لمجاورته أيضا لبلاد الشام ، ويسمى أيضا عند الافرنج « البحر المتوسط » أو الجوّانى . وإنما سمى بذلك ، لأنه داخل الأراضى الناشفة ، بخلاف البحر المحيط ، فإنه محيط بجميع الأراضى ، حتى قال بعضهم : إنه متواصل الجريان تحت الأراضى العالية على سطح مائه ، وإن حقق بعضهم خلافه لوجود الأراضى اليابسة تحت سطحه ، كبعض أراضى « الموسقو » .

ويسمى هذا البحر الجوانى باللسان التركى « بحر سفيد » « والبحر الأبيض » ، لمقابلته ببحر « بنطش » أو « البحر الأسود » .

وهناك بحر آخر يسمى « بالبحر الأبيض » وهو فى بلاد « الموسقو » ، وهو المراد بالبحر الأبيض ، فى إطلاقات علماء الجغرافيا .

وكان ركوبنا هذا البحر عصر يوم الأربعاء ، خامس يوم من رمضان ، وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية لاتغادر فى فؤاد (ص٢٧) الانسان رعبا ، ورزينة صناعة تجذب قلب الراكب حتى يصير فى وسطها صبا : محتوية على سائر ما يحتاج إليه من الحرف والصنائع ، مشتملة على آلات الحروب وعلى ( الحربجية )[2] ومحصنة بثمانية عشر من المدافع ، وكان مجراها يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك ، وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفا فسرنا من غير إشعار بالسير ، فتوسمنا فى وجهها الخير ، ولم نتألم بذلك ، وكنت قبل ركوب البحر عملت بما علمه لى بعض من سافر من العلماء إلى إسلامبول ، من تجرع حسوات[3] عظيمة من ماء البحر المالح ، وقال : إنه يدفع ألمه ، فكان الواقع أنه لم يحصل لى ألم ، على أنى حين نزلت المركب كنت متمرضا بالحمى فبرئت منها بمجرد السفر وحركة السفينة : وربما صحت الأجسام بالعلل .

(١) فى المطبوعة « بثغر سكندرية » .
(٢) الحربجية : الجند .
(٣) فى المطبوعة « حثوات » والصواب ماذكرناه .

ولازلنا نسير ، من غير شدة تحرك واضطراب ، نحو أربعة أيام ، وبعدها عصفت الرياح ، وتموج ماء البحر وتلاعب بذات الألواح ، تلاعب الأشباح بالأرواح. فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض . ووقع عندنا [جميل][1] الموقع قول بعض الظرفاء : «خاطر من ركب البحر ، وأشد منه خطراً من جالس الملوك بغير علم ومعرفة »! وتحقق عندنا تضمين بعضهم لهزل أبى نواس فى قوله :

رأيت جميع الهائلات محيطة  بوطئى لأجل الحمل جارية البحر
فأقسمت عمرى ، لا ركبت سفينة  ولا سرت طول الدهر إلا على الظهر

غير أن المعتمد على الكريم ، لا يخشى من الخطب العظيم ، وما أحسن قول من قال :

لما ركبنا ببحر  وكاد من خاف يتلف
على الكريم اعتمدنا  حاشاه أن يتخلف

وقد ذهب هذا الأمر بعد نحو ثلاثة أيام ، وصار يزور غِبًّا .

ومما يستحسن فى طباع الافرنج دون من عداهم من النصارى حب النظافة الظاهرية ، فإن جميع ما ابتلى الله سبحانه وتعالى به قبط مصر[2] من الوخم والوسخ أعطاه للإفرنج من النظافة ، ولو على ظهر البحر ! فإن أهل المركب التى كنا فيها يحافظون على تنظيفها وإذهاب الوسخ ما أمكن ، حتى إنهم يغسلون مقعدها كل يوم من الأيام ، ( ص٢٨ ) ويكنسونها فى صف النوم كل نحو يومين ، وينفضون الفراش وغيره ، ويشمونها[3] رائحة الهواء ، ويزيلون أوخامها ، مع أن النظافة من الايمان ، وليس عندهم منه مثقال ذرة !.

ومع ماعند الفرنساوية من النظافة الغريبة بالنسبة لبلادنا ، فإنهم لا يعدون أنفسهم من الأمم كثيرة الاعتناء بالنظافة ، كما يفهم من هذه العبارة المترجمة من كتاب « العوائد والأخلاق » المؤلف باللغة الفرنساوية ، وعبارته :

« أعظم الناس اعتناء بنظافة المنازل : أهل « الفلمنك » ، فتجد فى مدنهم غالب حاراتهم مبلطة بالحجر الأبيض ، المتعهَّد بالتنظيف ، وبيوتهم مجملة من خارجها أيضا ، وشبابيكهم ( القزاز ) تغسل دائما ، بل وحيطانهم الخارجة .

---

(١) زيادة اقتضاها السياق .  (٢) فى المطبوعة « قبطة »
(٣) فى المطبوعة « ويشمونها » .

وقد توجد النظافة في حصة من بلاد الانكليز ، وببلاد الأقاليم المجتمعة(١) من « أمريكة » ، وهي قليلة في فرنسا والنمسا وغيرهما .

ومن الأمم من هي كثيرة الاتساخ ، وكثيرة القمل ، بل تجد بعض أناس يأكلهم القمل ، ولا يبالون .

وقد ذهب داء البرص من منذ انتشار الأقمصة البيض التي تغسل ، ويغير بها كل أسبوع مرة ، و عدة مرات ، فالملابس البيض من جملة ما أنتج النظافة والسلامة من آثار الأوساخ الرديئة » انتهى .

---

(١) محاولة منه لترجمة كلمة : Stas-unis .

# الفصل الرابع

[ فيما رأينا ، من الجبال ، والبلاد ، والجزائر ]

قد مررنا على جزيرة « كريد » سابع يوم من سفرنا ، ورأينا على بعد جبلها الشامخ المسمى عند اليونان . « إيدا » ، الشهير بالأمور الغريبة فى تواريخهم .

ثم فى اليوم الثالث عشر منه ، رأينا جزيرة « سيسيليا » ، ( بالمهملتين ) ، وبعضهم يكتبها بالمعجمتين ، وهى مشهورة باللسان العربى باسم « صقالية » ، أو « صقلية » .

وهذه الجزيرة على الجنوب من بلاد « إيطاليا » منفصلة عنها ( بالبغاز ) المسمى « بغاز مسينة » ، ( بفتح الميم ، وتشديد السين المكسورة المهملة ، وسكون الياء ، وفتح النون ) ، وهى من أعظم جزائر البحر المتوسط وأخصبها ، ولذلك كانت تسمى فى الزمن السابق . « شونة رومة » ، وكانت فى الأعصر السالفة سببًا الحرب الرومانيين مع أهل « قرطاجة » ، أى سكان الغرب ، ثم انتهى الأمر إلى أن وقعت تحت حكم الرومانيين ، ثم انتقلت منهم إلى ملوك اليونان ، ثم فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى (ص٢٩) «النرمندية» ، ( بضم النون المشددة وسكون الراء ، وفتح الميم وكسر الدال ، وفتح الياء المشددة ) فرقة من أهل الشمال ، وهم سكان إقليم «نرمنديا» الذى هو الآن من إيالات فرنسا ، ثم حكمها بعض ملوك الاسبانيول ، ثم النيمسا ، ثم انتهى الأمر إلى أن كانت جزءا من مملكة « نابلى الكتان »(١) المسماة « بولية »(٢) حتى إنها هى و«نابلى» قد يسمَّيان الآن عند الافرنج : «السيسيليتين» بتغليب «سيسيليا» على « نابلى » .

---

(١) بإضافة « نابلى» إلى الإقليم الذى هى فيه ويسمى : قطانيا .

(٢) Pouille .

وفى كتب الجغرافيا أن أهل هذه الجزيرة مائة ألف نفس ، ومدنها فوق الجبال وقد رأينا بهذه الجزيرة على بعد ، فى اليوم الرابع عشر الجبل المسمى «منتثنا» (بفتح الميم وسكون النون ، وكسر التاء الفوقية ، وسكون الثاء المثلثة) و « منتثنا » كلمة مركبة من كلمتين : إحداهما « منت » معناها : جبل ، والأخرى « إثنا » فالأحسن كتابتها هكذا «منت إثنا» . وهو مشهور الآن بلفظة «جبيل» . ويظهر لى أن هذا الاسم تحريف «جبل» فهو عربى أدخله المسلمون فى هذه الجزيرة ، وأطلقوه على هذا الجبل ، فبقى بعد خروجهم إلى الآن ، وتغير بتحريف أهل هذه الجزيرة له .

وهذا الجبل جبل نار ، فإنه يخرج منه بالنهار دخان ، وبالليل لهب ، وقد يقذف مواد حجرية محترقة .

ثم إن جبال النار تسمى بالإفرنجية « الجبال البلكانية » ، ويسمى الجبل النارى «بلكان» ، (بضم الباء الموحدة ، وسكون اللام) ، ويقال «ولكان» ، ( بضم الواو) . وقد صحف هذا الاسم بالعربية إلى لفظة «بركان» (بالراء) ولعله تعريب عن لغة أهل الأندلس . ويسمى «طهمة» (بفتح الطاء ، وسكون الهاء) كما ذكره المسعودى فى كتابه المسمى «مروج الذهب» .

وفوهة البركان تسمى بالفرنساوية : «كراتيرة[1]» (بكاف وتاء فوقية مكسورتين ، وفتح الراء الثانية) ، ولا يوجد جبل النار غالبا إلا فى الجزائر .

وقد ذكر أرباب رصد هذا الجبل أن ارتفاعه على ظهر سطح البحر المحيط ألف وتسعمائة قدم وثلاث[2] أقدام ، وأن دورة قاعدته نحو خمسة وخمسين فرسخا فرنساويا ودائرة فوهته ربع فرسخ .

ثم إن العادة أن جبل النار يهيج ، ثم يسكن ، ثم يهيج . وقد يمكث مدة مطفيا حتى يظن الناس خموده بالكلية ، ثم يهيج ثانيا بعد مضى مدة أعصر . وقد هاج «جبل

---

(١) Cratére .

(٢) فى الأصل ( ثلاثة ) وهو خطأ .

إثنا» إحدى وثلاثين مرة ، ومنها هيجانه سنة ألف وثمانمائة وتسع[1] بتاريخ الإفرنج . وأعظم هيجانه ما كان سنة سبعمائة وثلاث وتسعين ، حيث ( ص ٣٠ ) خرب مدينة « كابان » ، وأهلك ثمانية عشر ألف نفس .

وعلامة هيجان البراكين شدة العجيج والقرقعة والدوى تحت الأرض ، وابتداء التدخين ، أو ازدياده . قال بعض الطبائعية[2] إننا إذا قابلنا حوادث الزلازل بحوادث البراكين رأينا كأن هاتين الحادثتين معلولتان لعلة واحدة وهي النيران التي تحت الأرض أي المحتقنة في باطنها ، إلا أن آثار الزلازل أوسع من آثار البراكين ، يعني أن آثار الزلازل تظهر في متسع عظيم من الأرض ، بخلاف آثار جبال النار فلا تمتد إلا بجوار قرب جبل النار .

وقد جرت العادة أيضا أن الزلزلة تعظم بقدر البعد عن البركان ، وعلل ذلك بعضهم بقوله : إن النار التي تحت الأرض تحاول منفسا ، لتخرج منه ، فإن كان في الأرض بركان فإنها تخرج منه ، فتذهب قوة النار ، فتنفقد الزلزلة ، بخلاف الأرض الخالية عن البراكين ، فإن النيران تحاول منفسا فيها ، فلا تجده ، فترتج الأرض بذلك.

وقال بعض الحكماء أيضا : إن كلا من الحوادث البركانية والزلازل ، صادر عن جاذبية المحاكة ، المسماة بالفرنساوية : « الإلكتريسته »(٣) ، ( بكسر الهمزة ، وسكون الكاف ، وكسر التاء والراء ، وكسر السين ، وفتح التاء ) ، المسماة : « الترسيس » ، ( بفتح الراء المشددة ، وكسر السين ) التي هي خاصة الكهرباء عند حكها .

قال بعضهم في رد هذا القول : إنه ينافي ما اعتمده بعض الحكماء في بناء الأرض ، ونظم طبقات صخورها .

ومن القواعد المقررة أن ثوران البركان يغلب كلما قل علوه ، ويقل كلما عظم العلو ، وهذا ما جرت به العادة . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(١) في الأصل : تسعة .

(٢) الطبائعية :

(٣) Électricitè.

وفى اليوم الخامس عشر رسونا على مدينة « مسيِّنة » ، ولم نخرج من السفينة أبدا ، لأنهم لا يمكنون من يجيء من البلاد الشرقية إلى بلادهم أن يدخلها إلا بعد (السكرتنة) ، وهى : مكث أيام معلومة ، لإذهاب رائحة الوباء ، ولكنهم يجيئون للانسان بسائر ما يحتاج ، ويناولهم الثمن ، فيضعونه فى إناء فيه خل ونحوه ، مع التحفظ التام (راجع الفصل الأول من المقالة الثانية) .

وقد تزودنا من هذه المدينة ما احتجنا إليه ، من الفواكه ، والخضراوات ، والمياه العذبة . . . إلى آخره ، وأقمنا بموردتها خمسة أيام وشاهدنا من بعد قصورها العالية ، وهياكلها الشامخة السامية . ورأيناها توقد قناديلها ووقداتها قبل أن يدخل وقت الغروب ، وتمكث بعد شروق الشمس .

(ص٣١) والظاهر أن مدة مرورنا بها كانت عيدا ، حيث إننا سمعنا بها أصوات النواقيس مدة إقامتنا ، حتى إن ضربهم النواقيس مطرب جدا .

وقد صنعت فى ليلة من هذه الليالى ، فى المحادثة مع بعض الظرفاء مقامة ظريفة ، مضمونها ثلاثة معان :

الأول : المجادلة فى أنه لا مانع من أنه الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة مع العفاف ، وأنشأت فى ذلك جملة شواهد لطيفة ؛ وأنشأت فيه قولى :

أصبو إلى كل ذى جمال ... ولست من صبوتى أخاف
وليس بى فى الهوى ارتياب ... وإنما شيمتى العفاف

الثانى : سكر المحب من معانى خمر عين محبوبه ، واستغناؤه عن الراح براحته ، وأنشأت فيه هذا المعنى قولى :

قد قلت لما بدا ، والكأس فى يده ... وجوهر الخمر فيها أشبه خديه
حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ... ونشوتى من معانى سحر عينيه

الثالث : فى تأثر النفس بضرب الناقوس ، إذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك : وقد أنشدت فى هذا المعنى قول الشاعر :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له ... من علَّمَ الظبى ضربا بالنواقيس
وقلت للنفس ، أى الضرب يؤلمكى ... ضرب النواقيس ، أم ضرب النوى ؟ قيسى

وذيلتها ببعض أبيات مجنسة ، والبحث فى معناها ، ونوع تجانيسها ، وبالجواب عن بعض ألغاز نحوية .. . إلى آخره ، وليس هذا محل بسط الكلام فى ذلك ؛

ثم سرنا من هذه المدينة اليومَ المتمم العشرين من مدة سفرنا ، وسرنا حتّى حاذينا جبل النار ، وجاوزناه .

وفى الرابع والعشرين جاوزنا مدينة « نابلى » ، وقد كانت قديما تسمى باللغة التركية « بولية » ، وتعديناها بنحو تسعين ميلا ، فانعكس الريح ، وصار قدام السفينة ، هابا من المقصد لا إليه ؛ لأنه من جهة الهواء : ويعجبنى قول بعضهم :

ومهفهف عنى يُميل ، ولم يمل يوما إلى ، فقلت من ألم النوى
لم لا تميل إلى يا غصن النقا ؟ فأجاب : كيف وأنت من جهة الهوا ؟!

وقول الصلاح الصفدى :

تقول له الأغصان إذ هز عطفه : أتزعم : أن اللين عندك قد ثوى ؟!
فقم ، نحتكم فى الروض عند نسيمه ليقضى على من مال منا مع الهوى

فبانعكاس الريح ، رجعنا إلى مدينة « نابلى » بعد أن جاوزناها ، ورسونا عندها ، ولم ندخلها ، لما تقدم ؛

وهى من المدن العظمى ببلاد الافرنج ، وملكها يحكم على بلاد جزيرة « صقلية » المتقدمة . ومدينة « نابلى » هى كرسى هذا الملك ، وقد تسمى باللغة العربية . « نابلى ألكتان »(١) ، ( بفتح الهمزة ، وكسر اللام ، وسكون الكاف ) ؛

وقد كانت مملكة « نابلى » فى يد الاسلام ، ومكثت نحو مائتى سنة ، ثم تغلبت عليها النصارى النورمندية ، هى ومملكة « صقلية » ، ولم تزل إلى الآن فى أيدى النصارى الإيطاليانية ، حتى إنها تسمى : بلاد إيطاليا الجنوبية ؛

وقد أسلفنا أن مدينة « نابلى » هى إحدى ( البنادر ) الأربعة الأصلية بالبلاد الافرنجية .

ثم رأينا فى اليوم التاسع والعشرين جزيرة « قرسقة » ، ( بضم القاف ، وسكون الراء ، وضم السين ، وفتح القاف ) التى هى فى حكم الفرنسيس ، وتسمى الآن:

(١) راجع ص ٥٩ .

جزيرة « قرس » . وقد فتحها المسلمون ، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا ، وهى وطن « نابليون » ، ( بضم الباء ، وسكون اللام ، وبالياء ) الشهير باسم « بونابارته » الذى تغلب على مصر فى غزوة الفرنساوية ، ثم تولى سلطنة فرنسا ، مع أن أباه كان رئيسا فى ( الطوبجية ) .

وفى اليوم الثالث والثلاثين رسونا على فرضة « مرسيليا » ، فكانت مدة مكثنا فى البحر ثلاثة وثلاثين يوما ، ومنها مكثنا خمسة أيام قدام « مسينة » ، ( بفتح الميم ، وتشديد السين المكسورة ، وفتح النون ) ، ونحو يوم قدام « نابلى » ، وتأخرنا كثيرا بلعب الرياح . ولولا ذلك لوصلنا فى أقل من هذه المدة بشئ يسير .

# المقالة الثانية

## الفصل الأول

[ فى مدة إقامتنا فى مدينة مرسيليا ]

قد رسونا على موردة « مرسيليا » التى هى إحدى فرض بلاد فرنسا ، فنزلنا من سفينة السفر فى زوارق صغيرة ، فوصلنا إلى بيت خارج المدينة معدّ (للكرنتينة) على عادتهم . من أن من أتى من البلاد الغريبة لابد أن ( يكرّتن ) قبل أن يدخل المدينة .

ولنذكر هنا ماقيل فى (الكرنتينة) بين علماء المغرب ، على ماحكاه لى بعض من يوثق به من فضلاء الغرب . قال : وقعت بين العلامة الشيخ محمد المناعى التونسى ( ص ٣٣ ) المالكى ، المدرس بجامع الزيتون ، ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم ، المؤلف عدة كتب فى المنقول والمعقول ، وله تاريخ دولة بنى عثمان ، من مبدئها إلى السلطان محمود الحالى ، محاورة فى إباحة ( الكرنتينة ) وحظرها ، فقال الأول بتحريمها ، والثانى بإباحتها ، بل وبوجوبها ، وألف فى ذلك رسالة ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة ، وأقام الأول الأدلة على التحريم ، وألف رسالة فى ذلك ، على اعتماده فيها فى الاستدلال على أن ( الكرنتينة ) من جملة الفرار من القضاء .

ووقعت بينهما محاورة أيضا نظير هذه ، فى كروية الأرض وبسطها ، فالبسط للمناعى ، والكروية لخصمه .

وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة ، وأنها سائرة ، العلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات ، بقرب بلاد « تمبكتو » ، وهو مؤلف مختصر فى فقه مالك ، ضاهى به «متن خليل» ، وضاهى أيضا «ألفية» ابن مالك فى النحو ، وله غير ذلك من المصنفات فى العلوم الظاهرية والباطنية ، كأوراد وأحزاب ، كحزب الشاذلى . وقد ألف كتابا وسماه : «النزهة» ، جمع فيه جملة علوم ، فذكر بالمناسبة علم الهيئة ، فتكلم على كروية الأرض ، وعلى سيرها ، ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه أن الأرض كرة ، ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها .

مات هذا الشيخ سنة ألف ومائتين وست وعشرين من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وخلفه حفيده المسمى باسمه .

ثم إن هذا البيت الذى كنا فيه ( للكرنتينة ) متسع جدا ، به القصور والحدائق والبناء المحكم ، فبه عرفنا كيفية إحكام أبنية هذه البلاد وإتقانها ، وامتلائها بالرياض والحياض . . إلى آخره .

ولم نشعر فى أول يوم إلا وقد حضر لنا أمور غريبة فى غالبها ، وذلك : أنهم أحضروا لنا عدة خدم فرنساوية ، لانعرف لغاتهم ، ونحو مائة كرسى للجلوس عليها ، لأن هذه البلاد يستغربون جلوس الانسان على نحو سجادة مفروشة على الأرض ، فضلا عن الجلوس بالأرض . ثم مدوا السفرة للفطور . ثم جاءوا بطبليات عالية ، ثم رصوها من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية ، وجعلوا قدام كل صحن قدحا من ( القزاز ) ، وسكينا ، وشوكة ، وملعقة ، وفى كل طبلية نحو قزازتين من الماء ، وإناء فيه ملح ، وآخر فيه فلفل ، ثم رصوا حوالى الطبلية كراسى ، لكل واحد كرسى ، ثم جاءوا بالطبيخ ، ( ص ٣٤ ) فوضعوا فى كل طبلية صحنا كبيرا أو صحنين ، ليغرف أحد أهل الطبلية ، ويقسم على الجميع ، فيعطى لكل إنسان فى صحنه شيئا يقطعه بالسكين التى قدامه ، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده ، فلا يأكل الانسان بيده أصلا ، ولا بشوكة غيره ، أو سكينه ، أو يشرب من قدحه أبدا. ويزعمون أن هذا أنظف وأسلم عاقبة .

ومما يشاهد عند الافرنج أنهم لايأكلون أبدا فى صحون النحاس ، بل ولا فى أوانيه أبدا ، ولو مبيضة ، فهى للطبخ فقط ، بل دائما يستعملون الصحون المطلية .

وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ، وربما كثرت وتعددت كل مرتبة منها ، فأول افتتاحهم الطعام يكون ( بالشوربة ) ، ثم بعده باللحوم ، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة ، كالخضراوات والفطورات ، ثم (بالسلطة) .

وربما كانت الصحون مطلية(١) بلون الطعام المقدم ، فصحون ( السلطة ) مثلا خضر منقوشة بلون ( السلطة ) ، ثم يختمون أكلهم بأكل الفوكه ، ثم بالشراب المخدر ، إلا أنهم يتعاطون منه القليل ، ثم بالشاى والقهوة . وهذا الأمر مطرد للغنى والفقير ، كل على حسب حاله.

---

(١) فى المطبوعة : « المطلية » .

ثم إن الانسان كلما أكل طعاما فى صحنه غيره ، وأخذ صحنا غير مستعمل ليأكل فيه طعاما آخر .

ثم إنهم أحضروا لنا آلات الفراش ، والعادة عندهم أنه لا بد أن ينام الانسان على شيء مرتفع نحو سرير ، فأحضروا ذلك لنا .

ومكثنا فى هذا المحل ثمانية عشر يوما ، لانخرج منه أبدا . غير أنه متسع جدا ، وفيه حدائق عظيمة ، ومحال متسعة ، للتماشى فيها ، والتنزه فى رياضها .

ومن هذا البيت ركبنا العربات المزينة المجملة التى تستمر عندهم آناء الليل وأطراف النهار تقرقع ، وسرنا بها إلى بيت فى المدينة ، لكنه فى حواشيها ، من القصور المصنوعة خارج المدينة بحدائقها وأدواتها ، فمكثنا منتظرين التوجه إلى مدينة «باريس» ومدة مكثنا فى هذا البيت كنا نخرج بعض ساعات للتسلى فى البلد ، وندخل بعض القهاوى .

والقهاوى عندهم ليست مجمعا للجرافيش ، بل هى مجمع لأرباب الحشمة ، إذ هى مزينة بالأمور العظيمة النفيسة التى لاتليق إلا بالغنى التام . وأثمان مافيها غالية جدا ، فلا يدخلها إلا أهل الثروة ، وأما الفقراء فإنهم يدخلون بعض قهاوى فقيرة أو الخمارات والمحاشش ، ومع ذلك هذه المحال أيضا مجملة تجملا نسبيا ، وقد أسلفت أن مدينة اسكندرية ( ص ٣٥ ) تشبه فى حالها مرسيليا .

وأذكر هنا أن الفرق بينهما اتساع السكك والطرق اتساعا مفرطا لمرور جملة عربات معا فى طريق واحد والآن صارت الاسكندرية بالهمة الخديوية بنحو ذلك ، ثم إن سائر القاعات والأروقة أو المنادر العظيمة يوضع فى حيطانها الجوانية مرآة عظيمة كبيرة ، حتى إنه ربما كانت سائر جوانب القاعة كلها من زجاج المرآة ، ليظهر لها رونق عظيم .

فأول مرة خرجنا إلى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع المزججة بهذه المرائى ، والمشحونة بالنساء الجميلات ، وكان هذا الوقت وقت الظهيرة .

وعادة نساء هذه البلاد : كشف الوجه والرأس ، والنحر ، وما تحته ، والقفا ، وما تحته ، واليدين إلى قرب المنكبين .

والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء ، وأما الأشغال فهى للرجال ، فكان لنا بالدكاكين والقهاوى ونحوها فرجة عليها ، وعلى مايعمرها .

وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة ، دخلناها ، فرأيناها عجيبة الشكل والترتيب ، والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة ، وقدامها دواة وريش وقائمة ، وفى قاعة بعيدة عن الناس محل لعمل القهوة ، وبين محل جلوس الناس ومحل القهوة صبيان القهوة ، ومحل الجلوس للناس مرصوص بالكراسى المكسوة بالمشجرات وبالطاولات المصنوعة من الخشب الكابلى الجيد ، وكل طاولة مفروشة بحجر من الرخام الأسود أو المنقوش ، وفى هذه القهوة يباع سائر أنواع الشراب والفطورات ، فإذا طلب الإنسان شيئا طلبه الصبيان من القهوجية ، وهى تأمر بإحضاره له ، وتكتبه فى دفترها ، وتقطع به ورقة صغيرة فيها الثمن ، وتبعثها مع الصبى للطالب ، حين يريد الدفع ، والعادة أن الإنسان إذا شرب القهوة أحضر له معها السكر ، ليخلطه فيها ويذيبه ، ويشربه ، ففعلنا ذلك كعادتهم . وفنجان القهوة عندهم كبير نحو أربعة فناجين من فناجين مصر . وبالجملة فهو قدح لا فنجان ، وبهذه القهوة أوراق الوقائع اليومية لأجل المطالعة فيها ، وحين دخولى بهذه القهوة ومكثى بها ظننت أنها قصبة عظيمة نافذة ، لما أن بها كثيرا من الناس ، فإذا بدا جماعة داخلها أو خارجها ظهرت صورهم فى كل جوانب الزجاج ، وظهر تعددهم مشيا وقعودا وقياما ، فيظن أن هذه القهوة طريق ، وما عرفت أنها (ص ٣٦) قهوة مسدودة إلا بسبب أنى رأيت عدة صورنا فى المرآة ، فعرفت أن هذا كله بسبب خاصية الزجاج فعادة المرآة عندنا أن تثنى صورة الإنسان ، كما قال بعضهم فى هذا الشأن :

أبرقع منظر المرآة عنه مخافة أن تثنّيه لعينى
أقاسى ما أقاسى ، وهو فذ فكيف إذا تجلى فرقدين !

وعادتها عند الإفرنج ، بسبب تعددها على الجدران وعظم صورتها ، أن تعدّد الصورة الواحدة فى سائر الجوانب والأركان ، ومن كلامى :

يغيب عنى فلا يبقى له أثر سوى بقلبى ، ولم يسمع له خبر
فحين يلقى على المرآة صورته يلوح فيها بدور كلها صور

وقال شيخنا العطار : لم أر ألطف تخيلا فى هذا المعنى من قول ابن سهل :

ألقى بمرآة فكرى شمس صورته  فعكسها شبّ فى أحشائى اللهبا

قال الحريرى فى مليح بيده مرآة :

رأى حسنَ صورته فى المرا  ة فأصبح صبا بها مدنفا
وصير يعقوب اسما له  يشير بأن قد رأى يوسفا

وسيأتى كمال الكلام على ذلك كله فى ذكر مدينة باريس .

ومدة إقامتنا فى مرسيليا بعد (الكرنتينة) شغلناها أيضا بتعلم تقطيع الحروف ، يعنى تعلم تهجى اللغة الفرنساوية .

ثم إنه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر ، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس ، وندر وجود أحد من الإسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس ، فإن منهم من مات ، ومنهم من تنصر ، والعياذ بالله ، خصوصا المماليك ، الجورجية والجركسية ، والنساء اللواتى أخذهن الفرنسيس صغار السن ، وقد وجدت امرأة عجوزا باقية على دينها .

وممن تنصر إنسان يقال له عبد العال ، ويقال إنه كان ولاه الفرنسيس بمصر (أغاة انكشارية) فى أيامهم ، فلما سافروا تبعهم ، وبقى على إسلامه نحو خمس عشرة سنة ، ثم بعد ذلك تنصر ، والعياذ بالله ، بسبب الزواج بنصرانية ، ثم مات بعد قليل ويقال إنه سمع منه عند موته يقول: أجرنى يارسول الله! ولعله ختم له بخير ، وعاد إلى الإسلام ، فقال بلسان الحال :

الحمد لله ، الحنيفة ملّتى  والله ربى ، وابن آمنة نبى

ولقد رأيت له ولدين وبنتا ، أتوا فى مصر وهم على دين النصرانية أحدهما معلم الآن فى مدرسة أبى زعبل .

ومثله ما حكاه لى بعضهم أن سر عسكر المسمى «منو» المتولى فى مصر بعد قتل الجنرال «كليبر» ( بفتح الكاف ، وكسر اللام ، وكسر الباء ) كان أسلم فى مصر نفاقا ، كما هو الظاهر ، وتسمى : عبد الله وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد فلما خرج الفرنسيس من مصر ، وأراد الرجوع ، أخذها معه ، فلما وصل رجع إلى النصرانية ،

وأبدل العمامة ( بالبرنيطة ) ومكث مع زوجته ، وهى على دينها مدة أيام فلما ولدت ، وأراد زوجها أن يعمِّد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت : لا أنصر ولدى أصلا ولا أعرضه للدين الباطل ! فقال لها الزوج إن كل الأديان حق ، وإن مآلها واحد وهو عمل الطيب . فلم ترض بذلك أبدا فقال لها إن القرآن ناطق بذلك وأنت مسلمة فعليك أن تصدقى بكتاب نبيك . ثم أرسل بإحضار أعلم الإفرنج باللغة العربية «البارون دساسى» فإنه هو الذى يعرف (و) يقرأ القرآن وقال لها سليه عن ذلك فسألته ، فأجابها بقوله: إنه يوجد فى القرآن قوله تعالى« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » فحجها بذلك! فأذنت بعمودية ولدها ، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ماقيل إنها تنصرت ، وماتت كافرة .

كل دين إن فاتك الإسلام     فمحال ، لأنه أوهام

ومما رأيته من جملة المصريين فى مرسيليا : إنسان لابس أيضا كالافرنج ، واسمه محمد منطلق اللسان فى غير اللغة العربية ، فلا يعرف من اللسان العربى إلا اليسير ، فسألته عن بلده ببر مصر ، فأجاب بأنه من مدينة أسيوط من أشرافها ، وأن أباه يسمى السيد عبد الرحيم ، وهو من أكابر هذه البلدة ، وأمه تسمى مسعودة أو قريبا من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره ، ويقول : إنه باق على إسلامه يعرف من الأمور الدينية : الله واحد ومحمد رسوله ، والله كريم!

ومن العجائب أننى بعد كلامه توسمت فيه الخير ، وكان على وجهه سمة أشراف أسيوط (ص ٣٨) حقيقة ، فإن صح كلامه كان من أولاد سيدى حريز بن سيدى أبى القاسم الطهطاوى وأشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى أبى القاسم ، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير ، ذريته أهل جزيرة شندويل ، وشهرة سيدى أبى القاسم الطهطاوى لاتخفى على من يعرفه ، وإن لم يذكره سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الطبقات ، وكثير من الأشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم إلى سيدى حريز المتقدم .

ومما رأيته فى مرسيليا الملاعبة المسماة « السبكتا كل » وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين ، ولنذكرها فى الكلام على « باريس » ومكثنا فى هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا إلى باريس .

# الفصل الثانى

[ فى الخروج من مرسيليا إلى دخول باريس وفى المسافة بينهما ]

اعلم أن عادة المسافرين من مرسيليا إلى باريس بالعربات أن يستأجروا العربة أو موضعا فيها ، فإما أن يأكلوا على كيسهم أو يدفعوا قدرا معلوما للعربية(١) والقوت مدة الطريق :

ثم إن السفر يكون ليلا ونهارا إلا وقت الأكل ونحوه، وكل البلاد التى فى الطريق فيها مواضع معدة للطعام والشراب ، مشتملة على سائر أنواع المطعومات والمشروبات فى غاية النظافة والظرافة ، وفيها محالّ للنوم مفروشة بالفرش العظيم، وبالجملة فهى مستكملة الآلات والأدوات .

فلما ركبنا عربات السفر ، كل جماعة منا فى يوم، وسرنا من مرسيليا سيرا سريعا ، مستمرا على حالة واحدة ، ولا يتأثر الإنسان ، كسفر البحر بالرياح ونحوها ، وصلنا مدينة ليون فى ضحوة اليوم الثالث . ومدينة ليون ، على البعد من مرسيليا باثنين وتسعين فرسخا فرنساويا ، ومن « ليون » إلى مدينة باريس مائة وتسعة عشر فرسخا ، ومن « مرسيليا » إلى « باريس » مائتان وأحد عشر فرسخا فرنساويا ، وقد مكثنا فى « ليون » نحو اثنتى عشرة ساعة ، للاستراحة ، ولم أر داخل هذه المدينة إلا بالمرور فيها ، أو من شباك البيت الذى كنا فيه :

ومن لم يستطع أعلام رضوى ليبزل بعضها نزل السفوحا

ثم سرنا منها ليلا إلى « باريس » ، فدخلناها صبيحة اليوم السابع من خروجنا من مرسيليا ، وقد مررنا بقرى كثيرة ، وأغلبها مشتمل على البيع والشراء والحفر ، عظيمة الأبنية مزينة بالأشجار ، وبالجملة فالقرى مسلسلة متصلة ببعضها(٢) غالبا ، خصوصا

---

(١) فى المطبوعة : « للعربية » .

(٢) الصواب : مسلسل بعضها ببعض .

(ص٣٩) مع جدالسير ، حتى إن الإنسان لايظن إلا أنه فى بلدة واحدة ، والمسافرون غالبا فى ظل الأشجار المرصوصة بوجه مرتب مطرد فى سائر الطرق ، وندر تخلفه فى بعض المحال . ثم إن الظاهر فى هذه القرى والبلاد الصغيرة أن جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم من ذلك فى مدينة « باريس » غير أن نساء الأرياف أقل تزينا من نساء «باريس» كما هو العادة المطردة فى سائر بلاد العمران .

# المقالة الثالثة

## الفصل الأول

[فى تخطيط « باريس » من جهة وضعها الجغرافى،
وطبيعة أرضها، ومزاج إقليمها وقطرها]

اعلم أن هذه المدينة تسمى عند الفرنسيس « پارى » ( بالباء الفارسية التى تلفظ بين الفاء والباء ) ولكن يكتب هذا الاسم « باريس » ولا ينطق بالسين أبدا فيه ، كما هو عادة الفرنساوية من أنهم يكتبون بعض الحروف ولا يلفظون بها أبدا ، خصوصا حرف السين فى آخر بعض الكلمات ، فإنه لا ينطق به أبدا مثلا أتينه » ( بإمالة التاء ) مدينة حكماء اليونان تكتب بالفرنساوية ( أتينس ) ، وتقرأ ( أتين ) ثم إن العرب والترك ونحوهم يكتبون ( باريس ) أو ( بريس ) أو ( باريز ) ، وربما قالوا «فارس» . وأظن أن الأوفق كتابتها بالسين ، وإن اشتهر على ألسنة غير أهلها قراءتها بالزاى ، ولعل ذلك إنما نشأ عن أن السين فى اللغة الفرنساوية قد تقرأ زايا فى بعض الأحيان ، ببعض شروط ، وإن كانت مفقودة هنا إلا فى حال النسبة فإن النسبة إلى « باريس » عند الفرنسيس بارزيانى ، وهذا بعينه هو السبب لأن النسبة ترد الأشياء إلى أصولها . ولكن هذه القاعدة فى النسبة العربية ، والنسبة هنا أعجمية ، وقد مشيت فى بعض أشعارى التى أنشدتها فيها على كتابتها بالسين حيث قلت :

لئن طلقت باريسا ثلاثا ... فما هذا لغير وصال مصر
فكل منهما عندى عروس ... ولكن مصر ليست بنت كفر !

وقلت :

لقد ذكروا شموس الحسن طرا ... وقالوا إن مطلعها بمصر
ص٤٠) ولكن لو رأوها وهى تبدو ... بباريس لخصوها بذكر

وسميت بذلك لأن طائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى «الباريزيين» ، ومعناها فى اللسان القديم الفرنساوى سكان الأطراف والحواشى ، وليس هذا الاسم منقولا عن «باريس» اسم رجل شهير كما قاله بعضهم .

ثم إن هذه المدينة من أعمر مدائن الدنيا ، ومن أعظم مدائن الإفرنج الآن ، وهى كرسى بلاد الفرنسيس ، وقاعدة ملك فرنسا ، وسيأتى تفصيل ذلك فى محله .

وهى موضوعة فى التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالى ، يعنى أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر .

وأما طولها فإنه يختلف ، فإذا اعتبرنا خط نصف النهار الذى ينسب إليه الفرنساوية أطوال سائر الأماكن ، وهو خط نصف النهار المرسوم فى رصدهم السلطانى ، وهو يمر بباريس ، فهو حينئذ مبدأ الأطوال على حساب الفرنساوية ، كان طولها صفرا ، وأما إذا حسبنا على خط نصف النهار الذى كان يأخذ بطليموس الأطوال منه ، ولا يزال(١) إلى الآن مبدأ أطوال بعض الأمم ، كأهل «الفلمنك» وهو خط نصف نهار «الجزائر الخالدات» ببحر المغرب ، كانت باريس فى عشرين درجة تقريبا من الطول الشرقى .

ولنذكر لك هنا كيفية معرفة درجتى الطول والعرض فى(٢) مكان من الأمكنة ، وثمرة ذلك ، وإن كان يخرجنا عما نحن بصدده فنقول :

اعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض ، وأنها غير صادقة التكوير ، ثم صنعوا على هيئتها صورة ، وسموها صورة الأرض .

ولإمكان تقسيم الأرض ، وتسهيل معرفتها ، توهموا فيها دوائر أنصاف نهار ودوائر متوازية ، ومحورا وقطبين ورسموها على صورتها المصطنعة ، فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازى لمحور الفلك ، وطرفاه هما القطبان ، ويسمى أحدهما القطب الشمالى ، والآخر القطب الجنوبى ، ودوائر أنصاف النهار هى الدوائر التى تعبر من أحد القطبين إلى الآخر . وعلة تسميتها بذلك أنه إذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط دخل وقت الظهر بذلك المحل ، ومركز هذه الدوائر هو مركز الأرض .

---

(١) فى المطبوعة : «ولا زال» . (٢) فيها : «من» .

وأما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصاف النهار ، وهى التى بينها وبين مركزها تواز على محور الأرض . (ص٤١) وأعظمها دائرة الاستواء وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين . وهى تنصف الكرة نصفين أحدهما النصف الشمالى ، والآخر النصف الجنوبى . ثم إن دوائر أنصاف النهار ، والدوائر المتوازية كسائر الدوائر ، تنقسم إلى ثلثمائة وستين درجة وكل درجة تتجزأ إلى ستين دقيقة ، وكل دقيقة إلى ستين ثانية ، وكل ثانية إلى ستين ثالثة ، وهكذا .

وللإفرنج تقسيم آخر جديد، وهو: أن الدائرة تنقسم إلى أربعة أرباع ، وكل ربع يتجزأ مائة ، تسمى درجات مئينية ، وكل درجة مائة دقيقة مئينية ، وكل دقيقة مائة ثانية كذلك ، وهكذا . وهذا نشأ عن استعمالهم الحساب الأعشارى، والحساب المترى ، والأول أشهر استعمالا . وبهذه الدوائر يتحدد الطول والعرض ، وذلك أن العرض هو بعد دائرة متوازية عن المتوازية العظمى التى هى دائرة الاستواء، فإن أخذته جهة الشمال كان عرضا شماليا ، ونهايته تسعون درجة ، وإن كان جهة الجنوب فجنوبى ، ونهايته كذلك ، وأما الطول فهو بعد خط نصف النهار عن خط نصف نهار آخر مصطلح على أنه أولى . وهو شرقى، وقدره مائة وثمانون درجة ، وغربى وقدره كذلك، وقد وضع أصحاب الجغرافيا فى الكرة(١) أو الخرطات على كل دائرة متوازية ماتبعد به من الدرجات عن دائرة الاستواء ، كما جعلوا على كل دائرة نصف نهار عدد درج بعدها من دائرة نصف النهار الأولية .

وقد رسم كما أسلفناه «بطليموس» الحكيم دائرة نصف النهار الأولية فى «الجزائر الخالدات» ، فلما انكشفت بلاد أمريكة اختار الإفرنج أن يجعل أهل كل قطر من الأقطار خط نصف نهارهم الأولى ببلادهم ، لينسبوا إليها ماعداها ، كما صنع الفرنساوية ، فإنهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولى فى مدينة باريس ، وبقيت منهم أمم كالفلمنك على أخذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات .

وفى الواقع أن الأولى ، كما هو الظاهر ، اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم ينسب إليه ماعداه ، ويكون فى قطر لاعمار بعده معلوم أو ممتاز بمزية كمكة المشرفة ، ثم إن كيفية تحديد الطول حينئذ يمكن أخذها بتفاوت الأوقات ، وذلك أنه من المعلوم

(١) الأصل : « الأكرة » .

أن الشمس أو الأرض ، كما يقوله الإفرنج ، تقطع حركتها اليومية فى أربع وعشرين ساعة فهى تقطع من الدائرة التى ترسمها فى سيرها خمس عشرة (ص٤٢) درجة فى كل ساعة فتقطع درجة كل أربع دقائق يعنى أنه إذا دخل وقت الظهر فى القاهرة مثلا فلا يدخل وقته فى المكان الذى يبعد عنها جهة الغرب بخمس عشرة درجة إلا بعد ساعة ويدخل بعد ساعتين ، فيما يبعد عنها بثلاثين درجة ، وهلم جرا . وبعكس ذلك فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق ، فإنه إذا كان الظهر فى القاهرة يكون قد مضى ساعة بعد الظهر فى المكان الذى يبعد عنها جهة المشرق بخمس عشرة درجة ، ويكون مضى ساعتان فيما يبعد عنها فى هذه الجهة بثلاثين درجة إلى آخره .

فلنذكر هنا حينئذ متى يكون الظهر فى « باريس » إذا كان الظهر فى أصول البلاد الغربية منها والشرقية ، وبذلك يفهم بعدها عن هذه البلاد ، فيقال : إذا كان وقت الظهر فى مصر القاهرة لايدخل وقته فى « باريس » إلا بعد مضى ساعتين إلا أربع دقائق ، وإذا كان الظهر فى «إسلامبول» كان فى « باريس » بعد مضى ساعة وست وأربعين دقيقة ، وإذا كان فى بغداد كان دخوله فى باريس بعد ساعتين وثمان وأربعين دقيقة وفى حلب إذا دخل الظهر لايدخل فى « باريس » إلا بعد ساعتين وثلث ، وإذا دخل الظهر فى الجزائر لا يدخل فى باريس إلا بعد أربع دقائق تقريبا ، وإذا دخل فى « تونس » فيدخل فى « باريس » بعد مضى نصف ساعة ودقيقتين ، ووقت الظهر فى «أصفهان» يدخل فى «باريس» بعد مضى ثلاث ساعات واثنتين وعشرين دقيقة ، وإذا كان فى مدينة «بكين» (بكسر الباء والكاف) كرسى ملك الصين ، يكون فى «باريس» سبع ساعات وإحدى وأربعين دقيقة ، وفى مدينة الباب الأبواب[1] تكون ساعة وثمانى وأربعين دقيقة ، وفى مدينة «رومة الكبرى» نصف ساعة وثمانى دقائق وهذه البلاد على الشرق من مدينة «باريس» .

وأما البلاد التى على غربها فإذا كان الظهر فى مدينة «مدريد» كرسى ملك الأندلس فإنه يكون فات وقته فى «باريس» بأربع دقائق وإذا كان فى مدينة «أشبونة» كرسى البرتوغال فإنه يكون فات وقته فى باريس بخمس دقائق ونصف ، وإذا دخل وقته فى «فيلادلفياء»

---

(١) وتسمى باب الأبواب ، وهى على بحر قزوين .

(بكسر الفاء، وسكون الياء، وفتح اللام، وكسر الدال المهملة، وسكون اللام، وكسر الفاء) مدينة بأمريكة ، فإنه يكون قدمضى بعده فى «باريس» خمس (ص ٤٣) ساعات وثلاث عشرة دقيقة ، وإذا كان وقته فى مدينة «ريوجانيرو» (بكسر الراء وضم الياء ، وكسر النون، وسكون الياء ) كرسى سلطنة « إبريزيلة » فى أمريكة ، فهو ثلاث ساعات تقريبا ، وإذا كان نصف النهار فى جزيرة « كنفو » فى «أمريكة الموسقو» يكون نصف الليل فى «باريس» فإنهما متقاطران .

والمسافة بين « باريس » « وإسكندرية » سبعمائة وتسعة وستون فرسخا فرنساويا بينها وبين القاهرة ثمانمائة وتسعة فراسخ ، وبينها وبين مكة المشرفة سبعمائة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين « إسلامبول » خمسمائة وستون فرسخا ، وبينها وبين حلب ثمانمائة وستة وستون فرسخا ، وبينها وبين « مراكش » سبعمائة وخمسة وعشرون فرسخا ، وبينها وبين « تونس » ثلثمائة وسبعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « لوندرة » كرسى الانكليز مائه فرسخ ، وبينها وبين مدينة « بتربرغ »(١) كرسى الموسقو خمسمائة وستة وأربعون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « موسقو » كرسى الموسقوبية القديم ستمائة فرسخ وبينها وبين مدينة « رومة » كرسى البابا ثلثمائة وخمسة عشرون فرسخا ، وبينها وبين مدينة « بجة » (٢) كرسى النيمسا ثلثمائة وخمسة وعشرون أيضا ، وبينها وبين مدينة « نابلى » ثلثمائة وأربعة وثمانون فرسخا .

وارتفاعها بالنسبة لسطح البحر المحيط ثمانى عشرة قامة ، ومن المعلوم أنها من بلاد المنطقة المعتدلة ، فليست فى غاية الحرارة ، ولا فى غاية البرودة ، فإن أقصى درجات الحر فيها يكون إحدى وثلاثين درجة ونصفا ، وهذا نادر ؛ والحر الأوسط تسع وعشرون درجة ، وأقصى درجات البرد بها فى الغالب اثنتا عشرة درجة ، وندر بلوغه ثمانى عشرة(٣) ، والبرد الأوسط سبع درجات .

ومعلوم أن درجة الحر تحسب من شروع المتجمدات فى الذوبان إلى حد فوران الماء ، ودرجات البرد من شروعه فى الجمود .

---

(١) Pétersbourg .
(٢) هي مدينة فيينا .
(٣) المطبوعة : « ثمانية عشر » .

والأغلب فيها عدم صحو الزمن وكثرة الغيوم ، بحيث تمكث الشمس فى الشتاء عدة أيام لاتنكشف ولايرى جرمها غالبا ، فكأنها إلا ماتت وعاش الليل ، ويحسن هنا قول بعضهم .

قلت والليل مقيم ودجاه غير سارى
أعظم الخالق أجرا لخلق فى شمس النهار
فلقد ماتت ، كماما ت غرامى واصطبارى(١)

(ص٤٤) وأما المطر فإنه لاينقطع فى هذه المدينة فى سائر فصول السنة ، وإذا نزل فى الغالب نزل بكثرة ، فلذلك احتاجوا فى دفع ضرره إلى جعل أعالى الدور منحدرة لتنزل منها المياه إلى أسفل الدور . وفى سائر البيوت والطرق مجارى وبالوعات ، فترى وقت المطر سائر طرق « باريس » محدودة بمجار ، كالقناة الجارية المياه ، خصوصا وأرض هذه المدينة مبلطة بالحجر ، فلا تتشرب المياه أبدا ، بل تسير إلى هذه المجارى ، ومنها إلى البالوعات .

وتغير مزاج الهواء والزمن فى «باريس» أمر عجيب ، فإنه قديتغير فى اليوم الواحد (ص٤٥) أومع مابعده حال الزمن ، مثلا : يكون فى الصباح صحو عجيب لايظن الإنسان تغيره فلا يمضى نصف ساعة إلا ويذهب بالكلية ، ويخلفه المطر الشديد ، وقد يكون حر يوم من الأيام أربعا وعشرين درجة ، ولا يصل اليوم الآتى إلى اثنتى عشرة(٢) ، وهكذا ، فقل أن يأمن الانسان تغير الوقت بهذه البلاد ، فمزاجها كمزاج أهلها كما سيأتى .

ومعلوم أنه ينبغى أن يتحفظ الإنسان من ضرر هذا التغير وإن كان هواء «باريس» فى الجملة طيبا مناسبا للصحة ، ومع أن حرها لايصل إلى حر القاهرة فى الغالب فهو غير مألوف أبدا ، ولعل ذلك للانتقال من شدة البرد إلى شدة الحر .

وأما بردها فإنه وإن كان فى طاقة الانسان تحمله من غير عظيم تعب فإنه لايمكن للناس الشغل إلا بالتدفئة بالنار ، فلذلك كان فى سائر قهاويها وخاناتها ومعاملها وحوانيتها مداخن مبنية فى الأوذ ، ليوقد فيها النار ، وهى مرتبة على وجه بحيث لاينتشر فى الأودة

---

(١) هنا فى الأصل المطبوع أبيات من الشعر فيها استطراد بعيد عن الموضوع والمشروع .
(٢) فى المطبوعة : « إثنى عشر » .

دخان الحطب[١] فإن هذه المداخن نافذة إلى الهواء ، فيجذب الهواء الدخان ، ويطرده خارج البيت ، وفى بعض الأود يصنعون نوعا من الفرن له باب من الحديد ويلحقون به قصبة من صفيح ، وينفذون هذه القصبة فى فرجة تتصل بالهواء ، فيضعون الخشب فى الفرن ، ويغلقون باب المحمى فيصعد الدخان جهة القصبة ، ومنها يصعد إلى الخلاء فتسخن الفرن وتحمى قصبتها فتسخن الأودة أوالرواق ونحوهما[٢] أوعندهم نوع آخر عجيب يسمى «المداخن المسقوبية» [٣] . وعادة المدخنة أوالفرن المسماة عندالفرنساوية « بوالا » (٤) أن ظاهرها مطلى طلاء عظيما فى غاية النظافة ، والمدخنة دائما مرخمة الجوانب ، ولها عرصة من حديد . وهى عند الفرنساوية لحسن صناعتها من زينة المحل فيكتنفونها فى الشتاء . ومن أعظم إكرام الضيف عندهم فى الشتاء تقريبه جهة النار ، ولا عجب فى ذلك ، نسأل الله إنقاذنا لمن حر نار جهنم . ولله در القائل :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد  أكل الفواكه شاتيا فليصطل

وأحسن من قال :

دخلت يوما على صديق  والبرد يفرى به الفريا
فأوقد النار قلت كلا  لأنت أولى بها صليا

( ص ٤٦ ) وبالجملة فالتدفئة فى الشتاء عند الفرنساوية جزء من المؤونة ، فهذا مايستعينون به على البرد :

وأما مايستعينون به على التوقى من ضرر المطر فهو المظلات المسماة فى مصر بالشمسيات ، يعنى وقايات الشمس ، وتسمى تلك عند الفرنساوية وقاية المطر ، وفى الحر تمشى النساء بالشمسيات ، ولا يمكن للرجال ذلك أبدا .

وأرض هذه المدينة مفلحة دسمة مثمرة ، فكيف لا وما من بيت من البيوت الوافرة إلا وبه بستان عظيم الأشجار والخضراوات وغيرها ؟ وأغلب النباتات الغريبة يوجد بهذه البلدة ، فإنهم يعينون بتطبع[٥] النباتات كالحيوانات الغريبة ببلادهم ، مثلا

---

(١) يقصد الوقود من فحم ونحوه . (٢) المخطوطة : « ونحوها » .
(٣) المسقوبية أى الموسكوفية . (٤) Poéles .
(٥) هو ما يسمى بأقلمة النباتات .

شجر النخل لايخرج إلا فى الأقاليم الحارة ، ومع ذلك صنع الفرنساوية كل الحيل ، حتى زرعوا منه شيئا ، وإن كان لايثمر ، إلا أنه ينفعهم فى الرجوع إليه عند قراءتهم فى علم النباتات ، وقد اشتهر عندنا أن النخل لايوجد إلا ببلاد الإسلام ، ويرد عليه أنه عند كشف بلاد أمريكة وجدوا بها نخلا غير منقول ، كما هو الظاهر من بلادنا ، فانظر هذا مع قول الفاضل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات ، وغرائب الموجودات مانصه : نخل شجرة مباركة عجيبة ، من عجائبها أنها لاتنبت إلا فى بلاد الاسلام انتهى . ولعل النخل الموجود فى غير بلاد الإسلام نوع مخصوص يصدق عليه اسم النخل عند أهل للنباتات ، والمقصور على بلاد الإسلام نخل التمر ، لمناسبة مزاج[1] قطرها فتأمل .

وبقرب أرض باريس عين ماء معدنى باردة الماء .

ويشقها نهران أحدها وهو الأعظم والأشهر يقال له نهر السين ( بفتح السين ) والآخر نهر «غوبلان» قال بعض علماء الكيميا من الإفرنج إن أقل المياه خليطا بالمواد الخارجية «نيل مصر» «ونهر الكنك» ببلاد الهند ونهر «السين» «بباريس» ويتفرع على ذلك اعتبار مائها فى فن الطب من الأمور المناسبة لصحة الأبدان ، وأنه يحسن تطييب وطبخ الخضراوات بها دون غيرها ، وتحليل الصابون بها للغسل ونحو ذلك .

وفى نهر السين بداخل باريس ثلاثة جزائر إحداها تسمى «جزيرة السيتة» وكان بها باريس القديمة « والسيته » «بكسر السين وسكون الياء وفتح الفوقية » معناها المدينة فكأنه قيل جزيرة المدينة وشتان بين هذا وبين النيل ، والروضة والمقياس ، فإن نزهة الانسان فى الروضة والمقياس لاتضاهى ، لأن الخليج (ص٤٧) يعبر مصر ، والسين يعبر «باريس» إلا أن نهر السين بتمامه يشق «باريس» وتجرى به[2] السفن العظيمة الوسق ، وبه الأرصفة الجيدة والنظافة على حوافيه ، ومع ذلك فنزهته غير سارة وشتان أيضا بين ماء «النيل» و«السين» من جهة الطعم وغيره فإن ماء النيل لو كانت العادة جرت بترويقه قبل استعماله كما هو العادة فى ماء نهر السين لكان من أعظم الأدوية . وأقول أيضا إنه فرق بعيد بين طعم ماء نهر « السين » وماء العيون والقطوع والسواقى ببلاد صعيد مصر . وبالجملة والتفصيل ففرق بعيد بين تربة مصر و«باريس» ومياههما وفواكههما إلا فى نحو الخوخ

(١) المزاج : المناخ . (٢) المطبوعة : « بها » .

وإقليمهما ، فلولا نجامة أهل باريس وحكمتهم وبراعتهم. وحسن تدبيرهم ، واعتناؤهم بتعهد مصالح بلادهم ، لكانت مدينتهم كلا شيء ، فانظر مثلا إلى نهر « السين » فإنه وإن كان نزهة فى أيام الحر فإنه قد يبلغ فى وقت الشتاء ثمانى درجات من الجمود والانعقاد حتى إنه يمكن أن يداس عليه بالعربات ، وانظر إلى أشجار هذه المدينة فإنها تكون مورقة فى أيام الحر ، وفى أيام البرد لاتجدها إلا قرعة رديئة المنظر ، كأنها حطب مصلب وهذا فى سائر البلاد الباردة ، وقال بعضهم فى هذا المعنى :

سألت الغصن لم تعرى شتاء ... وتبدو فى الربيع وأنت كاسى؟!
فقال لى : الربيع على قدوم ... خلعت على البشير به لباسى

(و) قال بعضهم فى وصف يوم برد وأجاد : فى يوم برد جعله الله منه فى حمى ، ومجال حرب كان الظفر فيه لابن ماء السما . كأنما ماجت الأرض فرحا لانهلال السحاب ، وقويت أوتادها إذ صار لها بالسماء من جبال المطر أمد الأسباب . وكأن السماء قد رأت مابالأرض من السرور فبعثت تهنيها بصوت الرباب ، فلكم تفتحت أعين النور لعيون الغمام الساجمة ، ولكم استمرت به مسرة واستقرت به سائمة . ولكم ضحكت الأرض لبكاء السماء بمدامعها ، وظهر البشر على وجهها .

وانظر إلى زمن تلك المدينة ، فإنه دائما معتم فى سائر أيام الشتاء وغالب أيام الحر ، فإذا تنزه الإنسان ساعة تنكد ساعة أخرى ، وذهب حظه بالرعد والبرق ، وانهطال المطر والصواعق ، إلا أن الثلوج بها ومجارى البالوعات تقى من الوحل المضر ، فليست (ص ٤٨ ) كأرض جيلان التى[1] قال فيها الشاعر :

أقمت بأرض جيلان زمانا ... ولم يك ذاك منى غير جهل
فلم أحصل على خير متاح ... سوى سح الغيوث وخوض وحل

وأهلها لايبالون بذلك ، فيقال فى سائر أيامها ماقاله بعضهم فى وصف يوم شديد البرد من أنه يوم يجمد حمره ، ويخمد جمره . ويخف فيه الثقيل إذا هجر ، ويثقل فيه الخفيف إذا هجم . إلا أن الفرنساوية يكثرون من الملاهى فى ليالى الشتاء ، لأنهم يبذلون

(١) فى المطبوعة : « الذى » .

جهدهم فى التوقى من مضارها ، نسأل الله تعالى الوقاية من برد الزمهرير ، فلو تعهدت مصر وتوفرت فيها أدوات العمران ؛ لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا ، كما هو شائع على لسان الناس من قولهم مصر أم الدنيا . وقد مدحتها مدة إقامتى « بباريس » بقصيدة وهى :

ناح الحمام على غصون البان ... فأباح شيمة مغرم ولهان
ماخلته مذ صاح إلا أنه ... أضحى فقيد أليفه ويعانى
وكأنه يلقى إلى إشارة ... كيف اصطبارى مذ نأى خلانى
مع أننى والله مذ فارقتهم ... ماطاب لى عيشى وصفو زمانى
لكننى صب أصون تلهفى ... حتى كأنى لست باللهفان
وبباطن الأحشاء نار لو بدت ... جمراتها ماطاقها الثقلان
أبكى دما من مهجتى لفراقهم ... وأود ألا تشعر العينان
لى مذهب فى عشقهم واريته ... ومذاهب العشاق فى إعلان
ماذا على إذا كتمت صبابتى ... حتى لو أن الموت فى الكتمان
ماأحسن القتلى بأغصان النقا ... ماأطيب الأحزان بالغزلان
قالوا أتهوى؟ والهوى يكسو الفتى ... أبدا ثياب مذلة وهوان
فأجبتهم لو صح هذا إننى ... أختار ذلى فيه طول زمانى
والذل للعشاق غير معرة ... بل عين كل معزة للعانى
أصبو إلى من حاز قدا أهيفا ... يزرى ترنحه بغصن البان
(ص ٤٩) وأحن نحو شقيق تم خده ... قد نم فيه شقائق النعمان
ويروقنى أبدا نزاهة مقلتى ... فى حسن طلعة فاتك فتان
أمسى وأصبح بين شعر حالك ... ومنير وجه هكذا الملوان
ولطالما قضيت معه حقبة ... ونسيم مصر معطر الأردان
زمن علىّ به لمصر (فديتها) ... حق وثيق عاطل النكران

لو شابهت عيناى فائض نيلها ... لم توف بعض شفائه أحزانى
أو لو حكى قلبى بحار علومها ... طربا لما أخلو من الخفقان
ولكم بأزهرها شموس أشرقت ... وأنارت الأكوان بالعرفان
فشذا عبير علومهم عم الورى ... وسرت مآثرهم لكل مكان
وحوتهم ومصر فصارت روضـ ... ـة وهمو جناها المبتغى للجانى
قد شبهوها بالعروس وقد بدا ... منها «العروسى» بهجة الأكوان
قالوا تعطر روضها فأجبتهم ... «عطارها حسن» شذاه معانى
حبر له شهدت أكابر عصره ... بكمال فضل لاح بالبرهان
لو قلت لم يوجد بمصر نظيره ... لأجبت بالتصديق والاذعان
هذا لعمرى إن فيها سادة ... قد زينوا بالحسن والاحسان
يأيها الخافى عليك فخارها ... فإليك إن الشاهد «الحسنان»
ولئن حلفت بأن «مصر» لجنة ... وقطوفها للفائزين دوانى
و«النيل» كوثرها الشهى شرابه ... لأبر كل البر فى أيمانى

(ص ٥٠) وأما مصر فإنها سليمة من مكاره برد «باريس»، كما أنها خالية أيضا عن الأمور المحتاج إليها فى وقت الحز، مثل الاستعانة على تطرية الزمن، فإن أهل «باريس» مثلا سهل عندهم رش ميدان متسع من الأرض وقت الحز، فإنهم يصنعون دنا عظيما ذا عجلات، ويمشون العجلة بالخيل، ولهذا الدن عدة بزابيز، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة، وعزم سريع، فلا تزال العجلات ماشية، والبزابيز مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة؛ لا يمكن رشها بجملة رجال فى أبلغ من ساعة، ولهم غير ذلك من الحيل، فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها (قد صار الآن جل ذلك بمصر)[1].

(١) تعليق زاده على النص بعد عودته إلى مصر.

ثم من غرائب نهر « السين » أنه يوجد فيه مراكب عظيمة ، فيها أعظم حمامات « باريس » المشيدة البناء وفى كل حمام منها أبلغ من مائة خلوة ، وسيأتى ذكرها .

ومن الأمور المستحسنة أيضا أنهم يصنعون مجارى تحت الأرض توصل ماء النهر إلى حمامات أخرى وسط المدينة ، أو إلى صهاريج بهندسة مكملة . فانظر أين سهولة هذا مع ملء صهاريج مصر بحمل الجمال ، فإن ذلك أهون مصرفا ، وأيسر فى كل زمن وشطوط هذا النهر داخل المدينة ، مرصفة بحيطان عظيمة عالية فوق الماء نحو قامتين ، يطل المار بجانبها على النهر ، وهى محكمة البناء .

وقناطر هذا النهر «بباريس» ست عشرة قنطرة ، فمنها قنطرة تسمى قنطرة بستان النباتات ، ولها أربعمائة (ص ٥١) قدم من الطول وعرضها سبعة وثلاثون قدما ، ولهذه القنطرة خمسة قواصير من الحديد محكمة ومسندة على حجارة من أحجار النحاتة ، وقد بنيت هذه القنطرة فى خمس سنوات ، وصرف فيها ثلاثون مليونا من الفرنكات ، يعنى ثلاثين ألف ألف فرنك. وتسمى هذه القنطرة قنطرة « استرلتز » ؛ سميت بذلك باسم محل غلب فيه « نابليون » ملك « النيمسا والموسقو » ، فيقال لهذه الواقعة واقعة « استرلتز » ، ويقال لها واقعة السلاطين الثلاثة . ويقال لها واقعة موسم تتويج نابليون

« واسترلتز » بلدة وقعت هذه النصرة بقربها ، وهذه النصرة تستحق عند الفرنساوية الذكر الجميل على ممر الدهور ، فلذلك أبدوها ببناء هذه القنطرة ، فتسميتها بهذا الاسم للتذكار وبقاء الآثار .

ونهر السين يشق «باريس» نحو فرسخين . وعرضه فيها مختلف ؛ فعند القنطرة المتقدمة يكون من الطول مائة وستة وستين مترا .

وقوة سير مياهه المتوسطة عشرون برمقا[1] فى كل ثانية ، أو ألف ومائتان فى كل دقيقة .

(١) البرمق : الإصبع بالتركية .

وسطح أرض «باريس» صنفان فالأول «جبس» والثانى طين ماء نهر «السين» بعد زيادته. وأرضها مركبة من راقات مختلفة، فالراق الأول مزرعة طينية مرملة ذات حصًى الثانى: طفل مختلط بجبس وصدف. الثالث: طفل صوانى. الرابع طفل جيرى صدفى. الخامس: حجر الجير المخلوط بصدف. السادس: البحر الملح. السابع: طين شبيه بالإبليزى الثامن: من طباشير وجير مفحوم طباشيرى.

ثم إن هذه المدينة مشقوقة ومحوطة(١) بصفوف أشجار مرصوصة على سمت الخطوط المتوازية، لا يخرج بعضها عن بعض أبدا، وعلى منوالها بطريق «شبرا» وفى «أبى زعبل» و«جهاد اباد»(٢) وهى مورقة فى أيام الحر يستظل المار بها من حر الشمس، وتسمى «البلوار»(٣) (بضم الباء وسكون اللام) فيوجد فى «باريس» (بلوارات) خارجة كالسور للمدينة و(بلوارات) داخل المدينة، ومحيط (البلوارات) الخارجة أبلغ من خمسة فراسخ ونصف، وعدد (بلوارات) «باريس» اثنان وعشرون (بلوارا)

وفى هذه المدينة عدة فسحات عظيمة تسمى المواضع، يعنى الميادين، كفسحة «الرميلة»(٤) بالقاهرة، فى مجرد الاتساع، لا فى الوساخة. وعددها خمسة وسبعون ميدانا ولهذه المدينة أبواب خارجية برانية كباب النصر بالقاهرة، وهى ثمانية وخمسون بابا وبهذه المدينة أربع قنايات من صنف (ص ٥٢) المسماة عيونا، وثلاثة دواليب لجرى المياه بالنواعير إلا أنها عظيمة، وستة وثمانون صهريجا، ومائة وأربع عشرة حنفية على الطرق.

ومما يدل على عمارة هذه المدينة كون أهلها دائما فى الزيادة البيّنة، وأرضها فى الاتساع، وعماراتها فى التكميل والتحسين، وهمتهم(٥) جميعا فى توسيع دائرتها بالأبنية

---

(١) فى المطبوعة: «ومحتاطة»
(٢) كذا فى المطبوعة وهى أشبه بأن تكون اسم بلد بالهند.
(٣) Pouloir.
(٤) كانت تحت القلعة.
(٥) فى المطبوعة: وهم ثم.

العظيمة ، لإعانة ملوكهم على ذلك برفع عوايد البيوت المستحدثة على التنظيم الجديد مدة من الزمن ، قال الشاعر :

. . . . . . . .

إن البناء إذا تعاظم شأنه  أضحى يدل على عظيم الشان

وبذلك يكثر أهلها ، فان أهلها الآن ، يعنى أهل الاستيطان بها ، فوق مليون من الأنفس . ومحيطها سبعة فراسخ فرنساوية ، ومطايا هذه المدينة ، كغيرها ، من بلاد فرانسا العربات ، إلا أنه يكثر فيهاذلك ويتنوع ، ولاتزال تسمع بها قرقعة العربات ليلا ونهارا بغير انقطاع ، وسيأتى تفصيل ذلك فى غير هذا المحل .

## الفصل الثانى

### ( فى الكلام على أهل باريس)

اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل، ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى الغويصات ، وليسوا مثل النصارى القبطة ، فى أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة ، وليسوا أسراء التقليد أصلا ، بل يحبون دائما معرفة أصل الشئ والاستدلال عليه ، حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة ، ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة ، كل إنسان على قدر حاله ، فليست العوام بهذه البلاد من قبل الأنعام كعوام أكثر البلاد المتبربرة .

وسائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب حتى الصنائع الدنيئة ، فيحتاج الصنائعى بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته ، وكل صاحب فن من الفنون يحب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به ، أو يكمل ماابتدعه غيره . ومما يعينهم على ذلك زيادة عن الكسب حب الرياء والسمعة ودوام الذكر ، فهم يقتدون بقول الشاعر :

لعمرى رأيت المرء بعد زواله    حديثا بما قد كان يأتى ويصنع

(ص ٥٣)  فحيث الفتى لا بد يذكر بعده    فذكراه بالحسنى أجل وأرفع

وقول ابن دريد :

وإنما المرء حديث بعده    فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقيل لإسكندر : لو استكثرت من النساء كثر ولدك ، وطاب بهم ذكرك ، فقال : دوام الذكر فى حسن السيرة والسنن ، ولا يحسن لمن غلب الرجال أن تغلبه النساء .

ومن طباع الفرنساوية التطلع والتولع بسائر الأشياء الجديدة ، وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور ، خصوصا فى أمر الملبس ، فإنه لا قرار له أبدا عندهم ، ولم تقف لهم إلى الآن عادة فى التزيي ، وليس معنى هذا أنهم يغيرون ملبسهم بالكلية ، بل معناه أنهم يتنوعون فيه ، مثلا : لايغيرون لبس ( البرنيطة ) ولا ينتقلون منها إلى العمامة ،

وإنما هم تارة يلبسون ( البرنيطة ) على شكل ، ثم بعد زمن ينتقلون منه إلى شكل آخر ، سواء فى صورتها أو لونها ، وهكذا .

ومن طباعهم المهارة والخفة ، فإن صاحب المقام قد تجده يجرى فى السكة كالصغير ، ومن طباعهم أيضا الطيش والتلون ، فينتقل الإنسان منهم عن الفرح إلى الحزن وبالعكس ، ومن الجد إلى الهزل وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة ، وهذا كله فى الأمور الغير المهمة ، وأما فى الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسات لا تتغير ، كل واحد يدوم على مذهبه ورأيه ، ويؤيده مدة عمره ، ومع كثرة ميلهم إلى أوطانهم يحبون الأسفار ، فقد يمكثون السنين العديدة والمدة المديدة ، طوافين بين المشرق والمغرب ، حتى إنهم قد يلقون أنفسهم فى المهالك ، لمصلحة تعود على أوطانهم ، فكأنهم مصداق قول الحاجرى :

كل المنازل والبلاد عزيزة عندى ولا كمواطنى وبلادى

وقال آخر :

نقّل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ومن خصالهم محبة الغرباء والميل إلى معاشرتهم ، خصوصا إذا كان الغريب متجملا بالثياب النفيسة ، وإنما يحملهم على ذلك الرغبة والتشوف إلى السؤال (ص ٥٤) عن أحوال البلاد ، وعوائد أهلها ، ليظفروا بمقصدهم فى الحضر والسفر ، وقد جرت عادة النفوس إلى الطمع من الدنيا بما لا تظفر به ، كما قال الشاعر :

إن النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر

وليس عندهم المواساة إلا بأقوالهم وأفعالهم ، لا بأموالهم ، إلا أنهم لا يمنعون عن أصحابهم ما يطلبون استعارته لا هبته إلا إذا وثقوا بالمكافأة ، وهم فى الحقيقة أقرب للبخل من الكرم ، وقد ذكرنا علة ذلك فى ترجمتنا «مختصر السير والعوايد فى ذكر الضيافة» وفى الواقع ، حقيقة السبب فى ذلك هو أن الكرم فى العرب .

ومن أصافهم توفيتهم غالبا بالحقوق الواجبة عليهم ، وعدم إهمالهم أشغالهم أبدا ، فإنهم لا يكلون من الأشغال سواء الغنى والفقير ، فكأن لسان حالهم يقول : إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .

ومن المركوز فى طبيعهم حب الرياء والسمعة ، لا الكبر والحقد ، فهم كما يقولون فى مدح أنفسهم : أخلص قلوبا من الغنم عند ذبحها ، وإن كانوا عند الغضب أشد افتراسا من النمور ، فإن الإنسان منهم إذا غضب قد يؤثر الموت على الحياة ؛ فقل أن يفوت زمن يسير من غير أن يقتل إنسان نفسه خصوصا من داء الفقر أو العشق .

ومن طباعهم الغالبة : وفاء الوعد ، وعدم الغدر ، وقلة الخيانة . ومن كلام بعض الحكماء : المواعيد شباك الكرام ، يصطادون بها محامد الأحرار . وقال آخر : كفر النعمة من لؤم الطبيعة ورداءة الديانة . وقال آخر : الشكر وكاء النعمة ، والوفاء به صلاح العقبى . وقيل : وعد الكريم ، ألزم من دين الغريم . وقال بعضهم الخيانات تؤذى الأمانات .

ومن طباعهم الغالبة : الصدق ، ويعتنون كثيرا بالمروءة الإنسانية ، قال بعضهم فى مدحها : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

ومن الصفات التى يقبح وصف الانسان بها عندهم : كفر النعم ، مثل غيرهم . فيرون أن شكر المنعم واجب ، وأظن أن جميع الأمم ترى ذلك ، وإن كانت قد تفقد هذه الصفة عند أفراد ، فهو خروج عن الطبع ، فهى كشفقة الوالد وبر الولد ، فإنهما قد يتخلفان فى بعض الأفراد ، مع أنهما صفتان جبليتان ، عند سائر الأمم والملل .

ومما قيل فى ذلك ، وهو أحسن ما قيل مع ما فيه من الاستطراد :

(ص ٥٥) هب البعث لم يأتنا نذره … وأن لظى النار لم تضرم

أليس بكاف لذى فكرة … حياء المسيء من المنعم

ويقال إن أبا بكر الخوارزمى الشاعر المشهور قصد الصاحب بن عباد فأحسن نزوله وأكرمه وأقام فى نعمته مدة ، ثم حين ارتحاله كتب بيتين وجعلهما فى مكانه حيث يجلس الصاحب وهما :

لا تحمدن ابن عباد وإن هطلت … كفاه بالجود حتى أخجل الديما

فإنها خطرات من وساوسه … يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فلما وقف عليهما الصاحب قال وقد بلغه موت الخوارزمى :

أقول لركب من خراسان أقبلوا … أمات خوارزميكم؟ قيل لى : نعم

فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره : ألا لعن الرحمن من يكفر النعم !

وهذا بخلاف أبي طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى من أولاد المأمون ، وهو شاعر محسن أقبل على الصاحب بن عباد ، فرماه ندماء الصاحب فسقطت منزلته عنده ، فقال قصيدة طلب فيها من الصاحب الإذن بالرحيل ، ومن وداعها قوله :

أسير عنك ولى فى كل جارحة فم يشكرك يحوى منطقا أربا
إنى لأهوى مقامى فى ذراك كما تهوى يمينك فى العافين أن تهبا
لكن لسانى يهوى السير عنك لأن يطبق الأرض مدحا فيك منتخبا
أظننى فت أهلى والأنام همو إذا ترحلت عن مغناك مغتربا

ومن خصالهم أيضا : صرف الأموال فى حظوظ النفس ، والشهوات الشيطانية ، واللهو واللعب ، فإنهم مسرفون غاية السرف .

ثم إن الرجال عندهم عبيد النساء ، وتحت أمرهن سواء كن جميلات(١) أم لا . قال بعضهم : إن النساء عند الهمل معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين ، قال الشاعر :

اعص النساء فتلك الطاعة الحسنه فلن يسود فتى يعطى النسا رسنه
يعقنه عن كثير من فضائله ولو سعى طالبا للعلم ألف سنه

(ص٥٦) ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا أصلا ، مع أن هفواتهن كثيرة معهم ، فإن الانسان ، ولو من أعيانهم ، قد يثبت له فجور زوجته ، فيهجرها بالكلية ، وينفصل عنها مدة العمر . والتفريق بينهما بهذه المثابة يكون عقب إقامة دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رءوس الأشهاد ، تتلوث فيها الذرية بالفضيحة وإن كانت بدون لعان ، ولا تعرض للأولاد . وهذا يقع كثيرا فى العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس المرافعة الخاص والعام . فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغى الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

لا يكن ظنك إلا سيئا بالنسا إن كنت من أهل الفطن
مارمى الانسان فى مهلكة قط إلا ظنه الظن الحسن

(١) المخطوطة : « جمالات » .

ومن كلام بعض العرب العرباء خطابا لزوجته :

إن امرأ غره منكن واحدة ... بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

ومن الأمور المستحسنة فى طباعهم ، الشبيهة حقيقة بطباع العرب : عدم ميلهم إلى الأحداث ، والتشبب فيهم أصلا ، فهذا أمر منسى الذكر عندهم ، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم ، فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس فى جنسه ، فلا يحسن فى اللغة الفرنساوية قول الرجل : عشقت غلاما فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل ، فلذلك إذا ترجم أحدهم كتابا من كتبنا يقلب الكلام إلى وجه آخر ، فيقول فى ترجمة تلك الجملة عشقت غلامة ، أو ذاتا ، ليتخلص من ذلك فإنهم يرون هذا من فساد الأخلاق . والحق معهم . وذلك أن أحد الجنسين له فى غير جنسه خاصة من الخواص يميل بها إليه كخاصة المغناطيس فى جذب الحديد مثلا ، وكخاصة الكهربا فى جذب الأشياء ، ونحو ذلك ، فإذا اتحد الجنس انعدمت الخاصة ، وخرج عن الحالة الطبيعية . وهذا الأمر عندهم من أشد الفواحش ، حتى إنه قلما ذكروه صريحا فى كتبهم بل يكنون عنه بما أمكن ، ولا يسمع التحدث به أصلا ، ويعجبنى قول الشيخ عباس اليمنى :

كلفت بسعدى والرباب وزينب ... ولم أعتبر آس العذار ولامه[1]

(ص ٥٧) ولا اخترت تشبيبا بأمرد مذهبا ... وإن ذم طبعى من يراه ولامه[2]

وما حسنه عندى سوى فى عجاجة ... وحمل فتاة كالشهاب ولامه[3]

ويغشى سعير الحرب ليس يصده ... حنانيك عن ضرب الرقاب ولا مه[4]

ومن خصالهم الرديئة : قلة عفاف كثير من نسائهم كما تقدم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة بمثل المصاحبة والملاعبة والمسايرة . ومما قاله بعض أهل المجون الفرنساوية : لاتغتر بإباء امرأة إذا سألتها قضاء الوطر ، ولا تستدل بذلك على عفافها ، ولكن على كثرة تجربتها . انتهى . كيف والزنا عندهم من العيوب

---

(١) الآس : الريحان . والعذار : الخد ، ولامه : استدارته .

(٢) لام هنا بمعنى : عزل .

(٣) اللام مسهل اللام : جمع لأمة ، وهي الدرع .

(٤) مه : اسم فعل أمر بمعنى اترك .

والرذائل ، لا من الذنوب الأوائل ، خصوصا فى حق غير المتزوج ، فكأن نساءهن مصداق قول بعض الحكماء : لا تغتر بامرأة(١) ، ولا تثق بمال وإن كثر ، وقال آخر : النساء حبائل الشيطان ، وقال الشاعر :

تمتع بها ما ساعفتك ، ولا تكن جزوعا إذا بانت فسوف تبين
فإن هى أعطتك الليان فإنها لآخر من طلابها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها فليس لمخضوب البنان يمين

وبالجملة فهذه المدينة ، كباقى مدن فرانسا وبلاد الافرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والاختلالات ، وإن كانت مدينة « باريس » من أحكم سائر بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، وأثينة الفرنساوية وقد قابلتها فيما تقدم نوع مقابلة بأثينة أى مدينة حكماء اليونان ، ثم رأيت بعض أهل الأدب من الفرنساوية قال ما معناه : إن الباريزيين أشبه الناس بأهل أثينة ، أوهم أثينيو هذا الزمان ، فإن عقولهم رومانية ، وطباعهم يونانية . انتهى.

وقد أسلفنا أن الفرنساوية من الفرق التى تعتبر التحسين والتقبيح العقليين وأقول هنا إنهم ينكرون خوارق العادات ، ويعتقدون أنه لا يمكن تخلف الأمور الطبيعية أصلا ، وأن الأديان إنما جاءت لتدل الانسان على فعل الخير ، واجتناب ضده ، وأن عمارة البلاد وتطرق الناس وتقدمهم فى الآداب والظرافة تسد مسد الأديان ، وأن الممالك العامرة تصنع فيها الأمور السياسية كالأمور الشرعية .

ومن عقائدهم القبيحة قولهم : إن عقول حكمائهم وطبائعيهم أعظم من عقول (ص ٥٨) الأنبياء وأذكى منها .

ولهم كثير من العقائد الشنيعة كإنكار بعضهم القضاء والقدر ، مع أن من الحكم العاقل من يصدق بالقضاء ، ويأخذ بالحزم فى سائر الأشياء وإن كان لا ينبغى للإنسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع ، فإن من الأمثال التى سارت بها الركبان : من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير ، ومن كلام بعضهم إذا وقعت المجادلة فالسكوت أفضل من الكلام ، وإذا وقعت المحاربة فالتدبير أفضل من التقدير .

---

(٢) كذا ، والعبارة تشعر بأنها مبتورة .

ومنهم جماعة يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق ، ونظمهم نظاما عجيبا ، فرغ منه ثم لايزال يلاحظهم بصفة لهتعالى ، تسمى صفة العناية والحفظ ،تتعلق بالممكنات إجمالا ، بمعنى أنها تمنعها عن خلل انتظام الملك . وسنذكر بعض عقائدهم فى غير هذا المحل .

ثم إن لون أهل « باريس » البياض المشرب بالحمرة ، وقل وجود السمرة فى أهلها المتأصلين بها ، وإنما ندر ذلك لأنهم لايزوجون عادة الزنجية للأبيض أو بالعكس ، محافظة على عدم الاختلاط فى اللون ،حتى لايكون عندهم ابن أمة . قال الشاعر :

فى الهند طير ناطق     سبحان مو لى ألهمه
يقول فى تغريده :     ابن الأمه ماألأمه

بل لايعدون أنه قد يكون للزنج جمال أصلا ، بل غيره عندهم من صفات القبح فليس لهم فى المحبة مذهبان ، ولا يحسن عندهم قول الشاعر فى غلام :

لك وجه كأن بنانى خطته     بلفظ تمله آمالى
فيه معنى من البدور ، ولكن     نفضت صبغها عليه الليالى
لم يشنك السواد بل زدت حسنا     إنما يلبس السواد الموالى

بل لسان حالهم دائما ينشد قول الآخر :

ألا إن عندى عاشق السمر غالط     وإن الملاح البيض أبهى وأبهج
وإنى لأهوى كل بيضاء غادة     يضىء لها وجه وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى     ولا شك أن الحق أبيض أبلج

على أنه لايحسن عند الفرنساوية استخدام جارية سوداء فى الطبخ ونحوه ، لما ركز ( ص ٥٩ ) فى أذهانهم أن السود عارون عن النظافة اللازمة .

ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة ،حسان المسايرة والملاطفة ، يتبرجن دائما بالزينة ، ويختلطن مع الرجال فى المنتزهات ، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك الحال ، سواء الأحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الأحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ، وليلة الاثنين فى ( البالات ) والمراقص الآتى ذكرها ، ويحسن قول بعضهم ( شعر ) :

والراقصات وقد مالت ذوائبها　　على خصور كأوساط الزنابير
يخفى الردى سقمها عنا فيفضحها　　عقد البنود[1] وشدات الزنابير

ومما قيل : إن « باريس » جنة النساء ، وأعراف الرجال ، وجحيم الخيل . وذلك أن النساء بها منعمات ، سواء بمالهن أو بجمالهن .

وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء ، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته ، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار أرض «باريس» خصوصا إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة ، فإن ( العربجى ) يجهد خيله ليوصلها إلى مقصدها عاجلا ، فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة .

وحيث إن باريس من بلاد الفرنسيس ، فمعلوم أن لسان أهلها هو اللسان الفرنساوى . ولنذكر هنا نبذة من ذلك فنقول : اعلم أن اللسان الفرنساوى من الافرنجية المستحدثة ، وهو لسان الغلوية يعنى قدماء الفرنسيس ، ثم كمل من اللغة اللاطينية ، وأضيف إليه شىء من اللغة اليونانية النيمساوية ويسير من لغة الصقالبة وغيرها ، ثم حين برع الفرنساوية فى العلوم نقلوا كلمات العلوم من لغات أهلها . وأكثر الكلمات الاصطلاحية يونانية ، حتى كأن لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها ، بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة ، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ، ولا بالمحسنات البديعية اللفظية ، فإنه خال عنها ، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية ، وربما عد مايكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيس ، مثلا لاتكون التورية من المحسنات الجيدة الاستعمال إلا نادرا فإن كانت فهى من هزليات أدبائهم وكذلك مثل الجناس التام والناقص فإنه لامعنى له عندهم وتذهب ظرافة (ص ٦٠) مايترجم لهم من العربية ، ما يكون مزينا بذلك ، مثل قول صاحب البديعية :

من العقيق ومن تذكار ذى سلم　　براعة العين فى استهلالها بدم
ومن أهيل النقا تم النقا وبدا　　تناقص الجسم من ضر ومن ضرم

ولا يمكن أن ينقل إلى لغاتهم ماقلته فى نظم مصطلح الحديث :

صحيح جسمى من فرط الجوى عضلا　　ومرسل الدمع من عينى قد اتصلا
تواترت قصتى فى الناس قاطبة　　حتى لضعفى رثى لى كل من عذلا

---

(١) البند : العلم الكبير ، يريد به الثوب .

تعنعن السحب عن عينى روايتها كما يسلسل عنها القطر إذ هملا
رفعت أمرى إلى قاضى الهوى فأبى وقال : مالى على هذا المليح ولا
ياقلب صبرا على مافيك من علل ولا تشذ ، وتجزع ، واترك المللا
ودع بقية ماأبقاه من رمق لديه ، لاتعتبر تعنيف من عذلا
فذاك لاح وبالتدليس مشتهر وقوله منكر ، زور ، وما قبلا

إلى آخر قولى فيها :

وقفت حبى عليه لايجاوزه وهكذا شأن صب فى الهوى كملا

وسيأتى تتميم الكلام على ذلك . وبالجملة فلكل لسان اصطلاح ، واصطلاح اللغة الفرنساوية تقليل التصريف ما أمكن ، وتصريف الفعل مع فعل آخر . مثلا إذا أراد الإنسان أن يخبر بأنه أكل فإنه يقول : أملك مأكولا ، يعنى لايمكن تصريف ( أكل ) فى بعض أحواله إلا مع فعل الملك أو التلبس ، فكأنه يقول : تلبست بالأكل وإذا أراد أن يقول : خرجت ، يقول : أنا أكون مخرجا ، يعنى : خرجت وهكذا ويسمى فعل الملك ، وفعل الكينونة : فعلين مساعدين ، يعنى أنهما يعينان على تصريف الأفعال ، ويتجردان عن معناهما الأصلى ، وإذا أرادوا تعدية الفعل قالوا : فعلت له الأكل ، يعنى جعلته يأكل ، أو أكلته ، وفعلت له الخروج ، يعنى أخرجته وهكذا . فلا يمكنهم تصريف الأفعال كما يمكن فى اللغة العربية ، فلذلك كانت لغتهم ضيقة من هذه الحيثية ، ثم إن قواعد اللسان الفرنساوى وفن تركيب كلماتها وكتابتها وقراءتها يسمى : ( غرما تيقى ) « واغرمير » ( بتشديد الميم ) عند الفرنسيس ، ومعناه فن تركيب الكلام من لغة من اللغات ، فكأنه يقول : (ص٦١) فن النحو فيدخل فيه سائر مايتعلق باللغة ، كما نقول نحن : علوم العربية : ونريد بها الاثنى عشر علما المجموعة فى قول شيخنا العطار :

نحو وصرف عروض بعده لغة ثم اشتقاق قريض الشعر إنشاء
كذا المعانى بيان الخط قافية تاريخ هذا لعلم العرب إحصاء

وبعضهم زاد البديع ، وآخر استحسن زيادة التجويد وبالجملة فباب الزيادة والنقص فيها مفتوح إذ حصرها وتقسيمها فى ذلك جعلى لاحصرى .

والظاهر أن هذه العلوم جديرة بأن تسمى مباحث علم العربية فقط ، فكيف يكون كل

من الشعر والقريض والقافية علما مستقلا برأسه وكل من النحو والصرف والاشتقاق علما برأسه . وانظر ماالمراد بالتاريخ وبكونه من العلوم العربية مع أن أول من ألف فيه علماء اليونان وأول ماظهر فى هذا الفن كتب «اوميروس» فى واقعة «تروادة» ولم تؤلف فيه العرب إلا فى الأزمنة الأخيرة ، اللهم إلا أن يكون المرادبالتاريخ طريقة إنشاء تواريخ الحوادث السنوية على أسلوب حساب الجمل ، فيكون أيضا تسميته علما من قبيل التوسع فى تعريف العلم . وعلم الخط قديم أيضا فالإفرنج يدخلون هذه المباحث فى علم تركيب الكلام ، بل ويعدون منه المنطق والوضع والمناظرة .

ثم إن اللغة الفرنساوية كغيرها من اللغات الإفرنجية لها اصطلاح خاص بها ، وعليه يتبنى نحوها ، وصرفها ، وعـروضها ، وقوافيها ، وبيانها ، وخطها ، وإنشاؤها ، ومعانيها ، وهذا مايسمى «اغرماتيقى» فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها ، سواء كانت لدفع الخطأ فى القراءة أو الكتابة فيها أو لتحسينها ، فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك ، بل كل لغة من اللغات يوجد فيها ذلك ؛ نعم اللغة العربية أفصح اللغات ، وأعظمها ، وأوسعها ، وأحلاها على السمع ، فحينئذ العالم باللغة اللاطينية يعرف سائر مايتعلق بها ، فله إدراك فى النحو فى حد ذاته وفى غيره كالصرف ، فمن الجهل أن يقال : إنه لايعرف شيئا ، بدليل جهله باللغة العربية ، وإذا تبحر الانسان فى لغة من اللغات كان عالما باللغة الأخرى بالقوة ، يعنى أنه لو ترجم له مافى اللغة الأخرى وعبر له عنه كان قابلا لتلقيه ومقابلته بلغته ، بل ربما كان يعرفه من قبل ، ويعرف زيادة عليه ، ويبحث فيه ، ( ص ٦٢ ) ويبطل منه مالا يقبله العقل ، كيف والعلم هو الملكة وحينئذ فقد لايعرف الانسان المطولات باللغة العربية ، ويعرف ذلك باللغة الفرنساوية لو ترجم له ، على أن كل لغة مخدومة فلها مطولها وأطولها وسعدها (١) نعم ليس كل مائع ماء ، ولا كل سقف سماء . ولا كل بيت بيت الله ، ولا كل محمد رسول الله وكما قال الشاعر :

وهيهات ماكل النسيم حجازيا ولا كل نور يبهج الشرق والغربا

وقال آخر

وماكل مخضوب البنان بثينة ولا كل مسلوب الفؤاد جميل

---

(١) السعد والأطول والمطول شروح وتعليقات وتحقيقات لكتاب الخطيب القزوينى فى علم البلاغة .

فلا شك أن لسان العرب هو أعظم اللغات وأبهج :

وهل ذهب صرف يحاكيه بهرج

ولله در من قال :

يليق الخطاب اليعربى بأهله    فيهدى الوفا للنقص والحسن للقبح
ومن شرف الأعراب أن محمدا    أتى عربى الأصل من عرب فصح
وأن المثانى أنزلت بلسانه    بما خصصته فى الخطاب من المدح

ومع مايتراءى أن الأعجام لاتفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لاأصل له، ومما يدلك على ذلك أنى اجتمعت فى «باريس» بفاضل من فضلاء الفرنساوية شهير فى بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى «البارون سلوستري دساسى» وهو من أكابر «باريس» وأحد أعضاء جملة جمعيات من علماء فرنسا وغيرها ، وقد انتشرت تراجمه فى «باريس» وشاع فضله فى اللغة العربية ، حتى إنه لخص شرحا للمقامات الحريرية ، وسماه مختار الشروح ، وقد تعلم اللغة العربية على ماقيل بقوة فهمه ، وذكاء عقله ، وغزارة علمه ، لابواسطة معلم إلا فى مبدأ أمره ، ولم يحضر مثل الشيخ خالد(١) فضلا عن حضور المغنى(٢) مع أنه يمكنه قراءة المغنى ، كيف وقد درس البيضاوى عدة مرات ، غير أنه حين يقرأ ينطق كالعجم ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب ، فإذا أراد شرح عبارة أغرب فى الألفاظ التى يتعذر عليه تصحيح نطقها . ولنذكر لك خطبته فى شرحه لمقامات الحريرى لتعرف نفسه فى التأليف ، وقلم عبارته ، فإنه بليغ ، وإن كان به يسير من الركاكة ، وسبب ذلك أنه تمكن (ص٦٣) من قواعد الألسن الافرنجية ، فلذلك مالت إليها عبارته فى العربية ، قال فى طالعة شرحه التى حاول فيها الجرى على نهج دينه ودين الإسلام من غير أن يغبن أحدهما :

«بسم الله المبدئ المعيد . الحمد لله العالى المتعالى . الذى له الأسماء الحسنى . ولا يخالط صفاته عز وجل من صفات المخلوق شئ أقصى ولا أدنى . العليم الذى ليس لعلمه نهاية ، والحكم الحكيم الذى حكمه وحكمته وراء كل حد وغاية . لايحصر لاهوت

(١) كتاب إبتدائى فى النحو .
(٢) كتاب للمنتهين فى النحو .

وجوده زمان ومكان . ولا يشوب صفاء جبروته شائبة زيادة ولا نقصان . مسبب الأسباب الذى لا يتحرك فى أطراف الأرض والسماء متحرك إلا بقدرته وإرادته . ولا يتكلم فى أكناف الآفاق متكلم إلا بإلهامه وإفادته . أحمده حمدمن اعترف بتقصير فهمه ، وضعف عقله فهداه برحمته وتوفيقه إلى تحصيل بعض العلوم والفنون . وأشكر له شكر من كان يخبط فى ظلام الجهل فأخرجه برأفته وتأييده إلى فضاء الرشد ونور التمييز حتى عرف الحق اليقين من أباطيل الظنون . ثم أتوسل إليه سبحانه وتعالى بأنبيائه المرسلين . وأوليائه المقربين . الذين كل واحد منهم كالغرة على جبهة الدهر . وكالتاج على مفرق العصر . وأسأله عز وجل أن يجعلنى من عباده المهتدين . الذين أنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، إنه على كل شئ قدير ، وبإجابة هذا الدعاء جدير .

أما بعد : لما فضل الله جنس الناس على سائر المبتدعات بفوائد الأفهام ، واختص بنى آدم من بين أصناف الحيوانات بكرامة الكلام ، بعث فى كل أمة من الأمم من يكون فى تمهيد قواعد البلاغة واستنباط أحكام شريعتها معروفا مشهورا ، ويصير لسالك طريقة الفصاحة إماما ودستورا ، فمن اشتهر بذلك بين الأنام . وصار المشار إليه فى هذا الباب عند أهل الإسلام ، مؤلف المقامات المشهور بالحريرى ، وهو الشيخ الامام أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان البصرى الذى ازدرى من كان قبله من الأدباء والفصحاء ، وأجهد من جاء بعده من الظرفاء والبلغاء ، فإنى لما رأيت أن كتابه المذكور ، لم يزل مذ ألفه إلى يومنا هذا لعلم الأدب كالعلم المشهور ، يحسبه الخاصة والعامة (ص٦٤) واسطة عقده ، وخلاصة نقده ، ويعتقدونه نور مصباحه ، وضياء صباحه ، بل لا يشك أحد منهم أنه أزهار بستانه . وأثمار جنانه . وزلال مائه . ونسيم هوائه ، أحببت أن أشرحه شرحا متوسطا بين الايجاز والتطويل ، أكشف الغطاء عن مشكلاته ومجملاته بالتفسير والتفصيل .

وقد شرح المقامات الحريرية من علماء المشرق والمغرب كثير ، وذكرهم الحاج خليفة فى كتابه المسمى «كشف الظنون ، عن أسامى الكتب والفنون» ، وما وصل يدى إليه من مؤلفاتهم شروح أربعة منها «غريب الايضاح فى غريب المقامات الحريرية»

للإمام برهان الدين أبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزى الخوارزمي المتوفى سنة عشر وستمائة ، وهذا الشرح مع وجازته كتاب مفيد محصل للمقصود .

والمطرزى كانت له معرفة تامة بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، وهو صاحب كتاب « المغرب » تكلم فيه على الألفاظ التي يستعملها الفقهاء من الغريب .

ومنها كتاب «شرح ماغمض من الألفاظ اللغوية ، من المقامات الحريرية» تأليف الشيخ محب الدين عبد الله بن الحسين العكبرى البغدادى المتوفى سنة عشر وستمائة ، قال : إنى رأيت المقامات الحريرية مشحونة بالألفاظ اللغوية ، وهى أحد الكتب التى عنى بها علماء العربية ، ودعانى ذلك إلى تفسير ما غمض من ألفاظها على الإيجاز ، وقد كنت عثرت لبعض الناس على شيء من ذلك إلا أنه أسهب بما لا يحتاج إليه ، وربما فسر اللفظة بغير ما قصد منشئها .

ومنها «شرح المقامات» للأستاذ اللغوى النحوى أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن ابن موسى القسى الشريشى المتوفى سنة تسع عشرة وستمائة وهو شرح طويل ، ذكر الشريشى أنه لم يترك فى كتاب من شروح المقامات فائدة إلا استخرجها ، ولا عائدة إلا استدرجها ، ولا نكتة إلا علقها ، ولا غريبة إلا استلحقها ، حتى صار شرحه تأليفا فى المقامات يغنى عن كل شرح تقدم فيها ، ولا يحوج إلى سواه فى لفظة من ألفاظها ، ولا معنى من معانيها ، وقد أخذ شيئا كثيرا من شرح ابن ظفر الصقلى صاحب كتاب «سلوان المطاع» فى عدوان الأتباع المتوفى بمدينة حماة سنة خمس وستين وخمسمائة .

ومن شرح الفندهجى ، وهو الشيخ الإمام تاج الدين أبو سعيد محمد (ص٦٥) بن سعادات عبد الرحمن بن محمد الخراسانى المروزى الفندهجى ، وقيل : البندهجى ، المتوفى بمدينة دمشق سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ومنها شرح آخر تأليف الشيخ شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي بكر الرازى ، صاحب أسئلة القرآن ، ومختار الصحاح ، المتوفى بعد سنة ستين وستمائة ، وهذا الشرح لم يذكره الحاج خليفة فى كتابه المذكور ، وهو شرح لطيف ، يشهد لصاحبه بكمال الأدب إلا أن النسخة التى هى فى ملكى نسخة ناقصة سقط منها نحو نصف الكتاب حتى لم يبق إلا شرح الخطبة ، ثم شرح المقامة الخامسة والعشرين ، أخذا من قول الحريرى : وإنى والله طالما تلقيت الشتاء بكافاته إلى آخرها ، وشرح مايتلوها من المقامات إلى(١) قوله فى المقامة الخمسين .

(١) فى النسخة المطبوعة ببولاق : « إلا » .

( ولم تزل معتكفا  على القبيح الشنع )

هذا ماكان لى من شروح المقامات ، وقد اجتمع عندى أيضا نسخ ست من كتاب المقامات بلا شرح ، غير أن أكثرها يوجد به من التعليقات والحواشى ماينتفع به القارىء ، وقد اخترت من تلك الشروح والحواشى كل مايحتاج إليه طالب العلم فى تحصيل المقصود ، ويستعين به الراغب فى الأدب ، على إدراك المطلوب ، ثم أضفت إلى ذلك شيئا كثيرا نقلته من كتب أئمة النحو واللغة ، ومن مجمع الأمثال ، للعلامة الميدانى ، وكتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، ثم من ديوان البحترى ، ومن ديوان المتنبى ، وشرح المعلقات للزوزنى ، وغير هذا من كتب الأدب كل ذلك ليتيسر على من أعجبه الغوص فى بحار اللغات العربية أن يظفر من دررها بكل يتيمة عقيلة ، وليسهل على المولع بغرائب العلوم الأدبية المشرقية أن يصل من جواهر معادنها إلى كل فلذة ثمينة جزيلة ، وإنما المرجو ممن نظر فى هذا الشرح المختار أن لايؤاخذنى على ماظهر عليه من العثرات ، بل أن يستر بذيل كرمه مااستبان له من العورات . والله أسأله أن يجعل هذا الكتاب لمن تصفحه من أهل الشرق والغرب نافعا مفيدا . ولجميع من أسرع إلى مورده من أبناء جنسنا ومن غير جنسنا هنيئا مريئا حميدا انتهى كلامه .

وقال فى المقدمة الفرنساوية لهذا الكتاب : إن المقامات البديعية تفضل المقامات (ص٦٦) الحريرية .

وقد ترجم إلى الفرنساوية عدة مقامات من الاثنتين فى مجموعه : كتاب الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد ، وجامع الشذور ، من منظوم ومنثور . وبالجملة فمعرفته خصوصا فى اللغه العربية مشهورة ، مع أنه لايمكنه أن يتكلم بالعربى إلا بغاية الصعوبة . وقد رأيت له فى بعض كتب توقيفات عظيمة ، وإيرادات جليلة ، ومناقضات قوية ، وله اطلاع عظيم على الكتب العلمية المؤلفة فى سائر اللغات ، وسبب ذلك كله تمكنه من لغته بالكلية ، ثم تفرغه بعد ذلك لمعرفة اللغات  شعر :

العلم لايدرك بالتمنى  عليك بالتكرار والتأنى
كم أعجمى ألكن أخن  أدرك بالتكرار كل فن

ومن جملة مؤلفاته الدالة على فضله كتاب فى النحو سماه التحفة السنية ، فى علم العربية

العربية ، فانه ذكر فيه علم النحو على ترتيب عجيب لم يسبق به أبدا ، وله مجموع سماه المختار من كتب أئمة التفسير والعربية فى كشف الغطاء عن غوامض الاصطلاحات النحوية واللغوية ، فقد جمعه وترجمه من العربية إلى الفرنساوية ، وله غير ذلك من المؤلفات والتراجم خصوصا فى اللغة الفارسية ، فانه بارع فيها غاية البراعة ، وشهرته بالفضل فى بلاد الإفرنج لاتنكر ، حتى إنه قد أتحف بعلامات الشرف من كبار ملوكهم. واتساع دائرة هذا الحبر فى معرفة لغات أهل المشرق والمغرب القديمة والحديثة بها يسهل تصديق ماقيل فى حق الفارابى فيلسوف الإسلام : من أنه كان يحسن سبعين لسانا ولنذكر ترجمته هنا مراعاة للنظير ، فنقول :

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركى الفارابى الحكيم الفيلسوف فيلسوف الإسلام الماهر الباهر ، قدم على سيف الدولة بن حمدان ، وكان مجلسه مجمع الفضلاء فى جميع العلوم ، فأدخل عليه ، وهو بزى الأتراك ، وكان ذلك عادته فوقف بين يديه ، فقال له سيف الدولة : اجلس ، فقال : حيث أنت أو حيث أنا ؟ فقال: حيث أنت ، فتخطى رقاب الناس ، حتى انتهى إلى مجلس سيف الدولة وزاحمه فى مسنده حتى أخرجه عنه ، وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان يسارهم به قل أن يعرفه أحد ، فقال لهم بذلك اللسان : إن هذا الشيخ (ص٦٧) قد أساء الأدب ، وإنى مسائله عن أشياء إن لم يعرف بها فأخرجوه ، فقال له أبو نصر بذلك اللسان : أيها الأمير ، اصبر ، فإن الأمور بعواقبها ، فتعجب سيف الدولة منه ، وقال له: أتحسن هذا اللسان ؟ فقال : نعم ، أحسن أكثر من سبعين لسانا ، فعظم عنده ، ثم أخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين فى المجلس فى كل فن ، ولم يزل كلامه يعلو ، وكلامهم يسفل ، حتى صمت الكل وبقى يتكلم وحده ، ثم أخذوا يكتبون مايقول ، فصرفهم سيف الدولة وخلا به ، فقال له : هل لك فى أن تأكل ؟ قال : لا ، قال : فهل تشرب ؟ قال :لا، قال : فهل تسمع ؟ قال : نعم ، فأمر سيف الدولة بإحضار القيان ، فحضر كل ماهر فى هذه الصناعة بأنواع الملاهى . فلم يحرك أحد منهم آلته إلا عابه أبو نصر ، وقال له : أخطأت فقال له سيف الدولة : فهل تحسن فى هذه الصنعة شيئا ؟ قال : نعم ، ثم أخرج من وسطه خريطة ، ففتحها ، وأخرج منها عيدانا فركبها ، ثم لعب بها ، فضحك كل من فى المجلس

ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فبكى كل من فى المجلس ، ثم فكها ، وركبها ، ولعب بها ، فنام كل من فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وخرج ! .

وكان منفردا بنفسه ، لا يجالس الناس ، وكان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالبا إلا عند مجتمع ماء ، أو مشتبك أشجار ورياض ، يؤلف هناك كتبه ، ويتناوبه(١) المشتغلون عليه وكان يلازم غياض السفرجل ، وربما صنف هناك ، وقد ينام ، فتحمل الريح تلك الأوراق ، وتنقلها من مكان إلى مكان . قيل : وهو السبب فى نقص بعض مصنفاته فإنه كان يصنف فى الرقاع دون الكراريس .

وكان أزهد الناس فى الدنيا متقللا منها أجرى عليه سيف الدولة فى كل يوم أربعة دراهم ، ومن شعره :

لما رأيت الزمان نكسا وليس فى الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال وكل رأس به صداع
لزمت بيتى وصنت عرضا به من العزة اقتناع
أشرب مما اقتنيت راحا لها على راحتى شعاع
لى من قواريرها ندامى ومن قراقيرها سماع
وأجتنى من علوم قوم قد أقفرت منهم البقاع

(ص ٦٨) ومنه :

أخى خل حيز ذى باطل وكن بالحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا ولا المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقعـ ـن على نقطة وقع مستوفز
محيط العوالم أولى بنا فماذا التزاحم فى المركز

توفى أبو نصر الفارابى سنة ٣٣٩ من الهجرة .

ثم إن الفنون باللغة الفرنساوية قد بلغت درجة أوجها حتى إن كل علم فيه قاموس مرتب على حروف المعجم فى ألفاظ العلوم الاصطلاحية ، حتى علوم السوقة ، فإنها لها مدارس كمدرسة الطباخة ، يعنى مجلس علماء الطباخة وشعرائها ، وإن كان هذا من

---

(١) فى المطبوعة البولاقية : « ويتنابه » .

أنواع الهوس ، غير أنه يدل على اعتناء هذه البلاد بتحقيق سائر الأشياء ، ولو الدنيئة وسواء فى ذلك الذكور والإناث ، فإن للنساء تآليف عظيمة ومنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها المستغربة ، ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال : جمال المرء عقله ، وجمال المرأة لسانها ، لا يليق بتلك البلاد ، فإنه يسأل فيها عن عقل المرأة وقريحتها وفهمها وعن معرفتها .

ثم العلوم الأدبية الفرنساوية لابأس بها ، ولكن لغتها وأشعارها مبنية على عادة جاهلية اليونان وتأليههم مايستحسنونه ، فيقولون مثلا : إله الجمال ، وإله العشق ، وإله كذا ، فألفاظهم فى بعض الأحيان كفرية صريحة وإن كانوا لايعتقدون مايقولون ، وإنما هذا من باب التمثيل ونحوه . وبالجملة فكثير من الأشعار الفرنساوية لابأس به ، ولنذكر لك شيئا من بعض أشعارهم مترجمة من كلام بعضهم للعبد الفقير :

وإذا القلوب تعلقت رأت الجميع جميلا
كسفينة تسعى إلى شعب يكون مهولا
لهفى على زمن الهنا إن صح كان بخيلا

(ص٦٩) وقوله مترجما لى :

ودع القلب فيك يا قاتلى يا خيال المسعد الزائر
إن روحى بالجراح اصطلت وعلى البرء لست بالقادر
وسرورى فى الهوى لمحة مثل زهر الورق الزاهر

ومن القصيدة المسماة : نظم العقود ، فى كسر العود ، للخواجة يعقوب المصري منشأ ، الفرنساوي استيطانا ، وقد اعتنيت بترجمتها سنة ألف ومائتين واثنين وأربعين ، وأخرجتها من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام قول صاحبها ونظمه للعبد الفقير :

زاد بى الحال إذ صفالى حانى وغنائى بالعود والألحان
باسم ربى والسادة الأعيان وترنمت شجوة بالحسان
وبسعدى ذات الجبين المفدى
فصغى سمعها إلى إنشادى ورمى النار لحظها فى فؤادى

فلهذا شعرى غدا فى اتقاد       وبدا من حماسه فى انفراد
لذوى الفهم والمعارف يهدى
أحرق العشق قلبها كاحتراقى       فأتت تطفئ اللظى بالعناق
فتضاممنا ضمة المشتاق       وتلاثمنا عادة العشاق
فتثنت لتخجل الغصن قدا
شنف السمع من رقيق التغانى       واستمع يا أخى صوت المثانى
يا خليلى بالله هلا ترانى       أننى قدأحييت شعر «ابن هانى»
بعد أن كان قد توسد لحدا

وبعد هذا بعدة أبيات تخلص الشاعر إلى ذم العشق وتوابعه ، فقال :

وا حيائى واخجلتى صار فنى       أننى فى هوى الملاح أغنى
برخيم الغنا كظبى أغن       وبأوتارى أبتدى وأثنى
ما أرى هذا للفضائل أجدى
أفأيامى كلها لى عقيمه       أو مالى عواقب مستقيمه
(ص٧٠) بل على طاعة الهوى مستديمه       أفما هذه مراق ذميمه
أقتنى هزلها وأرفض جدا
أعلى احتساء كأس نصيب .       خامل غير كافل لأريب
مع أنى والله غير مريب       همتى همة الذكى النجيب
تقنص المجد والسوا تتعدى

وقال يذم نفسه ويوبخها على العزم على فراق محبوبته ، لا سيما وهى تتأذى من فراقه :

ويح عز وسؤدد نشتريه       بنواح الملاح إذ نشتهيه
يا فؤادى سل عند أى فقيه       يغفر الذنب من قتال بنيه
لنوال الفخار علك تهدى ؟
يا فؤادى قد أسلمتك الأمورا       وأباحتك متجرا لن يبورا
أفترضى على الظبا أن تجورا       لست ألفيك آسفا مقهورا
حيث قديت قلبها الآن قدا

وهذه القصيدة كغيرها من الأشعار المترجمة من اللغة الفرنساوية عالية النفس فى أصلها، ولكن فى الترجمة تذهب بلاغتها ، فلا تظهر علو نفس صاحبها . ومثل ذلك لطائف القصائد العربية ، فإنه لا يمكن ترجمتها إلى غالب اللغات الافرنجية من غير أن يذهب حسنه ، بل ربما صارت باردة ، وسيأتى تتميم الكلام على غالب (ص٧١) الآداب الفرنساوية والعلوم والفنون .

## الفصل الثالث

### [فى تدبير الدولة الفرنسية]

ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ، ونستوفى غالب أحكامهم ، ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر ، فنقول : قد سلف لنا أن « باريس » هى كرسى بلاد الفرنسيس ، وهى محل إقامة ملك فرنسا وأقاربه وعائلته المسماة « البربون »(بضم الباء الموحدة ، وسكون الراء ، وضم الباء الثانية ) فلا يكون ملك فرانسا إلا من هذه العائلة .

ومملكة الفرنساوية متوارثة ، ومسكن ملك فرنسا (سراية) تسمى ؛ «التولرى» ( بضم التاء وكسر الواو وكسر الراء ) ، والغالب أن الفرنساوية يعبرون عن ديوان فرنسا بقولهم : «كابينة التولرى » يعنى ديوان هذه السراية ، أى ديوان الملك .

ثم إن أصل القوة فى تدبير المملكة لملك فرنسا ، ثم للجماعة أهل « شمبر دوبير(١)» ( بفتح الشين ، وسكون الميم ) يعنى ديوان « البير » ( بفتح الموحدة ) أى أهل المشورة الأولى ، ثم لديوان رسل العمالات ، ثم إن الديوان الأول ، يعنى ديوان « البير » هو فى قصر « بباريس » يسمى قصر « لقسمبورغ » والديوان الثانى فى قصر « بوربون » ، ثم يلى ديوان رسل العمالات ديوان الوزراء والوكلاء ، ثم ديوان يسمى « الديوان الخصوصى » ، وبعد ذلك يوجد ديوان يسمى « ديوان سر الملك »وديوان يسمى«ديوان الدولة للمشورة » فحينئذ ملك فرنسا صاحب قوة تامة فى مملكته بشرط رضاء تلك الدواوين المذكورة ، وله خصوصيات أخر سيأتى ذكرها فى السياسة الفرنساوية .

ووظيفة أهل ديوان « البير » تجديد قانون مفقود ، أو إبقاء قانون موجود على حاله ، ويسمى القانون عند الفرنساوية : شريعة ، فلذلك يقولون: شريعة الملك الفلانى ومن وظيفة ديوان « البير » أن يعضد حقوق تاج المملكة ، ويحامى عنه ، ويمانع

(١) Chamlre des pairs بالفرنسية أى مجلس الأعيان ويلاحظ أن المؤلف استعمل ( de ) وهى للمفرد ، مكان من (des) وهي للجمع .

سائر من يتعرض لها . وانعقاد هذا الديوان يكون مدة معلومة من السنة ، فى زمن اجتماع ديوان رسل العمالات ، بإذن ملك الفرنسيس . وعدد أهل ذلك الديوان غير منحصر فى عدة مخصوصة ، ولا يقبل دخول الإنسان فيه إلا وهو ابن خمس وعشرين سنة ولا يشرك فى الشورى إلا وهو ابن ثلاثين سنة مالم يكن من بيت المملكة ، وإلا فبمجرد ولادته يحسب من أهل هذا (ص٧٢) الديوان ويشرك فى المشورة حين يبلغ عمره خمسا وعشرين سنة .

وكانت وظيفة «البيرية» متوارثة للذكور فيقدم أكبر الأولاد ، ثم بعد موته يقدّم من يليه وهكذا .

ووظيفة ديوان رسل العمالات غير متوارثة ؛ ووظيفتهم امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير والبحث عن إيراد الدولة ومدخولها ومصرفها ، والمنازعة فى ذلك والممانعة عن الرعية فى المكوس والفرد(١) وغيرها ، إبعادا للظلم والجور وهذا الديوان مؤلف من عدة رجال ينصبهم أهالى العمالات وعددهم أربعمائة وثمانية وعشرون رسولا ولا يقبل إلا من يكون سنه أربعين سنة ولا بد أن يكون لكل واحد منهم عقارات تبلغ فردتها ألف فرنك كل سنة . وأما الوزراء فإنهم متعددون ، فمنهم وزير الأمور الداخلية ، ثم وزير الحرب ، ثم وزير الأمور الخارجية ، ثم وزير البحر والخارجين من بلاد الفرنسيس ، النازلين ببلاد يعمرونها ، فى غير بلاد الفرنسيس ، ثم وزير الخزينة ثم وزير الأمور الدينية ، ثم وزير تعليم الفنون والصنائع ، ثم وزير التجارات ووزير الأمور الداخلية نظير (الكتخدا) ببر مصر ، ووزير الخزينة نظير الخازندار ، ووزير التجارات نظير ناظر التجارات ، ووزير الأمور الخارجية نظير رئيس افندى بالدولة العثمانية ، ووزير الحرب نظير ناظر عموم الجهادية ، وهكذا ، غير أنه عندنا ليس وزيرا ، وعندهم يعدونه من الوزراء .

وأما الديوان الخصوصى فإنه تخصيص الملك لجماعة بمشورته إياهم على مادة مخصوصة ، والغالب على أهل هذا الديوان كونهم من أقاربه ووزرائه .

وأما ديوان سر الملك فإنه يتألف من وزراء السر ومن أربعة وزراء أخر ، لهم وزارة مطلقة ثم جماعة من أرباب المشهورة فى الدولة ؛

(١) الفرد جمع الفردة وهى الضريبة ؛ وهى كلمة تستعملها العامة فى مصر إلى وقتنا هذا .

وأما ديوان الدولة فإنه يتألف ممن يعينه الملك من أقاربه من الوزراء التسعة الكاتمين سر الدولة ، ثم من وزراء الدولة المطلقين ، ومن أرباب المشورة ، ومن جماعة وكلاء على التقارير ، ومن جماعة يستمعون المشورة ، ليتعلموا تدبير الدول .

ومن ذلك يتضح لك أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد بحيث إن الحاكم هو الملك بشرط أن يعمل بما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين (ص٧٣) ، وأن ديوان «البير» يمانع عن الملك وديوان رسل العمالات يحامى عن الرعية ، والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساسا لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى : لويز الثامن عشر ( بضم اللام وكسر الواو ) ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم ، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل .

والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة(١) ومعناها فى اللغة اللاطينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وإن كان غالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ، ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل أساس العمران .

ولنذكر هنا نبذة مما قاله فيه العلماء والحكماء أو فى ضده ، من كلام بعضهم : ظلم اليتامى والأيامى مفتاح الفقر . والحلم حجاب الآفات .. وقلوب الرعية خزائن ملكها ، فما أودعه إياها وجده فيها . وقال آخر : لا سلطان إلا برجال ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل . وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم . وقال بعضهم : أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل .. وقيل : إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ، إن المولى إذا كلف عبده ما لا يطيقه فقد أقام عذره فى مخالفته . وقال بعضهم شعرا يفيد أن النصر يتوقف على العدل :

(1) La sharte.

تروم ولاة الجور نصرا على العدا　　وهيهات يلقى النصرَ غيرُ مصيب
وكيف يروم النصر من كان خلفَه　　سهام دعاء من قِسِىِّ قلوب؟

وقال آخر :

لايفلح المختـال والظلوم　　والبغى مرعى نبته وخيم
فمضجع الظالم بئس المضجع　　ومصرع الباغى فبئس المصرع
إن القصاص واقع بالمثل　　والدهر يجرى بيسير الفعل

(ص٧٤) وفى هذا القانون عدة مقاصد: المقصد الأول الحق العام « الفرنساوية . الثانى: كيفية تدبير المملـكة: الثالث: فى منصب ديوان «البير» . الرابع: فى منصب «ديوان رسل العمالات» الذين هم أمناء الرعايا ونوابهم . الخامس : فى منصب الوزراء . السادس: فى طبقات القضاة وحكمهم. السابع: فى حقوق الرعية . قال صاحب الشرطة المذكورة :

## الـكلام على حق الفرنساوية المنصوب لهم

المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة .

المادة الثانية : يعطون من أموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل إنسان على حسب ثروته .

المادة الثالثة : كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان وأى رتبة كانت :

المادة الرابعة : ذات كل واحد منهم يستقل بها ، ويضمن له حريتها ، ف يتعرض له إنسان إلا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة ، وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم .

المادة الخامسة : كل إنسان موجود فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لايشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عبادته .

المادة السادسة : يشترط أن تـكون الدولة على الملة ( القاثو ليقية ) الحوارية الرومانية .

المادة السابعة: تعمير كنائس (القاثوليقية) وغيرهم من النصرانية يدفع له شيء من بيت مال النصرانية ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين .

المادة الثامنة: لايمنع إنسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وأن يكتبه ، ويطبعه بشرط أن لا يضر ما فى القانون فإذا ضر أزيل .

المادة التاسعة: سائر الأملاك والأراضى حرم ، فلايتعدى أحد على ملك آخر.

المادة العاشرة: للدولة دون غيرها أن تكره إنسانا على شراء عقاره لسبب عام النفع ، بشرط أن تدفع ثمن المثل قبل الاستيلاء .

المادة الحادية عشرة : جميع مامضى قبل هذا القانون من الآراء والفتن يجب نسيانه ، وكذلك ماوقع من المحكمة وأهل البلد .

المادة الثانية عشرة : أخذ العساكر يرتب وينقص عما كان عليه وقد يعين بقانون معلوم وضع عساكر فى البر والبحر .

## كيفية تدبير المملكة الفرنساوية

(ص ٧٥) المادة الثالثة عشرة : ذات الملك محترمة ووزراؤه هم الكفلاء فى كل مايقع ، يعنى هم الذين يطالبون ، ويحكم عليهم ، ولا يمكن أن يمضى حكم إلا إذا أنفذه أمر الملك .

المادة الرابعة عشرة : الملك هوأعظم أهل الدولة فهوالذى يأمروينهى فى عساكر البر والبحر وهو الذى يعقد الحرب والصلح والمعاهدة والتجارة بين ملته وغيرها ، وهو الذى يولى المناصب الأصلية ، ويجدد بعض قوانين وسياسات ، ويأمر بما يلزم ، ويمضيه إذا كان فيه منفعة للدولة .

المادة الخامسة عشرة: تدبير أمور المعاملات بفعل الملك وديوان « البير » و« ديوان رسل العمالات » .

المادة السادسة عشرة: يقرر الملك وحده جزاء القوانين ، ويأمر باعلانها وإظهارها .

المادة السابعة عشرة: يبعث القانون بأمر الملك إلى ديوان « البير » أولا ، ثم إلى ديوان رسل العمالات إلا قانون الجبايات والفردة ، فإنه يبعث أولا إلى ديوان رسل العمالات .

المادة الثامنة عشرة : تنفذ الدولة القانون إذا رضى به جمهور كل من الديوانين .

المادة التاسعة عشرة : لأحد الديوانين أن يلتمس من الملك إظهار قانون فى أمر كذا ، وأن يبين له فائدة وضع ذلك القانون .

المادة العشرون : يصنع هذا القانون بأحد الديوانين فى مجلس سرى ، وماصنعه أحد الديوانين واستقر رأيه عليه يبعثه للديوان الآخر بعد التفكر عشرة أيام .

المادة الحادية والعشرون : إذا رضى الديوان الآخر بالقانون فإنه يصوغ عرضه على الملك فإذا طرحه الديوان الآخر لايمكن عرضه له أى لذلك الديوان مدة اجتماعه فى هذه السنة .

الثانية والعشرون : الملك وحده هو الذى يأذن بالقانون ويظهره للرعية .

الثالثة والعشرون : ماهية الملك محدودة له مدة توليته على كيفية واحدة لاتزيد ولا تنقص عن القــدر المعين له عند توليه من مجلس ديوان « البير » يعنى ديوان المشورة الأولى .

الرابعة والعشرون : ديوان « البير » هو جزء ذاتى لتشريع القوانين التدبيرية .

الخامسة والعشرون : يجتمع هذا الديوان ويفتح مدة أشهر بأمر الملك فى زمن واحد مع انفتاح ديوان رسل العمالات فيفتحان معا فى يوم واحد ويغلقان كذلك .

السادسة والعشرون : لو اجتمع ديوان(١) « البير » قبل انفتاح ديوان رسل العمالات أو قبل إذن ملك فرنسا كان سائر (ص٧٦) الترتيب الصادر من هذا المجلس مدة الاجتماع ممنوع الامضاء وملغيا .

السابعة والعشرون : تسمية الشخص « بير فرانسا » هو حق الملك وعدد أهل ديوان « البير » غير محدود للملك أن يعقب « البير » بأى لقب كان ، وله أن يجعل ذلك اللقب له مدة حياته ، وأن يجعله متوارثا لذريته .

الثامنة والعشرون : يمكن أن يدخل « البير » فى الديوان وهو ابن خمس وعشرين سنة ، ولا يبدى رأيه فى المشورة إلا بعد بلوغه فى السن ثلاثين سنة .

---

(١) مجلس الأعيان .

التاسعة والعشرون : رئيس ديوان « البير» هو قاضي قضاة فرنسا مهردارملكها أى وزير خاتم ملكها ، فإن اعتذر خلفه من أهل الديوان من يعينه الملك لذلك .

الثلاثون: أقارب الملك وذراريه يكون لهم الدخول فى مرتبة « البيريه » بمجرد ولادتهم ، ويجلس كل منهم بعد رئيس ذلك الديوان ، ولايكون لهم كلمة ورأى فى المجلس إلا بعد بلوغهم فى السن خمسا وعشرين سنة .

الحادية والثلاثون : لايمكن لأحد من أهل مجلس «البير» أن يدخل فى ذلك الديوان عند انفتاحه إلا بإذن من الملك بأن يبعث رسولا فإن فعلوا [غير] ذلك كان ما فعل بحضرتهم لاغيا.

الثانية والثلاثون : كل آراء ديوان « البير » يجب كتمها عن غيرهم .

الثالثة والثلاثون : ديوان الملك هو الذى يستقل بالقضاء على الخيانة فى الدولة ونحوها من كل ما يضر الدولة مما هو مقرر فى القوانين .

الرابعة والثلاثون : لايمكن أن يقبض أحد على واحد من أهل ديوان «البير» إلا بأمر ذلك الديوان، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم فى مواد الجنايات .

## ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية

الخامسة والثلاثون : ديوان رسل العمالات مؤلف من جملة رسل ينتخبهم المنتخبون ( بكسر الخاء ) الذين يقال لهم « اللكتور » ( بكسر اللام المشددة ، وسكون الكاف ) وترتيبها مصنوع بقوانين مخصوصة .

السادسة والثلاثون : كل العمالات تبقى على ما هى عليه قبل هذه الشرطة من عدد مالها من الرسل .

السابعة والثلاثون: من الآن فصاعدا تختار الرسل لتمكث سبع سنوات لا خمسة، كما كانت .

الثامنة والثلاثون : لايصلح الانسان للدخول فى ديوان الرسل إلا إذا بلغ أربعين سنة ، وكان له أملاك يدفع عليها ألف فرنك فردة .

التاسعة والثلاثون: (ص٧٧) لابد أن يجمع فى كل عمالة خمسون ألف نفس موجود فيهم شرطا السن والملك المذكوران، ليختار الرسل منها ، فإن لم يكمل ممن يدفعون ألف

فرنك خمسون وجب تكميلها من(١) لهم أملاك يدفعون عليها دون ألف فرنك، ثم اختيار الرسل من جملة الخمسين .

الأربعون : شرط « للكتور » أى المنتخب للرسل أن يكون له ملك يدفع فردته ثلثمائة فرنك، وأن يكون قد بلغ من العمر ثلاثين سنة .

الحادية والأربعون: رؤساء مجلس المنتخبين ينصبهم الملك ، فيدخلون فى أهل هذا المجلس .

الثانية والأربعون : يجب أن يكون نصف رسل العمالات فصاعدا مستوطنا عادة فى تلك العمالة .

الثالثة والأربعون : رئيس ديوان رسل العمالات ينصبه الملك ويختاره من خمسة رسل يعرضهم ذلك الديوان .

الرابعة والأربعون : مجالس هذا الديوان تكون جهرية إلا إذا أراد خمسة من رسل العمالات كتم شيء ، فإنه يجوز إخراج الناس الأجانب من الديوان.

الخامسة والأربعون : الديوان ينقسم إلى دواوين صغيرة تسمى « البورو » يعنى مكاتب ، فأهل هذه « البورو » تمتحن الأشياء التى يستحسنها الملك ويبعثها لها .

السادسة والأربعون: لايقع تصليح شيء فى آداب سياسات فرانسا، ولا يمضى إلا إذا رضى به الملك وبحث فيه فى تلك الدواوين الصغيرة

السابعة والأربعون : ديوان رسل العمالات يتلقى تقارير طلب الفرد ، والمكوس ولا تصل إلى ديوان « البير » إلا إذا رضى بها ذلك الديوان .

الثامنة والأربعون: لا يمكن أن ينفذ أمر الملك فى الفرد إلا إذا رضى به الديوانان وأقره الملك .

التاسعة والأربعون : فردة العقار لاتقطع إلا سنة فسنة ، ويمكن قطع غيرها لأجل معلوم

الخمسون : على الملك أن يأمر بفتح الديوانين كل سنة ، ولكن متى أراد، وله أن يبطل ديوان رسل العمالات، بشرط أن يصنع ديوان رسل جديدا، وأن لا يزيد فى تجديد الآخر عن ثلاثة أشهر .

(١) فى المطبوعة : « بما » .

الحادية والخمسون : لايمكن أن يقبض أحد على إنسان من أهل مجلس رسل العمالات مدة فتح الديوان ، وشهرا ونصفا قبل فتحه ، وشهرا ونصفا بعده .

الثانية والخمسون : لا يمكن أن يقبض على أحد من أعضاء الديوان بسبب مادة من مواد العقوبات ، مادام الديوان مفتوحا ، ومادام اجتماع الديوان ، إلا إذا (ص ٧٨) بغت وهو متلبس بالخطيئة أو أذن الديوان بأخذه

الثالثة والخمسون : عرض الحال الذى يعرض على أحد الديوانين لايقبل إلا إذا كان مكتوبا ، وآداب السياسة الفرنساوية لاتجوز أن يقدم الإنسان تقريرا بنفسه فى المجلس .

## الوزراء

المادة الرابعة الخمسون : يجوز أن يكون الوزير من أهل كل من الديوانين ؛ وله زيادة على ذلك حق الحضور فى أحدهما ، ومتى طلب أن يتكلم فى الديوان وجب أن يصغى إلى كلامه .

الخامسة والخمسون : يسوغ لديوان رسل العمالات أن يتهم الوزراء ، فتسمع دعواه فى ديوان « البير » ليحكم بينهم ذلك الديوان فيفصل خصومتهم .

السادسة والخمسون : لايتهم الوزير إلا بخيانة فى التدبير بالرشوة أو باختلاس الأموال ، فيحكم عليه على حسب ما هو مسطر فى القوانين المخصوصة .

## طائفة القضاة

المادة السابعة والخمسون : الحكم حق الملك ، يعتبر كأنه صادر منه ، فيحكم القضاة المنصبون من الملك الذين لهم ماهية من بيت المال ، ويبتّون الحكم باسم الملك .

الثامنة والخمسون : إذا ولى الملك قاضياً وجب إبقاؤه ، ولا يجوز عزله .

التاسعة والخمسون : القضاة المنصبون وقت هذه الشرطة لايمكن عزلهم ولو تجدد قانون آخر .

الستون : إقامة قضاة المعاملات لايمكن إبطالها أبدا .

الحادية والستون : إقامة قضاة المصالحة تبقى أيضا ولكن قاضى المصالحة يجوز عزله ؛ وإن كان منصبه يأتى له من الملك .

الثانية والستون : لاشىء يخرج عن حكم هؤلاء القضاة .

الثالثة والستون : لايسوغ بسبب ماتقدم تجديد محاكم أو مجالس زائدة إلا بجمع قضاة النقباء الذين يقال لهم «برپرتال» إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

الرابعة والستون : إقامة الدعوى والتشاجر بين الخصوم قدام الحاكم الشرعى تكون على رؤوس الأشهاد فى مواد العقوبات ، إلا إذا كان الذنب مضرا إشهاره بين العامة أو مخلا بالحياء ، فان أهل المحكمة يخبرون الناس بأن هذا الأمر يقع سرا .

الخامسة والستون : إقامة (ص٧٩) الجماعة المحكمين المسماة « جورية الجنايات» لاتبطل أبدا ، وإذا لزم تغيير بعض شىء فى مواد القضاة لا يمكن إلا إذا كان بقانون من الديوانين .

السادسة والستون : قانون معاقبة الإنسان بالاستيلاء على ماتملكه يده قد أبطل بالكلية ، ولا يمكن تجديده أبدا .

السابعة والستون : للملك أن يعفو عن الإنسان ، وأن يخفف مواد العقوبات .

الثامنة والستون : كتب قوانين السياسات التى عليها العمل الغير المناقضة لما فى هذه الشرطة لاينسخ حكم مافيها إلا إذا تغير بقانون آخر .

## حقوق الناس التى يضمنها الديوان

المادة التاسعة والستون : كل أهل العسكرية سوى أصحاب خدمة دائمة أو متروكين لوقت الحاجة ، وكل النساء المتوفى عنهن أزواجهن وهم فى العسكرية يبقى لهم مدة حياتهم وظيفتهم ودرجتهم وخرجهم .

السبعون : ديون الرعية التى فى ذمة الديوان هى مضمونة على حسب اصطلاح الدولة مع أرباب الديون .

المادة الحادية والسبعون : لم يفضل لأهل الشرف القديم من درجات الشرف إلا الاسم فقط ، وكذلك لأرباب الشرف الجديد ، ثم لملك فرانسا أن يعطى درجة الشرف الفرنساوى لأى إنسان شاء ، ولكن ليس له أن يخص من يعطيه ذلك برفع الفردة ونحوها عنه ، فليس للشرف مزية غير التسمية .

الثانيةوالسبعون: من له علامة التميز المسماة درجة «الشوالية» يعنى الفارس فى فنه فإن له أن يحفظها على الصورة التى يعينها ملك فرنسا لهذه الدرجة .

الثالثة والسبعون: القبائل والنزلات الخارجة من فرنسا لتعمير بلاد أخرى ، وللاستيطان بها ، تكون مدبرة بقوانين وسياسات أخرى .

الرابعة والسبعون : على كل ملك من ملوك فرنسا أن يحلف عند تولية المملكة الفرنساوية ألا يحيد عن هذه الشرطة .

ثم إن هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل من منذ الفتنة الأخيرة الحاصلة فى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وألف ، بتاريخ الميلاد ، فراجعها فى باب قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواةانتهى ، فإذا تأملت رأيت أغلب مافى هذه الشرطة نفيسا ( ص ٨٠ ) ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض ملاحظات فنقول :

قوله فى المادة الأولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، بمعناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لايختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى إن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإنها لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم ، وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا إلى إجراء الأحكام .

ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم فى الآداب الحضرية .

وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين مايطلق عليه عندنا العدل والانصاف وذلك ، لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين ، بحيث لايجور الحاكم على إنسان ، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة ، فهذه البلاد حرية بقول الشاعر :

وقد ملأ العدل أقطارها      وفيها توالى الصفا والوفا

وبالجملة إذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نسبى إضافى لاعدل كلى حقيقى فإنه لاوجود له الآن فى بلدة من البلدان ، فهو كالايمان الكامل ، والحلال الصرف ،

وأمثال ذلك ونظائره ، فلا معنى لحصر المستحيل فى الغول والعنقاء والخل الوفى : كما هو مذكور فى قوله :

لما رأيت بنى الزمان وما بهم　　خل وفى للشدائد أصطفى
أيقنت أن المستحيل ثلاثة　　الغول والعنقاء والخل الوفى

مع أن ذلك ممنوع فى العنقاء ، فإنها نوع من الطيور ، موجود الأفراد ، يذكر عند أرباب علم الحشائش . وذكر الثعلبى فى قصص الأنبياء قضية العنقاء مع سيدنا سليمان فى تكذيبها بالقدر ، نعم لاوجود للعنقاء بالمعنى المشهور عندالعامة من العرب والإفرنج : من أنها من أعلاها عقاب ومن أسفلها أسد ، وعلى كل حال فلها فى الجملة وجود .

وأما المادة الثانية فإنها محض سياسية ، ويمكن أن يقال : إن ( الفرد ) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام (ص ٨١) كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس ، خصوصا إذا كانت الزكوات والفىء والغنيمة لاتفى بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال مذهب الامام الأعظم . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحكماء : « الخراج عمود الملك » .

ومدة إقامتى بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس و(الفرد) والجبايات أبدا ، ولا يتأثرون ، بحيث إنها تؤخذ بكيفية لاتضر المعطى ، وتنفع بيت مالهم ؛ خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة .

وأما المادة الثالثة فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها أنها تحمل كل إنسان على تعهد تعلمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ، ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل أهل الصين والهند ، ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ، ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فإن شريعة قدماء القبطة كانت تعين لكل إنسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده قيل سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة من مقتضيات الأحوال ، لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع ، لأن الابن يحسن عادة ما رأى أباه يفعله عدة مرات بحضرته ، ولا يكون له طمع فى غيره ، فهذه

العادة كانت تقطع عرق الطمع ، وتجعل كل إنسان راضيا صنعته ، لايتمنى أعلى منها ، بل لايبحث إلا عن اختراع أمور جديدة نافعة لحرفته توصل إلى كمالها انتهى .

ويرد عليه أنه ليس فى كل إنسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا فى هذه الصنعة ، والحال أنه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله ، وبلغ آماله .

وأما المادة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة فإنها نافعة لأهل البلاد والغرباء . فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء . وأما المادة الثامنة فإنها تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر مايخطر بباله ، مما لايضر غيره ، فيعلم الإنسان سائر مافى نفس صاحبه خصوصا الورقات اليومية المسماة «بالجورنالات» و«الكازيطات» الأولى جمع (جرنال) والثانية جمع (كازيطة) فإن الإنسان (ص٨٢) يعرف منها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، أى داخل المملكة أو خارجها ، وإن كان قد يوجد فيها من الكذب مالايحصى ، إلا أنها قد تتضمن أخبارا تشوق نفس الإنسان إلى العلم بها ، على أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، أو تنبيهات مفيدة أو نصائح نافعة ، سواء كانت صادرة من الجليل أو الحقير ، لأنه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم ، كما قال بعضهم : لاتحتقر الرأى الجليل ، يأتيك به الرجل الحقير فان الدرة لايستهان ( بها ) ، لهوان غواصها ، وقال الشاعر :

لما سمعت به سمعت بواحد ورأيته فإذا هو الثقلان
فوجدت كل الصيد فى جوف الفرا ولقيت كل الناس فى إنسان

ومن فوائدها : أن الانسان إذا فعل فعلا عظيما ، أو رديئا ، وكان من الأمور المهمة كتبه أهل (الجورنال) ليكون معلوما للخاص والعام ، لترغيب صاحب العمل الطيب ، وردع صاحب الفعلة الخبيثة ، وكذلك إذا كان الانسان مظلوما من إنسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ، ولا تبديل ، وتصل إلى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر .

وأما المادة التاسعة فإنها عين العدل والإنصاف ، وهى واجبة لضبط جور الأقوياء على الضعاف . وتعقيبها بما فى العاشرة من باب اللياقة الظاهرة ؛ وفى المادة الخامسة عشرة

نـكتة لطيفة، وهى : أن تدبير أمر المعاملات لثلاثة مراتب ، المرتبة الأولى : الملك مع وزرائه ، والثانية : مرتبة«البيرية»المحامية للملك، والثالثة : مرتبة رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية والمحامون عنهم ، حتى لاتظلم من أحد ، وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة على لسانها كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها : وعلى كل حال فهى مانعة لاظلم عن نفسها بنفسها ، وهى آمنة منه بالكلية، ولا يخفى عليك حكمة باقى المواد :

## خلاصة حقوق الفرنساوية الآن بعد سنة ١٨٣١ من الميلاد وتصليح الشرطة

( ص ٨٣ ) حقوق الفرنساوية الواجبة لهم والواجبة عليهم

( مضمون الشرطة بعد التغيير )

الفرنساوية مستوون فى الأحكام على اختلافهم فى العظم والمنصب والشرف والغنى، فإن هذه مزايا لا نفع لها إلا فى الاجتماع الانسانى والتحضر فقط ، لا فى الشريعة فلذلك كان جميعهم يقبل فى المناصب العسكرية والبلدية ، كما أنه يعين الدولة من ماله على قدر حاله .

وقد ضمنت الشريعة لكل إنسان التمتع بحريته الشخصية ، حتى لا يمكن القبض على إنسان إلا فى الصورة المذكورة فى كتب الأحكام ، ومن قبض على إنسان فى صورة غير منصوصة فى الأحكام يعاقب عقوبة شديدة .

ومن الأشياء التى ترتبت على الحرية عند الفرنساوية أن كل إنسان يتبع دينه الذى يختاره يكون تحت حماية الدولة ويعاقب من تعرض لعابد فى عبادته .

ولا يجوز وقف شىء على الكنائس أو إهداء شىء لها إلا بإذن صريح من الدولة .

وكل فرنساوى له أن يبدى رأيه فى مادة السياسات ، أو فى مادة الأديان ، بشرط أن لا يخل بالانتظام المذكور فى كتب الأحكام .

كل الأملاك على الإطلاق حرم لا تهتك ، فلا يكره إنسان أبدا على إعطاء ملكه إلا لمصلحة عامة ، بشرط أخذه قبل التخلية قيمته ، والمحكمة هى التى تحكم بذلك .

كل إنسان عليه أن يعين فى حفظ المملكة العسكرية بشخصه ، بمعنى أنه كل سنة يجمع أولاد إحدى وعشرين سنة لتضرب القرعة ، لأخذ العساكر السنوية منهم ، ومدة الخدمة العسكرية ثمان سنوات ، وكل فرنساوى عمره ثمان عشرة سنة ، وله حقوقه البلدية يمكنه أن يتطوع ويدخل العسكرية .

ويعافى من العسكرية عدة أناس : الأول : من طوله دون متر وخمسة وسبعين (سنتيمترا) يعنى أربعة أقدام وعشرة برامق(١) : الثانى : أصحاب العلل : الثالث الابن أكبر الإخوة الأيتام من أبيهم وأمهم : الرابع. الابن البكرى أو المنفرد أو ابن الابن الأكبر أو المنفرد عند فقده إذا كانت الأم والجدة لا زوج لها أوكان أبوه أعمى أو سنه سبعين سنة : الخامس : البكرى أحد الأخوين اللذين وقعا فى قرعة لـمَّة واحدة . السادس : الأخ الذى أخوه باق تحت البيرق أو مات فى الخدمة أو جرح فى الحرب ، (ص٨٤) ولو أراد إنسان أن ينوب عنه غيره فإن المنوب عنه يضمن النائب سنة من خوف الهرب ، إلا إذا كان الهارب قبض عليه فى السنة أو مات تحت بيرق الفرنساوية ، وفى أحد وعشرين فى شهر (دقمبر)(٢) من كل سنة كل العساكر التى تمت خدمتهم يؤذن لهم بالعود إلى محالهم :

ولما كان لا يمكن لكل إنسان أن يدخل بنفسه فى عمل الدولة ، وكلت الرعية بتمامها عنها فى ذلك أربعمائة وثلاثين وكيلا تبعثها إلى باريس فى المشورة : وهؤلاء الوكلاء تختارهم الرعية وتوكلهم بأن يمانعوا عن حقها ، ويصنعوا ما فيه مصلحة لها ، وذلك أن كل فرنساوى مستكمل للشروط التى منها أن يكون عمره خمسا وعشرين سنة ، له أن يكون ممن له مدخل فى انتخاب رسل عمالاته

وكل فرنساوى له أن يكون رسولا إذا كان عمره ثلاثين سنة ، وكان موصوفا بالشروط المذكورة فى كتاب الأحكام .

وفى كل مأمورية مجمع اختبار وانتخاب ، ومجامع انتخاب للأقاليم الصغيرة : ومجامع المأموريات الكبيرة مؤلفة من المنتخبين الكبار ، وتعين ١٧٢ رسولا ، ومجامع انتخاب الأقاليم الصغيرة تعين ٢٥٨ رسولا ، ودفاتر أرباب الانتخاب تطبع وتكتب فى الطرق شهرا قبل فتح مجامع الانتخاب حتى إنه يمكن لكل إنسان أن يكتب إعلاما به ، وكل منتخب (بكسر الخاء) يكتب رأيه سرا فى ورقة ويعطيها للرئيس مطوية والرئيس يضعها فى إناء القرعة .

---

(١) أصابع .

(٢) هكذا فى المطبوعة ولعله : ديسمبر .

وديوان رسل العمالات يتجدد أهله بالكلية كل خمس سنوات ، ولا يمكن أخذ الفرد إلا بخلاصة من مشورة الديوانين ، مقررة من طرف الملك ، ويمكن لأهل البلدان أن يراسلوا أهل الديوانين بطرق ( العرضحال ) ليشتكوا من شيء ويعرضوا شيئا نافعا .

القضاة لا ينعزلون فلا يحكم على إنسان إلا بقضاة محل استيطانه : والدعاوى تقام جهرا ، وذنوب الجنايات لا يحكم فيها إلا بحضرة جماعة يسمون « الجوريين(١) » والعقوبة بالقبض على الأموال بطلت .

للملك أن يعفو عن المعاقب وأن يخفف العقاب الشديد - على الملك وورثته أن يحلفوا عند ارتقاء الكرسي بأن يعملوا بما فى كتاب قوانين المملكة .

ثم إنه يطول علينا ذكر الأحكام الشرعية أو القانونية المنصوبة عند الفرنساوية ، فلنقل : إن أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب (ص ٨٥) السماوية ، وإنما هى مأخوذة من قوانين أخر غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع ، ويقال لها : الحقوق الفرنساوية ، أى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لأن الحقوق عند الإفرنج مختلفة ، ثم إن بباريس عدة محاكم وفى كل محكمة قاض كبير كأنه قاضى القضاة وحوله رؤساء وأرباب مشورة ، ووكلاء الخصوم ، ومحامون للخصوم ونواب عن المحامين ، وموقع الوقائع .

(شعر)

من ادعى أن له حاجة  تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا  فإنه ضر بلا نفع

(١) يسمون المحلفين والكلمة فرنسية الأصل Jurés .

# الفصل الرابع

[ فى عادة سكنى أهل باريس وما يتبع ذلك ]

من المعلوم أن البلدة أو المدينة تبلغ من الحضارة على قدر معرفتها ، وبعدها عن حالة الخشونة والتوحش ، والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لاينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران . وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف ، فهى أعظم أدبا وعمرانا والبنادر أولى فى العمارات عادة من القرى والضياع . والمدن العظمى أولى من سائر البنادر وتخت المملكة أولى من سائر ماعداها من مدن تلك المملكة فحينئذ لاعجب أن قيل : إن باريس التى هى قاعدة ملك الفرنسيس من أعظم بلاد الإفرنج بناء ، وعمارة ، وإن كانت عماراتها غير جيدة المادة فهى جيدة الهندسة والصناعة ، على أنه ربما يقال أيضا : إن مادتها جيدة إلا أنها ناقصة ، لعدم كثرة حجر الرخام فيها ، ولخلوها عن بعض أشياء أخر ـ كيف لا ؟ وأساس حيطانها من أحجار النحاتة ، وكذلك الحيطان الخارجية ، وأما الداخلية فإنها تتخذ من الخشب الجيد فى الغالب ، وأما عواميدها فهى غالبا من النحاس ، فقل أن كانت من الرخام ، كما أن تبليط الأرض يتخذ من حجر البلاط ، وقد يكون من الرخام الأسود مع البلاط ، وذلك أن الطرق دائما مبلطة بحجر البلاط المربع ، والحيشان مبلطة بالبلاط المذكور ، والقيعان بالآجر أو بالخشب ، أو بالمرمر الأسود مع البلاط المشغول ، وجودة الحجر أو الخشب تختلف باختلاف يسار (ص ٨٦) الإنسان .

ثم إن حيطان الغرفات والأرض من خشب كما تقدم ، وهم يطلونه بالطلاء ، ثم يسترون الحيطان بورق منقوش نقشا نظيفا ، فهو أحسن من عادة تبييض الحيطان بالجير ، فإن الورق لايعود منه شىء على من مس الجدار ، بخلاف الجير ، بل وهو أهون مصرفا وأعظم منظرا وأسهل فعلا خصوصا فى ( أوضاتهم ) المزينة بأنواع من الأمتعة التى لايمكن الإفصاح عنها . غاية مايقال : إن الفرنساوية يحاولون إضعاف نور (الأوض) بوضع الستائر الملونة ، خصوصا الخضراء ، وأرض أوضعهم مبلطة بخشب أو بنوع من القرميد الأحمر ، ويحكون أرض (الأوضة) كل يوم بالشمع الأصفر ، المسمى عندهم شمع الحك ، وعندهم حكاكون بالأجرة معدون لذلك بالخصوص ، وتحت أسرتهم ، المكسوة بالمخيشات وبالمشجرات وغيرها ، سجادات

عظيمة يطؤونها بالنعال ، وفى كل ( أوضة ) مدخنة للنار ، وهى على شكل صفة القلل مرخمة بجيد الرخام ، وفوقهاساعة« بشتختة»(١) وحول الساعة من الجهتين آنية من تقليد الرخام الأبيض ، أو من البلور ، فيها أزهار أو تقليد أزهار ، وحول هذا من الجهتين القناديل الإفرنجية الدولابية التى لايدرك صورتها حيقيقة إلا من رآها موقودة ، وفى غالب (أوضهم) آلات الموسيقى المسماة « البيانو » ( بكسر الباء وضم النون النون ) ، فإذا كانت ( الأوضة ) أوضة شغل وقراءة ففيها طاولة مشتملة على آلات الكتابة وغيرها ، مثل سكاكين قطع الورق المصنوعة من العاج أو البقس(٢) أو غيرهما. وأغلب ( الأوض ) مشحون بالصور ، خصوصا صور الأقارب . وفى ( أوضة ) الشغل أيضا قد توجد صور « عجيبة » وأشياء من غرائب ماكان عند القدماء على اختلافهم .

وربما رأيت على طاولة الشغل أوراق الوقائع على اختلاف أجناسها ، وربما رأيت كذلك فى ( أوض ) الأكابر (النجفات) العظيمة التى توقد بشموع العسل ، وربما رأيت أيضا فى (أوضهم) فى يوم تلقى الناس طاولة وعليها جميع الكتب المستجدة والوقائع وغيرها لتسلية من أراد من الضيوف أن يسرح ناظره ، وينزه خاطره فى قراءة هذه الأشياء ، وهذا يدل على كثرة اهتمام الفرنساوية بقراءة الكتب ، فهى أنسهم .

ومن التوقيعات اللطيفة : الكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا ، ومن لك بروضة (ص٨٧) تقلب فى حجر وبستان يحمل فى كم ، وما أحسن قول بعضهم شعرا :

دفترى مؤنسى وفكرى سميرى ويدى خادمى ، وحلمى ضجيعى
ولسانى سيفى ، وبطشى قريضى ودواتى عيشى ، ودرجى ربيعى

وقال آخر :

لنا جلساء مايمل حديثهم ألباء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم مامضى وعقلا وتأديبا ورأيا مسددا
فإن قلت أموات فما أنت كاذب وإن قلت أحياء فلست مفندا

ومن كلام بعضهم : نعم المحدث الدفتر . ومن كلام بعض الظرفاء : مارأيت باكيا أحسن تبسما من القلم . ثم إن جميع هذه التحف يكمل الأنس بها بحضور سيدة البيت أى زوجة صاحبه التى تحيي الضيوف أصالة ، وزوجها يحييهم بالتبعية ، فأين

---

(١) نوع من المناضد الصغيرة ذات الأدراج .
(٢) اسم لنوع من الأشجار .

هذه (الأوض) بما احتوت عليه من اللطائف من (أوضنا) التى يحيا فيها الإنسان بإعطاء شبق(١) الدخان من يد خادم فى الغالب قبيح اللون .

وأما السقوف فإنها من الخشب النفيس ، ثم إن البيت فى العادة مصنوع من أربع طبقات ، بعضها فوق بعض ماعدا البناء الأراضى فلا يحسب دورا وقد يصل إلى سبعة أدوار ، وغيرها تحت الأرض من المخادع التى تستعمل أيضا لربط الخيل ، أو المطبخ وذخائر البيت ، وخصوصا النبيذ والخشب للوقود .

ثم إن البيت عندهم كما فى بيوت القاهرة ، مشتمل على عدة مساكن مستقلة ففى كل دور من أدوار البيت جملة مساكن ، وكل مسكن متنافذ (الأوضات) ، وقد جرت عادتهم بتقسيم البيوت إلى ثلاث مراتب . المرتبة الأولى : بيت عادى . والثانية : بيت لأحد من الكبار . والثالثة : بيوت الملك وأقاربه ودواوين المشورة ونحوها ، فالأول يسمى : بيتا ، والثانى يسمى : دارا ، والثالث يسمى : قصرا أو (سراية) .

ويمكن أيضا تقسيم البيوت من حيثية أخرى إلى ثلاث مراتب أيضا : المرتبة الأولى : البيوت التى لها حاجب ، ولها باب كبير يسع دخول العربة منه ، والثانية : البيوت التى داخلها دهاليز ولها بواب ، ولا يمكن أن تدخل العربة من بابها ، والثالثة البيوت التى لا بواب لها ، أى لا مكان للبواب فيها يسكن فيه ، ووظيفة البواب (ص ٨٨) فى باريس أن ينتظر الساكن إلى نصف الليل ، فإذا أراد الساكن أن يسهر فى المدينة زيادة عن الليل ، فعليه أن ينبه البواب لينتظره ، ولكن لابد أن يعطيه بعض شىء ، وليس على الحارات بواب أصلا ، وليس لها أبواب كما فى مصر .

ثم إن العقارات بباريس غالية الثمن والكراء ، حتى إن الدار العظيمة قد يبلغ ثمنها مليون فرنك ، يعنى نحو ثلاثة ملايين قروشا مصرية ، ثم إن كراء المساكن فى باريس قد يكون لمجرد المسكن ، وقد يستأجرها الإنسان بفراشها العظيم وجميع أثاثها وآلاتها .

وآلات البيت عند الفرنسيس هى آلات الطباخة والمأكل بأجمعها ، بطقمها المشتمل على الفضيات ونحوها ، وآلة الفراش للنوم ، وهو فى الغالب عدة طراحات

---

(١) الشبق : أنبوبة مجوفة من عود خشبى يثبت فى أحد طرفيها الحجر الذى يوضع فيه التبغ وكانت تستعمل للتدخين فى ذلك العصر .

إحداها من الريش ، وملاية فرشه تتغير كل شهر ، وحرامات الغطاء ، ثم آلات التجمل ،وتلقى الزوار ،وهي الكراسى المكسوة بالحرير المشغول ونحوه والشذلانات(١) المكسوة كذلك ، والكراسى العادية والآلات العظيمة المنظر ، كالساعات الكبيرة المسماة عندهم : « بندول » وكأوانى الأزهار العظيمة ، وغيرها من أوانى القهوة المموهة بالذهب وكالنجفة المعلقة التى تتقد بالشموع المكررة ، وكخزانة الكتب التى لها باب من ( القزاز ) يظهر منه مافيها من الكتب جيدة التجليد ، وكل إنسان له خزنة كتب سواء الغنى أو الفقير حيث إن سائر العامة يكتبون ويقرءون .

والغالب أن الرجل ينام فى ( أوضة ) غير التى تنام فيها زوجته ، إذا تقادم الزواج .

ومن العوائد التى لابأس بها أن قصر ملك فرنسا وقصور أقاربه تنفتح حين خروج السلطان وأقاربه كل سنة إلى الإقامة فى الخلاء مدة أشهر ، فيدخل سائر الناس للفرجة على بيت الملك وأقاربه ، فيرون أثاث البيت وسائر الأشياء الغريبة ، ولكن لايدخل أحد إلا بورقة مطبوعة مكتوب فيها الإذن بدخول شخص أو شخصين أو أكثر ، وهذه الورقة توجد عند كثير من الناس فإذا طلبها الإنسان ممن يعرفه أعطاها له ، فترى فى البيت ازدحاما عظيما للفرجة على جميع مافى حريم الملك وأقاربه ، وقد دخلت ذلك عدة مرات فرأيته من الأمور العجيبة التى ينبغى التفرج عليها ، وفيه كثير من الصور التى لاتمتاز عن الناس إلا بعدم النطق ، وفيه مصور كثير من ملوك فرنسا وغيرهم ، (ص ٨٩) وكل أقارب السلطنة وكل الأشياء الغريبة ، وأغلب الأشياء الموجودة فى حريم السلطنة مستحسنة من جملة جودة صناعتها لا نفاستها بالمادة مثلا سائر الفراش كالكراسى والأسرة حتى كراسى المملكة مشغولة شغلا عظيما بالقصب المخيش ، ومطلية بالذهب إلا أنه لايوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة ، فمبنى أمور الفرنساوية فى جميع أمورهم على التجمل لاعلى الزينة وإظهار الغنى والتفاخر .

ثم سائر الأغنياء « بباريس » يسكنون فى الشتاء فى نفس المدينة وقد أسلفنا فى ذكر طبيعة إقليم « باريس » أن كل بيت به مداخن تتقد فيها النيران فى القيعان ( والأود )

---

(١) التى يسمى واحدها بالشادلون . أى الكرسى الطوال .

وأما فى مدة الحر ، فمن له يسار سكن فى الخلاء ، لأن القصور بالخلاء أسلم هواء من داخل المدينة ، ومن الناس من يسافر فى بعض بلاد فرنسا أو ما جاورها من البلاد ، ليستنشق رائحة البلاد الغريبة ، ويطلع على البلاد ، ويعرف عوائد أهلها . خصوصا فى مدة من السنة تسمى عندهم مدة التعطيل ، أو مدة الفراغ ، يعنى البطالة ، حتى النساء فإنهن يسافرن وحدهن ، أو مع رجل يتفق معهن على السفر ، وينفقن عليه مدة سفره معهن ، لأن النساء أيضا متولعات بحب المعارف والوقوف على أسرار الكائنات والبحث عنها ، أو ليس أنه قد يأتى منهن من بلاد الإفرنج إلى مصر ، ليرى غرائبها من الأهرام والبرابى (١) وغيرها ، فهن كالرجال فى جميع الأمور . نعم قد يوجد منهن بعض نساء غنيات مستورات الحال يمكن من أنفسهن الأجنبى ، وهن غير متزوجات فيشعرن بالحمل ، ويخشين الفضيحة بين الناس ، فيظهرن السفر لمجرد السياحة أو لمقصد آخر ليلدن ، ويضعن المولود عند مرضع بأجرة خاصة ليتربى فى البلاد الغريبة ، ومع هذا الأمر فليس بشائع ، وبالجملة « ما كل بارقة تجود بمائها» فنى نساء الفرنساوية ذوات العرض ، ومنهن من هى بضد ذلك ، وهو الأغلب لاستيلاء فن العشق فى فرنسا على قلوب غالب الناس ذكورا وإناثا وعشقهم معلل ، لأنهم لا يصدقون بأنه يكون لغير ذلك إلا أنه قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج .

ومما يمدح به الفرنساوية نظافة بيوتهن من سائر الأوساخ ، وإن كانت بالنسبة لبيوت أهل (ص ٩٠) الفلمنك كلا شىء فإن أهل الفلمنك أشد جميع الأمم نظافة ظاهرية كما أن أهل مصر فى قديم الزمان كانوا أيضا أعظم أهل الدنيا نظافة ، ولم يقلدهم ذراريهم وهم القبطة فى ذلك .

وكما أن باريس نظيفة فهى خلية أيضا من السميات ، بل ومن الحشرات فلا يسمع بأن إنسانا فيها لدغته عقرب أبدا ، وتعهد الفرنساوية تنظيف بيوتهم وملابسهم أمر عجيب ، وبيوتهم دائما مفرحة بسبب كثرة شبابيكها الموضوعة بالهندسة وضعا عظيما يجلب النور والهواء داخل البيوت وخارجها وظرفات (٢) الشبابيك دائما من ( القزاز ) حتى إذا أغلقت فإن النور لا يحجب أصلا ، وفوقها دائما الستائر : للغنى والفقير ، كما أن ستائر الفرش التى هى نوع من الناموسية غالبة لسائر أهل باريس .

---

(١) المسلات .

(٢) يريد ما يسمى الضرفة : المصراع .

## الفصل الخامس

[ فى أغذية أهل باريس وفى عاداتهم فى المآكل والمشارب ]

اعلم أن قوت أهل المدينة هو الحنطة، وهى فى الغالب صغيرة الحبوب ، إلا إذا كانت منقولة من البلاد الغريبة فيطحنونها فى طواحين الهواء والماء ، ويخبزونها عند الفران فيباع الخبز فى دكانه ، وسائر الناس لها مرتب يومى تشتريه من الخباز ، وعلة ذلك توفير الزمان والاقتصاد فيه لأن سائر الناس مشغولون فى أشغال خاصة ، فصناعة العيش فى البيوت تشغلهم .

ثم إن المحتسب يأمر الخبازين أن يكون عندهم كل يوم من العيش ما يكفى المدينة وفى الحقيقة لا يمكن فقد العيش أبداً بمدينة باريس بل ولا فقد غيره من أمور الأغذية :

وأدمْ أهل هذه المدينة اللحوم والبقول والخضراوات والألبان والبيض وغيرها ، والغالب تعدد الأطعمة ولو عند الفقراء . ثم إن المذابح عندهم تكون بأطراف المدينة لا داخلها ، وحكمة ذلك ان أمر دفع الوخم ، ودفع أضرار البهائم إذا انفلتت. وكيفية الذبح تختلف عندهم ، فأما ذبح الضأن فإنه أهون من ذبح غيره ، فإنهم ينفذون السكين وراء زوره يعنى بين زوره ورقبته ، ثم يقطعونه بعكس ما نفعل . وأما ذبح العجول فإنه مثله . وأما الثيران فيضربونها بمقامع من حديد فى وسط رأسها فيدوخ من عظم الخبط ؛ ثم يكررون ذلك عدة مرات ، فيقطع الثور النفس مع بقاء الحركة ، ثم يذبحونه كما تقدم من ذبح الضأن ، ولقد بعثت خادما لى (ص ٩١) مصريا إلى المذبح ليذبح ما اشترى منه كما هو عادتى ، فلما رأى معاملة الثيران بمثل ذلك الأمر البشع جاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث لم يجعله ثورا فى بلاد الإفرنج ، وإلا لذاق العذاب كالثيران التى رآها ! والعجول والثيران تكون من البقر إذ لا وجود للجواميس بهذه البلاد الإفرنجة .

وأما ذبح الطيور فإنه على أنواع مختلفة : فمنهم من يصنع فيها كالغنم ، ومنهم من يقطع لسان الطائر ، ومنهم من يخنقه بفتلة خيط ، ومنهم من يذبحه من قفاه إلى غير ذلك .

وأما الأرانب فإنها لا تذبح أبدا ، بل تخنق ليحقن فيها دمها .

وأما ذبح الخنازير فلم أره لأن له مذبحا مخصوصا ، والظاهر أنهم يصنعون بها كالعجول ، ثم من الأمور التى بها راحة للناس بمدينة « باريس » محال الأكل المسماة « الرسطراطور » أى «اللوكنجة»(١) ، فإنها مستوفية لما يجده الإنسان فى بيته بل أعظم ، وقد يجد الإنسان مايطلبه حاضرا ، وفى هذه «الرسطراطور» غرف لطيفة متعددة مستوفية لآلات البيوت ؛ وربما يوجد فيها محال للنوم مفروشة بأعظم الفراش ، وكما يوجد فى « الرسطراطور » أنواع المآكل والمشارب يوجد فيها أنواع الفواكه والنقل .

وعادة الفرنساوية الأكل فى طباق كالطباق العجمية أو الصينية ، لا فى آنية النحاس أبدا ، ويضعون على (السفرة) دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا وملعقة ، والشوكة والملعقة من الفضة ، ويرون أن من النظافة ( أو الشلبنة ) (٢) أن لا يمس الانسان الشيء بيده ، وكل إنسان له طبق قدامه ، بل وكل طعام له طبق ، وقدام الانسان قدح فيصب فيه مايشربه من (قزازة) عظيمة موضوعة على (السفرة) ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر .

وأوانى الشرب دائما من البلور والزجاج ، و على السفرة عدة أوان صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح ، والآخر فيه فلفل ، وفى الثالث خردل إلى آخره .

وبالجملة فآداب سفرتهم وترتيباتها عظيمة جدا ، وابتداء المائدة عندهم (الشوربة) واختتامها الحلويات والفواكه ؛ والغالب فى الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء ، وفى الغالب ، خصوصا لأكابر الناس ، أن يشرب من النبيذ قدر لا يحصل به سكر أصلا فإن السكر عندهم من العيوب والرذائل ، وبعد تمام الطعام ربما شربوا شيئا يسيرا من العرقى ، ثم إنهم مع شربهم (ص٩٢) من هذه الخمور لا يتغزلون بها كثيرا فى أشعارهم ، وليس لهم أسماء كثيرة تدل على الخمرة كما عند العرب أصلا ، فهم يتلذذون بالذات والصفات ، ولا يتخيلون فى ذلك معانى ولا تشبيهات ولا مبالغات ، نعم عندهم كتب مخصوصة متعلقة بالسكارى ، وهى هزليات فى مدح الخمرة ، لا تدخل فى الأدبيات الصحيحة فى شيء أصلا .

ويكثر فى « باريس » شرب الشاى عقب الطعام ، لأنهم يقولون إنه هاضم

(١) يريد (اللوكاندة) : الفندق .

(٢) التظرف .

للطعام ، ومنهم من يشرب القهوة مع السكر ، وفى عوائد أغلب الناس أن يفتتو الخبز فىالقهوة المخلوطة باللبن ، ويتعاطوها فىالصباح ـ وإذا أردت بعض شىء يتعلق بالمأكل والمشرب فراجع فصل المآكل والمشارب فى ترجمتنا «كتاب قلائد المفاخر» ـ .

ثم إن الغالب أن مايقطعه أهل هذه المدينة من المآكل والمشارب كل سنة يكون هذا تقريبه ، فمن الخبز ماتزيد قيمته على خمسة وثلاثين مليونا من الفرنكات ، وتأكل من اللحوم نحو واحد وثمانين ألف ثور ، وأربعمائة وثلاثين ثورا ، ومن البقر نحو ثلاثة عشر ألف بقرة ، ومن الضأن أربعمائة وسبعين ألف كبش ، ومن الخنازير الوحشية والأهلية نحو مائة ألف خنزير ، ومن السمن بنحو عشرة ملايين من الفرنكات ، ومن البيض بنحو خمسة آلاف فرنك .

ومن غرائب الأشياء أن فيها التحيل على عدم عفونة الأشياء التى من شأنها العفونة ، فمن ذلك ادخار اللبن بكيفية خاصة خمس سنين من غير تغير ، وادخار اللحم طريا عشر سنوات ، وادخار الفواكه لوجودها فى غير أوانها . ومع كثرة تفننهم فى الأطعمة والفطورات ونحوها ، فطعامهم على الإطلاق عديم اللذة ، ولا حلاوة صادقة فى فواكه هـذه المدينة إلا فى الخوخ .

وأما خماراتها فإنها لاتحصى ، فما من حارة إلا وهى مشحونة بهذه الخمارات ، ولا يجتمع فيها إلا أراذل الناس وحرافيشهم مع نسائهم ، ويكثرون الصياح وهم خارجون منها بقولهم مامعناه : الشراب ، الشراب ! ومع ذلك فلا يقع منهم فى سكرهم أضرار أصلا .

وقد اتفق لى ذات يوم وأنا مار فى طريق فى « باريس » أن سكران صاح قائلا : ياتركى ، ياتركى ، وقبض بثيابى ، وكنت قريبا من دكان يباع فيه السكر ونحوه ، فدخلت معه ، وأجلسته على كرسى ، وقلت لرب الحانوت على سبيل (ص٩٣) المزح هل تريد أن تعطينى بثمن هذا الرجل سكرا أو نقلا ؟ فقال صاحب الحانوت : ليس هنا مثل بلادكم ، يجوز التصرف فى النوع الإنسانى ! فما كان جوابى له إلا أننى قلت : إن هذا الشخص السكران ليس فى هذا الحال من قبيل الآدميين . وهـذا كله والرجل جالس على الكرسى ، ولا يشعر بشىء ، ثم تركته بهذا المحل وذهبت .

# الفصل السادس

## [ فى ملابس الفرنسيس ]

من المعروف عندنا أن غطاء رأس الإفرنج (البرنيطة)، وأن نعالهم فى الأكثر الصرم السوداء، و (التاسومات) : وأن لباسهم فى الغالب هو الجوخ الأسود، وأما الفرنساوية فإنها فى الغالب أيضا على هذا الملبس إلا أنهم لا يلزمون ملبسا خاصا ، بل كل إنسان يلبس باختياره ما تأذن له العادة بلبسه ، والغالب أن لبسهم ليس له زينة ، وإنما هو فى غاية النظافة . ومن العوائد العظيمة : انتشار لبس القمصان والألبسة والصديريات تحت ملابسهم، فإن الموسر يغير فى الأسبوع عدة مرات، وبهذا يستعينون على قطع عرق (الواغش) (١) فلذلك كان لا أثر للقمل ونحوه إلا عند من اشتد به الفقر .

وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة، خصوصا إذا تزين بأغلى ما عليهن ، ولكن ليس لهن كثير من الحلى فإن حليهن هو الحلق المذهب فى آذانهن ، ونوع من الأساور الذهب يلبسنه فى أيديهن خارج الأكمام ، وعقد خفيف فى أجيادهن ، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدا ، ولبسهن فى العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو (الشيت) أو (البفت) الخفيف، ولهن فى البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن، ويرخين طرفيه كالمآزر ، حتى يصل بطرفيه إلى قرب القدمين .

ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رفيع فوق أثوابهن ، حتى يظهر الخصر نحيفا ويبرز الردف كثيفا . ومما أنشده الحاجرى فى ديوانه ، وإن كان فيه خروج قوله :

ومزنر ياليتنى أستاذه     كيما أفوز بضمة من خصره
القس يسقيه شبيهة خده     والمسلمون بأسرهم فى أسره
فوحقه لولا رشاقة قده     مارق إسلامى لشدة كفره

(ص٩٤) ومن العجائب أنه يمكن الانسان أن يضع فى الخصر وقت الحزام يديه فترى لدقته .

---

(١) يريد : الحشرات .

ومن خصال النساء أن يشبكن بالحزام قضيبا من صفيح من البطن إلى آخر الصدر ، حتى يكون قوامهن دائما معتدلا لا اعوجاج به ، ولهن كثير من الحيل .

ومن خصالهن التى لا يمكن للإنسان أن لا يستحسنها منهن عدم إرخائهن الشعور ، كعادة نساء العرب ، فإن الفرنسيس يجمعن الشعور فى وسط رؤوسهن ، ويضعن فيه دائما مشطا ونحوه. ومن عوائدهن فى أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية من البدن ، فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدى ، حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهن ، وفى ليالى الرقص يخلعن عن أذرعتهن. وبالجملة فلا يعد ذلك من الأمور المخلة عند أهل هذه البلاد ، ولكن لا يمكن لهن أبدا كشف شىء من الرجلين ، بل هن دائما لابسات للشرابات ، الساترة للساقين ، خصوصا فى الخروج إلى الطرق ، وفى الحقيقة سيقانهن غير عظيمة أصلا ، فلا يصلح لهن قول الشاعر :

لم أنسه إذقام يكشف عامدا    عن ساقه كاللؤلؤ البراق
لا تعجبوا إن قام فيه قيامتى    إن القيامة يوم كشف الساق

وملابس الحزن عند الفرنسيس هى علامة حزن تلبس مدة معلومة ، ولها محل معلوم فالرجل يضع علامة الحزن فى ( برنيطته ) مدة معلومة ، والمرأة فى ثيابها والولد على فقد أبيه أو أمه يلبس علامة الحزن ستة أشهر وعلى فقد الجدة أربعة أشهر ونصفا والزوجة على فقد الزوج سنة وستة أسابيع ، وعلى فقد الزوجة ستة أشهر ، وعلى فقد الأخ أو الأخت شهرين ، وعلى فقد الخال ، والخالة ، والعم ، والعمة ثلاثة أسابيع ، وعلى فقد أولاد الأعمام والعمات والأخوال والخالات أسبوعين .

ثم إن ما يباع فى باريس من الجوخ كل سنة بنحو مليون من الفرنكات تقريبا ، ومن الحرير بثلاثة ملايين من الفرنكات ؛ ومن الفراوى بمليون من الفرنكات ، ولعل السبب فى ذلك هو أن الفراوى تشترى من خصوص باريس ، لأهل باريس .

ومن المتداول عند الفرنساوية استعمال الشعور العارية لنحو الأقرع وردىء الشعر ، بل قد يستعملونها فى اللحى والشارب للتقليد ، وقد شاعت عندهم تلك العادة من زمن «لويز الرابع عشر» ملك فرانسا ، حيث إن هذا الملك كان يلبسها ، (ص ٩٥) ولا يخلعها من رأسه أصلا إلا عند النوم ، ولا زالت إلى الآن مستعملة ، لكن للأقرع أو ردىء الشعر ، ومن الغريب أنها تستعمل الآن فى مصر بين نساء القاهرة .

# الفصل السابع

## [ فى متنزهات مدينة باريس]

اعلم أن هؤلاء الخلق حيث إنهم بعد أشغالهم المعتادة المعاشية لاشغل لهم بأمور الطاعات ، فإنهم يقضون حياتهم فى الأمور الدنيوية ، واللهو ، واللعب ، ويتفننون فى ذلك تفننا اعجيبا .

فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى «التياتر»(١) (بكسر التاء المشددة ، وسكون التاء الثانية ) ، «والسبكتاكل»(٢) وهى يلعب فيها تقليد سائر ماوقع ، وفى الحقيقة أن هذه الألعاب هى جد فى صورة هزل ، فإن الإنسان يأخذ منها عبرا عجيبة ، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ، ومدح الأولى ، وذم الثانية ، حتى إن الفرنساوية يقولون : إنها تؤدب أخلاق الإنسان وتهذبها ، فهى وإن كانت مشتملة على المضحكات ، فكم فيها من المبكيات . ومن المكتوب على الستارة التى ترخى بعد فراغ اللعب باللغة اللاطينية مامعناه باللغة العربية : « قد تصلح العوائد باللعب » .

وصورة هذه « التياترات » أنها بيوت عظيمة لها قبة عظيمة ، وفيها عدة أدوار كل دورله ( أود ) موضوعة حول القبة من داخله ، وفى جانب من البيت مقعد متسع يطل عليه من سائر هذه ( الأود ) بحيث أن سائر ما يقع فيه يراه من هو فى داخل البيت ، وهو منور ( بالنجفات ) العظيمة ، وتحت ذلك المقعد محل للآلاتية ، وذلك المقعد يتصل بأروقة فيها سائر آلات اللعب ، وسائر ما يصنع من الأشياء التى تظهر ، وسائر النساء والرجال المعدّة للعب ، ثم إنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، فإذا أرادوا تقليد سلطان مثلا فى سائر ما وقع منه ، وضعوا ذلك المقعد على شكل ( سراية ) وصوروا ذاته ، وأنشدوا أشعاره ، وهلم جرا ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة لتمنع الحاضرين من النظر ، ثم يرفعونها ويبتدئون باللعب ؛ ثم إن النساء اللاعبات ، والرجال يشبهون العوالم فى مصر .

---

(1) Le Théâtre (2) Le spectocle

واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم ، وفصاحة ، وربما كان لهؤلاء الناس كثير من التآليف الأدبية والأشعار ، ولو سمعت ما يحفظه اللاعب من الأشعار (ص٩٦) ومايبديه من التوريات فى اللعب ، وما يجاوب به من التنكيت والتبكيت لتعجبت غاية العجب .

ومن العجائب أنهم فى اللعب يقولون مسائل من العلوم الغريبة والمسائل المشكلة ويتعمقون فى ذلك وقت اللعب ، حتى يظن أنهم من العلماء ، بل الأولاد الصغار التى تلعب ، تذكر شواهد عظيمة من علم الطبيعيات ونحوها ، ثم إنهم يبتدئون اللعب بآلات الموسيقى(١) ، ثم يلعبون مايريدون لعبه ، واللعبة التى تظهر تكتب فى ورقة وتلصق فى حيطان المدينة ، وتكتب فى التذاكر اليومية ليعرفها الخاص والعام وفى الليلة يلعبون اللعبات ، وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة ، فإذا أرادوا مثلا لعب شاه العجم ألبسوا لاعبا لبس ملك العجم ، وأحضروه وأجلسوه على كرسى ؛ وهكذا .

وهذه (السبكتاكلات) يصورون فيها سائر ما يوجد ، حتى إنهم قد يصورون فرق البحر لموسى عليه السلام ، فيصورون البحر ويجعلونه يتماوج حتى يشبه البحر شبها كليا ، وقد رأيت مرة فى الليل أنهم ختموا ( التياتر ) بتصوير شمس وتسييرها ، وتنوير ( التياتر ) بها حتى غلب نور هذه الشمس على نور النجف ، حتى كأن الناس فى الصباح . ولهم أشياء أغرب من هذا ، وبالجملة ( فالتياتر ) عندهم كالمدرسة العامة ، يتعلم فيها العالم والجاهل .

وأعظم ( السبكتاكلات ) فى مدينة باريس المسماة « الأوبرة » ( بضم الهمزة وتشديد الباء المكسورة ، وفتح الراء ) وفيها أعظم ( الآلاتية ) وأهل الرقص ، وفيها الغناء على الآلات والرقص بإشارات كإشارات الأخرس ؛ تدل على أمور عجيبة ، ومنها ( تياتر ) تسمى : « أوبرة لموميك » فيغنى فيها الأشعار المقترحة .

وبها ( تياتر ) تسمى : « التياتر الطليانية » وبها أعظم ( الآلاتية ) ، وفيها تنشد الأشعار المنظومة باللغة الطليانية ، وهذه كلها من (السبكتاكلات) الكبيرة . وفى باريس « سبكتاكلات » أخرى وهى مثل تلك إلا أنها صغيرة .

وهناك أيضا ( سبكتاكلات) يلعبون فيها الخيل والفيلة ونحوها ، ومنها (التياتر) المسماة « تياتر فرنكونى » ( بكسر الفاء وفتح الراء وسكون النون وضم الكاف وكسر النون الثانية ) ، وفيها فيل مشهور بالألعاب الغريبة معلم تعليما عجيبا .

(١) فى المطبوع رسمت « المويسيقى » هكذا كلما ذكرت فى الكتاب .

وكما أن أكبر (التياترات) « الأوبرة » فأصغرها (تياتر) تسمى: تياتر «الكمت» وهى معدة لنزاهة الصغار كالحاوى فى مصر «والكمت» اسم معلم هذه السبكتاكل[1] وكل اللاعبين (ص٩٧) واللاعبات صغار السن ، وهذه (التياتر) يوجد بها كثير من (الشعبثيات) و(السيم(٢)) ونحوها، ولولم تشتمل (التياتر) فى فرانسا على كثير من النزغات الشيطانية لكانت تعد من الفضائل العظيمة الفائدة ، فانظر إلى اللاعبين بها فإنهم يحترزون ما أمكن عن الأمور التى يفتتن بها المخلة بالحياء، ففرق بعيدبينهم وبين عوالم مصر ، وأهل السماع ونحوهم .

ولا أعرف اسما عربيا يليق بمعنى (السبكتاكل) أو (التياتر) غير أن لفظ (سبكتاكل) معناه منظر أومنتزه أو نحو ذلك. ولفظ (تياتر) معناه الأصلى كذلك، ثم سمى بها اللعب ومحله، ويقرب أن يكون نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ، بل الخيالى نوع منها .

وتشتهر عند الترك باسم (كمديه) وهذا الاسم قاصر إلا أن يتوسع فيه ، ولا مانع أن تترجم لفظه (تياتر) أو (سبكتاكل) بلفظة خيالى ، ويتوسع فى معنى هذه الكلمة ، ويقرب من تصوير (السبكتاكل) أو هومنها مواضع، يصور فيها للانسان منظر بلد أوأراض أو نحو ذلك ، فمن ذلك (بانورمه)(٣) وهو محل تنظر فيه فترى المدينة التى تريد تصويرها ، ففى صورة مصر ترى كأنك على منارة السلطان حسن مثلا والرميلة تحتك ، وباقى المدينة ، ومنها (كسمورمه (٤)) ، وفيه صورة بلدة ثم أخرى وهكذا. ومنه (ديورمه(٥)) وفيه صورة دار؛ومنها (أورانورمه(٦)) وفيه صورة الفلك الأعظم ، وسائر مايحتوى عليه مصوراً على مذهب الإفرنج ، فالمتفرج فيه يمكنه أن يطالع علم الفلك، ومنها (أوروبرمه(٧)) وفيه صورة بلاد الإفرنج .

ومن المنتزهات محال الرقص المسماة « البال » وفيه الغناء والرقص؛ وقلّ إن دخلت ليلا فى بيت من بيوت الأكابر إلا وسمعت به الموسيقى والمغنى ؛ ولقد مكثنا مدة لا نفهم لغنائهم معنى أصلا ؛ لعدم معرفتنا بلسانهم ، ولله در من قال فى مثل هذا الأمر :

---

(1) Spectacles.

(٢) هى «الشعبذيات»والشعبثيات : يريد بها ألوان الشعوذة، ويريد بالسيم: ما يشبه خيال الظل .

(3) Panorama (4) Cosmorama

(5) Diorama (6) Uranorama

(7) L' européorama

ولم أفهم معانيها ؛ ولكن شجت كبدى، فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها

( البال ) قسمان : ( بال ) عام ، ويدخله سائر الناس ؛ (كالبال ) فى القهاوى والبساتين ، ( وبال ) خاص ، وهو أن يدعو الإنسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ؛ كالفرح فى مصر ، ( والبال ) دائما مشتمل على الرجال والنساء ، وفيه وقدات عظيمة ، (ص٩٨) وكراسى للجلوس .

والغالب أن الجلوس للنساء ولا يجلس أحد من الرجال إلا إذا اكتفت النساء ؛ وإذا دخلت امرأة على أهل المجلس، ولم يكن ثم كرسى خال قام لها رجل وأجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها ؛ فالأنثى دائما فى المجالس معظمة أكثر من الرجل ، ثم إن الإنسان إذا دخل بيت صاحبه فإنه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ؛ ولو كبر مقامه ما أمكن، فدرجته بعد زوجته أو نساء البيت .

ومن المنتزهات جمعية الناس ، كضمة(١) مصر ، إلا فيها دائما آلات الموسيقى والغناء والرقص ، وبين كل نوبة من الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة . وبالجملة فالموسيقى بالأصالة ، والشراب الخفيف بالتبعية هما حظ هذه المجالس ، كما قال الشاعر :

هل العيش إلا ماء كرم مصفق(٢) ترقرقه فى الكأس ماء غمام
وعود «بنان» حين ساعد شدوه على نغم الأوتار ناى «زنام»(٣)

وقد قلنا إن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودى فى تاريخه المسمى: «مروج الذهب» فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها إلى بعض، فليس كل قوى يعرف المصارعة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم ، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء . وظهر أن الرقص والمصارعة مرجعهما شىء واحد يعرف بالتأمل ، ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس وكأنه نوع من العياقة والشلبنة لا من الفسق ، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين

(١) الضمة : جماعة يسيرون حول العريس ليلة العرس يغنون ويصفقون .
(٢) المصفق : الشراب المحول من إناء إلى آخر ليصفق .
(٣) بنان وزنام : موسيقيان ، والشعر للبحترى فى الخليفة المتوكل .

الحياء ، بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء لأنه لتهييج الشهوات ، وأما فى باريس فإنه نط مخصوص لايشم منه رائحة العهر أبدا . وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ، فإذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية ، وهكذا ، وسواء كان يعرفها أولا ، وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد ولا اثنان . بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشىء واحد ، كما قال الشاعر :

أيا من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لايصبرون على طعام

(ص٩٩) وقد يقع فى الرقص رقصة مخصوصة بأن يرقص الإنسان ويده فى خاصرة من ترقص معه ، وأغلب الأوقات يمسكها بيده . وبالجملة فمس المرأة أيا ما كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى . وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ، ومدحهن عد هذا من الأدب . وصاحبة البيت تحيي أهل المجلس .

ومن النزه : المواسم العامة التى تصنع فى الصيف ، ومبناها على الرقص والآلات ، وتسييب البارود ، ونحو ذلك .

ومن المواسم العامة عندهم أيام تسمى أيام ( الكرنوال ) ، وتسمى عند قبطة مصر أيام الرفاع(١) ، وهى عدة أيام يرخص لسائر الناس فيها سائر التقليدات والتشكلات ، فيتشكل الرجل بشكل امرأة ، والمرأة فى صورة رجل ، ويتراءى (الخواجة) فى صورة راع ونحو ذلك . وبالجملة فيباح سائر مالا يضر براحة المملكة وانتظامها .

ويقول الفرنساوية إن هذه الأيام أيام جنون ، ويدور بهذه البلدة فحل أسمن فحول فرنسا ، فى موكب عظيم مدة أيام الزفر(٢) الثلاثة ، ثم يذبحونه ويعطون لصاحبه ( بخشيشا ) فى نظير تسمينه له حتى يسمن سائر الناس عجولهم .

ومن متنزهات باريس الحدائق العظيمة العامة . ففى باريس نحو أربعة بساتين كبرى يتماشى فيها العام والخاص ، فمنها حديقة ( التولرى )(٣) التى بها قصر الملك ،

---

(١) الأيام السابقة للصيام .
(٢) أكل اللحم ، كما يسمى فى بعض بلاد مصر إلى اليوم .
(3) Jardins des Tuileries

وهى من أعظم المتنزهات ، يدخلها المتجملون من الناس، ويحجز الأسافل من دخولها فكأنها مصداق قول بعض الظرفاء :

لو كنت أملك للرياض صيانة     يوما لما وصل اللئام ترابها

ومنها حديقة تسمى « الشمزليزه »(١)، ومعناه بالعربية: رياض الجنة؛ وهى من أرق المتنزهات وأنضرها،وهى بستان عظيم يبلغ أربعين «إربانا» ، و«الإربان» هوقياس يقرب من الفدان . ومع أن طول طريقها نحو ألف قامة فانها موضوعة بحيث إنك إذا مددت نظرك رأيت طرفها الثانى قدام عينيك . وفى هذه الروضة العظيمة دائما شئ من الملاهى لايمكن حصره . وسائر أشجار هذا البستان متصافة ، متوازية بعضها مع بعض ، رتبت بحيث إنه يوجد مدخل من كل الجهات ، فهو على سمت الخطوط المستقيمة من سائر الجهات . وفى وسط كل جملة من الأشجار يوجد محل مربع ، وهذه الحديقة يتصل أحد جوانبها بنهر الصين، وبينها وبينه (ص ١٠٠) رصيف ، وبجانبها الآخر بيوت بأطراف الخلاء ، وفيها كثير من القهاوى ( الرسطراطورات )(٢)، يعنى بيوت الأكل وفيها سائر أنواع الطعام والشراب ، وهى مجمع الأحباب والأكابر ، وبها كثير من المرامح للخيل ، ويدخل فيها الأكابر بالعربات المزينة ، وفيها عدة آلاف من الكراسى بالأجرة ، يجلس عليها فى زمن الربيع نهارا وفى زمن الصيف ليلا، وأعظم اجتماع الناس فيها يوم الأحد، فانه يوم البطالة عند الفرنساوية . وبالجملة فهذه الحديقة محل المواسم والأفراح العامة والزينات، وبها تتماشى سائر النساء الجميلات(٣) .

ومن المتنزهات المحال المسماة « البلوار » ، وهى الأشجار المتصافة المتوازية،وقد أسلفنا بيانها ، وهى محل يتماشى فيه سائر الناس ، فى سائر الأيام ، وفيه أعظم قهاوى باريس ، وتدور فيه الآلاتية المتنقلون بآلاتهم، وفيه كثير من محال ( التياترات ) . وبه أيضا تدور النساء اللواتى يتعرّفن بالرجال، سيما بالليل، فهو فى جميع الليالى ، وفى ليلة الاثنين ، يحوى كثيرا من الناس ، فترى فيه كل عاشق مع معشوقته ، ذراعه فى ذراعها إلى نصف الليل ، ويصلح هنا قول الشاعر :

---

(1) Chemps– Elysées     (2) Restaurants

(٣) فى المطبوع : الجمالات .

لاتلق إلا بليل من تواصله　　فالشمس نمامة والليل قواد
كم عاشق وظلام الليل يستره　　لاقى الأحبة والواشون رقَّاد

وقال آخر :

أيها الليل طر بغير جناح　　ليس للعين راحة فى الصباح
كيف لاأبغض الصباح وفيه　　بان عنى أولو الوجوه الملاح

ولا يمدح الليل إلا من ترقب فيه وصال محبوبه ، وتفقد فيه نيل مطلوبه ، بخلاف من كثر فيه حرقه ، وزاد أرقه ، وطال سهاده ، وطار رقاده ، فإنه يهوى الصباح ، ليذهب همه ويرتاح ، قال الشاعر :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى　　بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليـل كأن نجومه　　على صفحات الجوشدت بيذبل

وقال آخر :

(ص١٠١) ليلى وليلى نفى نومى اختلافهما　　بالطول والطول ، ياطوبى لو اعتدلا
يجود بالطول ليـلى كلما بخلت　　بالطول ليلى ، وإن جادت به بخلا

وقال من يشكو من الليل :

ياليل طل ، أو لاتطل　　لابد لى أن أسهرك
لو كان عنـدى قمرى　　مابت أرعى قمرك

وقال آخر مثله :

ياليل طل ، ياشوق دم　　إنى على الحالين صابر
لى فيك أجر مجاهـد　　إن صح أن الليل كافر

وهذا أيضا من باب الشكوى .

ومن المتنزهات أيضا سوق تباع فيه الأزهار ، وفى هذا السوق تجد سائر الأشجار والنباتات والأزهار الغريبة النادرة ولو فى غير أوانها ، حتى إن الانسان يمكنه أن يجدد بستانا فى يوم واحد بأن يشترى سائر مايحتاجه ، ثم يزرعه فى يوم . وبالجملة فلا يمكن أن الإنسان يتمتع بهذه المتنزهات إلا بصحة البدن .

## الفصل الثامن

### [ فى سياسة صحة الأبدان بمدينة باريس ]

لما كان من ضروريات الحكمة الاعتناء بحفظ صحة الأبدان ، وكان الإفرنج أحكم الأمم ؛ كثر اعتناؤهم بهذا الفن ، وبتكميل آلاته ووسائطه ، وكانوا أشد الناس مسارعة لما فيه نفع للبدن ، كالحمامات والمحام الباردة المياه ، وترييض الجسم وتعويده على الأمور الشاقة ، كالعوم ، وركوب الخيل ، والألعاب التى يخف بها البدن .

والحمامات فى باريس متنوعة ، وفى الحقيقة هى أنظف من حمامات مصر ، غير أن حمامات مصر أنفع منها وأتقن وأحسن فى الجملة ، وذلك أن الحمام فى مدينة باريس عدة خلوات ، فى كل خلوة مغطس من نحاس يسع الانسان فقط . وفى بعض الخلوات مغطسان ، وليس عندهم مغطس عام كما فى مصر ، ولكن هذه العادة أسلم بالنسبة للعورة ، فانه لاطريقة أن يطلع إنسان على عورة آخر ، حتى إن الخلوة التى فيها مغطسان بين كل مغطس ستارة تمنع أن ينظر الإنسان صاحبه . وليس فى دخول الانسان هذه المغاطس الصغيرة لذة كالدخول فى الحمامات (ص١٠٢) ، ولا يعرق الانسان بها أبدا ، إذ الحرارة لا توجد إلا فى المغطس لا فى الخلوة أبدا وإن كان يمكن أن يوصى الانسان على حمام بالبخار ، فانهم يصنعون له ذلك ولكن بثمن آخر غير الثمن المعتاد .

وفى الحمام صفان من الخلاوى : صف للرجال وصف للنساء ، وكما أنه يوجد حمامات مستقرة يوجد حمامات منقولة ، فاذا طلب الانسان حماما فى بيته ، أوكان مريضا ، أونحو ذلك ، فانهم يحملون إليه فى عربة كالبرميل الماء البارد فى شقة ، والساخن فى أخرى ومعها محم ، فيوضع المحم فى بيت الانسان ، ويملأ من الماء المسخن ، فيغتسل الانسان منه ؛ ثم بعد فراغه يحملونه إلى بيت الحمام .

ومن الحمامات حمام يضع فيه الانسان بعض بدنه لبعض الأمراض ، فيسمى نصف حمام ، والحمامات بباريس كثيرة ، وأشهرها ثلاثون حماما تقريبا ٥

ومن أمور الرياضيات النافعة لصحة البدن مدارس يتعلم فيها علم السباحة ، وهى ثلاثة مكاتب على نهر السين ، ومنها مدارس لتخفيف البدن ، وجعله قابلا للأشياء العجيبة كالبهلوانية ، والمصارعة ، ونحو ذلك .

## الفصل التاسع

[في الكلام على اعتناء باريس بالعلوم الطبية]

اعلم أن مدينة باريس هي أعظم مدن الإفرنج التي يرحل إليها الغرباء، لتعلم العلوم خصوصا العلوم الطبية، وقد ينتقل إليها المرضى من بلاد بعيدة للبحث عن تداويهم فيها، والعلوم الطبية التي تسمى أيضا علم الحكمة هي: علم الطب والجراحة والتشريح وفن (الفيسيولوجيا)(١) ومعرفة داء الانسان من حاله، وسياسة الصحة لحفظها وتطبيب الحيوانات وغير ذلك.

والحكماء في باريس كثيرون جدا، حتى يوجد في كل خط عدة حكماء، بل الطرق مملوءة من الحكماء حتى إن الانسان إذا أصيب في الطريق بداء فانه لابد أن يجد الحكيم حالا؛ لكثرة الحكماء بهذه البلدة.

ووضع المرضى بالنسبة للأطباء مختلف، فمن المرضى من يطلب الطبيب ليزوره عنده، وللحكيم قدر معلوم على كل مرة يأتيها إليه. ومن المرضى من يذهب إلى الطبيب في بيته. وللطبيب ساعات معينة يمكث فيها قصدا في بيته لتلقي الناس. ومن المرضى من ينتقل مدة معينة في بيت يسمى بيت الصحة، معدّ لمن يدفع قدرا معينا في نظير أكله وشربه وسكناه وتطبيب بدنه وخدمته ونحو ذلك.

وفي باريس بيوت حكماء ( ص ١٠٣ ) معدة لمن ابتلى بخلل شيء من عظام البدن، كالاحديداب فانه يدخل بيتا من هذه البيوت للتطبيب، فيقومون بدنه بشيء من علم الحيل، كما إذا كان إنسان مقطوع أحد الأطراف، فانهم يجبرون ذلك بأن يضعوا له من المعدن أو الخشب شيئا في محله.

وفي هذه المدينة أيضا بيوت يدخل فيها النساء الحوامل المشرفات على الولادة، لتلدن فيها وتقضين فيها مدة النفاس. وفي هذه البيوت توجد القوابل وسائر ما يحتاج إليه في الولادة.

---

(1) Physiolegie

ومن المواضع المعدة للمرضى والتى يوجد فيها الأطباء المارستانات العامة ، فتدخلها المرضى للعلاج ولإقامة مدة المرض بلا عوض .

ثم إن الأطباء فى باريس فرقتان : إحداهما أطباء عامة لمطلق الأمراض على تنويعها والأخرى لداءات خاصة . وذلك أن علم الطب متسع جدا ، فقل أن يشتغل إنسان بسائر فروعه ويحققها ، فاحتاج أطباء الفرنساوية إلى أن الطبيب بعد أن يقرأ فروع العلوم الطبية ينبغى له أن يختار منها فنا ليصرف فيه همته ، ويتقوى فيه ويتبحر ، حتى يشتهر ويمتاز عن غيره من الأطباء بتحقيق ذلك الفن ، حتى يجلب إليه من به داء يدخله شىء من ذلك الفن ؛ فلذلك يوجد فى باريس أطباء مثلا لخصوص مرض الرئة ، وأطباء لمرض العين تسمى : « المكحلاتية » وأطباء لأمراض الأذنين ، وأطباء لداء الأنف وتجبيره ، حتى إن من أطباء الأنف من يمكنه بالحيلة أن يرجع الأنف المجدوع صحيحا .

وفى باريس أطباء تستعمل جاذبية المغناطيس الإنسانية ، للاستعانة على مداواة الإنسان . وتفصيل ذلك أن فى باريس جماعة من الطبائعية ، تزعم أنه ثبت عندهم أن بدن الإنسان يشتمل على مادة سيالية ، يعنى جاذبية المغناطيس الإنسانية ، يعنى أن هذه المادة لها خاصية المغناطيس : وتحصل هذه بتقريب اليد عدة مرات ، كالمسح ، فينعس الإنسان ، أوتغيب حواسه ، حتى لا يحس بشىء ، فاذا غاب وكان مريضا بمرض شديد عالجه الحكماء بقطع شىء ، أوبفتح شىء من بدنه من غير أن يشعر بشىء أبدا ؛ وقد جرب ذلك فى قطع ثدى امرأة ، بعد مغناطيسيتها . فمكثت عدة أيام ثم ماتت ، فقال علماء المغناطيسية : إنها ماتت بسبب آخر لا بألم القطع ، فانها عاشت بعده ؛ فالمغناطيسية نافعة لمعالجة الأمراض العصبية .

وفى باريس أيضا حكماء (ص١٠٤) لخصوص مداواة خلل العقل ، أولألم أعضاء التناسل ، أوالحصوة ، ولخصوص الأمراض الجلدية المنفرة وغيرها ، كالجذام والجرب .

وفى باريس أيضا حكماء لتوليد النساء ، فان العادة أيضا فى باريس أن المرأة يولدها رجل حكيم عارف بأمور الولادة .

وبها حكماء لمعالجة البياضة التى تنزل بالعين ، والماء الذى يعميها . وبها حكماء لأوجاع الصدر وداء الفالج الذى هو شلل بعض الأعضاء ، فيداوونه بعلاج يسمى : « الإكمبكتور[1] » ( بكسر الهمزة والكاف ، وسكون الميم ، وضم الباء ، وسكون الكاف ، وضم التاء ) يعنى شكات دبابيس كثيرة دقيقة ، فيخرجون بذلك شيئا من الدم ، ينفع لتخفيف ضرر هذا الداء . وبها حكماء لعلاج اختلال خلقة الإنسان ، وهذا العلاج يسمى : « الأرتوبيدى[2] » ( بضم الهمزة ، وسكون الراء ، وضم التاء ، وكسر الباء ، وسكون الياء ، وفتح الدال ) يعنى فن إصلاح خلل أعضاء الأطفال . فمن الحكماء من يصلح خلل الفم أو الوجه ، ومنهم من يشتغل بتدبير الأعضاء الناقصة لسد خللها بأعضاء أخرى مدبرة .

ثم إن فروع العلوم الطبية كثيرة ، فالمشهور منها فن التشريح ، وفن تمييز أمراض الإنسان من حال طبيعته ، وفن الكيمياء العقاقيرية ، وفن أسباب الأمراض الباطنية الطبية ، وعلم الجراحة الطبية ، ووضع العصابة على الجراح ، والتضميد بالمراهم ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض ظاهرية ، وفن تطبيب ملازم الفراش المبتلى بأمراض باطنية ، وفن معالجة النفساء ، وتوليد الحامل ، وعلم الطبيعة التى تدخل الطب ، وعلم العقاقير والأدوية المفردة أو المركبة ، وصناعة المعالجة ومباشرة المريض .

ومدارس الحكمة بمدينة باريس منافعها شهيرة ، فمنها مدرسة كبيرة تسمى « أكدمة الحكمة السلطانية » وهى ديوان الحكماء السلطانية ، وهى مجعولة لحاجة المملكة الفرنسيسية ، ومباشرة الأمراض العامة الضرر ، كالأمراض الوبائية ، والأمراض التى يعتقد الفرنساوية أنها معدية ، وكمرض فصل البهائم .

ومن وظيفة علماء « أكدمة الحكمة » معالجة سائر الناس بما تجعله المملكة موقوفا على النفع العام ، كإشهار تلقيح البقرى ، لإخراج الجدرى ، وامتحان الأدوية الجديدة ، والأدوية المكتومة ، وامتحان الأدوية المعدنية الأصلية أو المصطنعة ، (ص١٠٥) لإدخالها فى الأدوية . وبالجملة فأهل هذه الجمعية السلطانية أعظم الحكماء الفرنساوية .

---

(1) L' acuponcture

(2) L' orthopédie

ولنذكر هنا بعض مايتعلق بمارستانات باريس فى فصل فعل الخير ، وقد أسلفنا بعض شىء من ذلك فى الفصل السابق .

ولنذكر لك نبذة من فن قانون الصحة ، وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة . وهذه النبذة ترجمتها فى باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها ، لصغر حجمها ، فهى وإن كانت تخرجنا عما نحن بصدده ، إلا أن منفعتها عظيمة ، وثمرتها جسيمة .

## نصيحة الطبيب

المادة الأولى فى وصية صحاح البدن :

لاشك أن الأطباء معتبرون بين الناس لشدة نفعهم عندهم ، ومع ذلك فالأولى الاستغناء عنهم لأنهم رفقاء المرضى فلنحرص على حفظ أنفسنا من أسباب المرض ومن الاحتياج الى الطبية .

والدواء المجرد لمنع الاحتياج اليه هو اعتياد الكد والقناعة ولنذكر لك بعض أمور أخر :

الأول : لا تسكن دار مماسة لمزرعة مرتفعة أو دار غائرة فى الأرض يسيرا ، فإن كلا هذين الوضعين يجعل الدار رطبة ومضرة للصحة فالعافية ولو كانت قوية تذهب فيهما على تداول الأيام .

ارفع أرض بيتك بعض قراريط ، برمل أو حصى ، أو طوب مسحوق ، أو ما أشبه ذلك ، وتجنب البناء فى أرض مماسة لأرض أعلى منها . اجعل منافس الهواء إلى الجنوب الشرقى أى اجعله بين الشرق والجنوب ، فإن ذلك للصحة أسلم من جميع الأوضاع .

الثانى : الهواء المخزون يجلب الحمى المحرقة ، فوسع طاقاتك ليسهل فيها دخول الهواء والنور ، وافتحها فى غالب الأحيان لأن البرد للصحة أوفق من الحر ؛ فأهل الجانب الشمالى حياتهم وصحتهم أبرك من أهل الجنوب والمريض يشفى فى غرفة مفتوحة لسائر الرياح ، وربما هلك لو كان بجانب الحرارة .

الثالث : بركة الماء الراكد إذا اشتد قربها من البيوت فإنه يتصاعد منها أبخرة لاتناسب الصحة ، بل تؤذيها أو ربما قتلت ، وبسبب ذلك ترى بعض البلدان منتنا بالأوباء فاجتنب هذه الأشياء الجالبة للأمراض والأوجاع .

الرابع : السكر (ص ١٠٦) يرعى البدن ويحرقه ، ويسرع بالمشيب ؛ فنصيب من ينهمك على شرب الخمور وغيرها من المسكرات أن يصاب بداء الذبول وبقصر الأجل .

الخامس : من أسباب الأمراض اختلاف الزمن كتعاقب الحو والبرد ، ونزول المطر السريع أو نزوله باردا فى وسط الأيام الحارة ، فأولى مايطرد هـذه الأمراض أن تلبس أزيد مما يقتضيه الفصل ؛ فالبس أثواب الشتاء قبل فراغ الخريف ، ولا تعجل خلعها عند دخول الربيع ، وإذا ابتل بدنك كله بماء بارد فاغتسل بالماء الفاتر ، فإن لم يبتل إلا عضو فقط فاغسله وحده .

السادس : احذر إذا اشتد حرك أن تمكث فى موضع بارد أو تشرب مـاء شديد البرودة ، وإلا فالعرق ينحبس حالا ويتداخل فى الباطن ، ويتسبب عن ذلك داء الخناق وورم الصدر والقولنج (١) المحرق وغـير ذلك ، فإذا نفذ القضاء وابتلى بأحدها ، فالواجب تداركه لعـله يخف فأول ما تحس بمبادىء العلامات فضع القدمين فى ماء هين الحرارة ، وطرّ بالماء الفاتر ظاهر المتألم من الحلق أو الصدر أو البطن واحتقن بالماء الفاتر المخلوط بيسير اللبن وتعاطى (الشوربة) التى صورتها أن تأخذ قبضة من زهر « الخبازى » وتضعها فى إناء خزف مع أوقية ونصف من جيد الخل ورش على الجميع قدح ماء مغلى وغط الإناء ودعها تبرد ، فمتى بردت هذه ( الشوربة ) فصفها بخرقة وذوب فيها أوقيتين من العسل ، فإذا فعلت ذلك فقد غنمت ماحرمت منه الطبيب من الدراهم ، فإن ماتعطيه له منهما ذاهب عن يدك ، وربما كان ذلك الطبيب لايفيدك فى هذا الداء شيئا.

المادة الثانية فى الدلالة على ما يصنع حين أخذ المرض فى الظهور :

اعلم أن كثيرا من الناس باعتقاد فاسد يريد أن يداوى المرضى فيهلكهم ، فأول مايبدو قليل من الحمى أو القىء فلا يجد أحسن من تعريق المريض فيضغطه تحت أغطية ثقيلة ، ويحجب عنه الهواء ويسقيه شوربة الخضراوات الحارة وربما سقاه خمرا حارا أو حلوا ، فهل من الأصحاء من يستطيع حمل ذلك؟ أو ليس أن هذا يمرض من ليس بمريض؟ نعم ، قد يكون العرق به الشفاء لكن حين (ص ١٠٧ ) تكون الأمراض قد صدرت عند انحباسه أو بعد تقايل هذه أو إزالتها بكثرة تعاطى ( الشوربات ) وعلى كل حال فلابد من إدخال الهواء اللين فى موضع المريض : لما أن حاجة الإنسان إلى الهواء كحاجة السمك

(١) القولنج : مرض معوى مولم يعسر معه خروج الثقل والريح .

إلى الماء ، و ( الشوربات ) الحادة تزيد الحرارة التى تهلك المريض وتحرقه وتيبسه ، والخمر هو سم حقيقى فى الحمى ، فعليك بخلاف ذلك من ( الشوربات ) الرطبة الباردة فإنها تذيب الأخلاط المنفسدة وتسهل خروجها وتجفف الحرارة ، وتنظف المعدة ، وبعض الناس يريد أن يرد العافية لذى القئ فيعطيه المرق : فيضاعف ألمه مع أن من الحقيقة المقررة عند أكابر الأطباء أن المريض الذى به خميرة المعدة كلما أعطوه من الأغذية زاد ضعفه ، وهذه الأغذية إذا انفسدت بالأخلاط المعفونة التى تختلط معها فى الجوف تنقلب مرضا جديدا ، فما يتعين فى شفاء المريض هو مايضعف المرض ففى كل عشرين مريضا يموتون فى الأرياف فأكثر من الثلثين يمكن أنه كان يشفى بلاشىء لو كان فى موضع مستور من مضار الرياح ، وكان لا يشرب إلاماء مبردا . ولكن لا مفر من القدر. وأغلب الأمراض الحادة والحميات يتقدمها أيام تشويش كيسير الخدر ، وقلة النشاط وعدم شهية الأكل ويسير ثقل المعدد والتعب وثقل الرأس والنعاس الثقيل ، عديم الراحة غير المصلح القوى بل وثقل الصدر والميل إلى البرودة وتيسر العرق غير المعتاد وانقطاع العرق المعتاد ، وعند ذلك يتيسر تدارك أو تخفيف هذه الأمراض المضرة بأربعة : الأول ترك سائر الأشغال الشاقة والمداومة على الأشغال الهينة. الثانى: تقليل أكل المغذيات او اجتنابها لا سيما ترك اللحم والمرق والبيض والنبيذ . الثالث : إكثارالشرب يعنى أن يشرب كل يوم قزازة فأكثر فى كل نصف ساعة طاسة من الشربة المذكورة فى المادة السابقة أو من الماء الفاتر المخلوط فى كل قزازة إما بخمسة عشر أو بعشرين حبة من الملح المعتاد أو بفنجان خل أو بملاعق من العسل . الرابع : الاحتقان بماء فاتر أو بهذا الدواء وهو أن تأخذ قبضتين من الحشائش أو من زهر الخبازى وتغمرها وترش عليهما نصف ( قزازة ) مـاء مغلى وتصفيها بخرقة وتضيف عليهما ( ص ١٠٨ ) أوقية عسل .

المادة الثالثة: فى الدلالة على مايصنع حين ظهور المرض:

اعلم أنه ينبغى للمريض إذا تلبس بالبرودة ، أو القىء(١) أو الألم أن يلزم الفراش والجلوس ، وأن يتغطى زيادة عن عادته ، وأن يشرب فى كل ربع ساعة فنجانا من مسخن (الشوربة) السابقة ، فلا بأس بتغطية المرضى حال بردهم ، ولكن لابد من تخفيف الغطاء كلما خفت البرودة ، حتى يكون بمجرد انقطاعها ليس عليهم إلا الغطاء المعتاد ثم إن بعض أهالى القرى يعتادون النوم على طراحة مكبوسة ريشا ، ويتغطون بغطاء

(١) فى الأصل: المى .

ثقيل من الزغب ، والحر الصادر عن الريش هو خطر على المحمومين ، لكن لما اعتيد على ذلك يمكن اغتفار هذه العادة فى بعض الأحيان ، إلا فى مدة الحر واشتداد الحمى فليتخذ للنوم طراحات مكبوسة بالقش ، وللغطاء ملاحف أو أكسية أقل خطرا من الريش فهذا هو مايريح المريض .

وينبغى الحذر من تسخين هواء محل المريض ، ومن كثرة الناس ، واللغط ، ومن الكلام معه إلا على قدر الحاجة ، وينبغى فتح طيقانه ، وأقله ربع ساعة فى النهار ، وربع ساعة بالليل ، وينبغى مع فتح الطيقان فتح باب الغرفة ليتجدد الهواء ، ولكن لإبعاد المريض عن جريان الأهوية فلتسحب عليه ستائر فراشه ، أو ليحجب عن الهواء بكيفية أخرى ، وفى زمن الحر ينبغى إبقاء طاقة من الطيقان مفتوحة .

ويحسن أيضا تبخير غرفته بخل مطفى فوق نحو مجرفة حديد محماة .

وينبغى فى الهجير ، والمريض متعب بالهواء الحار ، أن يرش بلاط غرفته ، وأن يوضع فيها فروع غليظة من شجر الصفصاف ونحوه ، تغمس فى إناء فيه ماء ، لتكون مسقية .

وليجتنب المريض تناول الأطعمة المغذية ، ولا يأكل إلا يسيرا من خفيف الثريد المنضج أو الأرز المطبوخ بالماء مع يسير من الملح ، ولا بأس فى الصيف بالأثمار المستوية وفى الشتاء بالتفاح المنضج ، أو البرقوق والإجاص ، بعد تيبيسهما وطبخهما ، فهذه الأثمار إذا أكلت بلا إكثار منها تروى وتبرد وتصلح الصفراء المنفسدة الحارة ، فهى الأغذية اللائقة بالمحموم ، واستعمل الشراب الرطب ، والمبرد الذى ذكرناه سابقا ، ولا بأس أيضا أن تضع فى نحو (قزازة الماء) طاسة من عصير الفواكه (ص ١٠٩) التى ذكرناها قريبا .

وينبغى للمريض أن يشرب كل يوم (قزازتين) من ماء فأكثر ، وأن يتناول فى المرة يسيرا ، ففى كل ربع ساعة يشرب فنجانا مالم ينم . واللائق أن يكون الشراب غير شديد البرودة ، ففى اعتدال الزمن يكون فى مزاج طراوة نسيم الغرفة .

ولو امتنع المريض من حاجة الإنسان جملة أيام ، أو لم يبل بكثرة أو خرج بوله أحمر ، أو خلط فى كلامه ، أو كانت (حمته) قوية ، أو كان وجع رأسه أو كليته شديدا أو كانت بطنه متألمة ، أو كان محتاجا كثيرا إلى النوم فليحتقن كل يوم مرة بالحقنة المركبة مما سبق ذكره فى المادة الثانية ، فالاحتقان شفاء المحموم إلا إذا حدث للمريض العرق النافع فلا يحتقن .

وإذا خف المرض فينبغي الخروج من الفراش فى اليوم ساعة فأكثر ، كما يمكنه ، ولكنه لا أقل من نصف ساعة ، ولا ينبغي ترك فراشه وهو متلبس بالعرق .

ومن المستحسن تصليح فراشه كل يوم ، وتغيير ماعلى بدنه كل يومين ، إذا تيسر ذلك . ومن الضرر البين الحكم بخلاف ذلك ، واعتقاد أنه يخشى على المريض من خروجه من فراشه ، فيتركه فى ثيابه المتسخة . وهذه الثياب لاتقتصر فى أضرارها على إبقاء أصل المرض فقط ، بل تقويه . (ولو) قيل ؛ إن المريض تعبان جدا . وهذه حجة عاطلة ولو سلم أن استعمال ذلك يتعبه درجة فإنه يزيد مابقى من قوته ، ويسرع تخفيف ألمه .

المادة الرابعة : فى معالجة الناقه :

اعلم أنه مادام بالإنسان قليل من الحمى فلا يتناول إلا الأغذية الخفيفة التى بيناها ، فإذا انقطع عرق الحمى فلا بأس أن يتناول غيرها كقليل من اللحم الطرى ، أو السمك ، أو المرقة أو البيض هين النضج ، فهذه الأغذية تصلح القوى بشرط عدم الإكثار فيما يتناول منها ، وإلا فتبطىء الصحة : لأن المعدة الضعيفة من المرض ليست متأهلة إلا ليسير الهضم ، فلو أعطيتها فوق مافى قوتها لم ينهضم سائر مايدخل فيها ، بل ينفسد ، وقوام البدن إنما هو بما تهضمه المعدة لا بما يصل إليها فقط ، فينبغي للناقه أن يكون كالمريض فى تناوله قليلا فى كل مرة ، ولكن فى غالب الأوقات ، وأن لا يتعاطى فى المرة إلا جنسا واحدا من الأطعمة ، وأن لا يكثر من تغيير الأطعمة ، وأن لا يستعجل فى مضغ مايتناوله من الجوامد ، وأن لا يكثر من الشرب ، (ص ١١٠) وخير الشراب هو الماء المخلوط بشىء من الأنبذة .

وليسر على قدر مايستطيع ماشيا أو راكبا عربة أو فرسا ، ومن العبث ترك ركوب الخيل فى هذه الحالة لمن يملك الخيل ، كأغلب أهل الأرياف . وإذا كان السير بعد تناول الطعام كان مقويا لمادة الهضم بخلاف فعله قبل ، فهو ربما يضر الهضم ، وليتناول من قام من المرض يسيرا من الطعام فى المساء ، لأن النوم أريح وأصلح له من الأكل ، ولا يضره عدم قضاء الحاجة كل يوم ، نعم إذا جاوز يومين من غير خروج شىء فليحتقن ثالث يوم ، أو قبله إن علم أن قبض بطنه تتولد عنه الحرارة ، أو الانتفاخ ، أو ضيق الصدر ، أو وجع الرأس ، وينبغي لمن قام من مرضه جديدا ألا يسرع فى العود إلى شغله

فإن لم يصبر إلى تمام عافيته طال ضعفه ، فالاستعجال على الشغل قبل أوانه يعقبه من الخسارة زيادة على ما يؤمل كسبه ، فإن لم يتحفظ على نفسه ، وإلا أصابه مرض الذبول فينبغى حين إرادة الأخذ للمبادى مراقبة العواقب .

المادة الخامسة : فى وصايا عامة على الصحة :

اتخذ القناعة فى الأكل ، فمن لم يقنع لايشبع بل يهلك نفسه. قيل :

« من أرخى على الطعام طويل عنانه ، حفر مقبرته بحدة أسنانه » لاتأكل دون مرتين فى اليوم ، بل لا بأس بثلاثة ، والصغار لهم أن يأكلوا أربع مرات بل خمسا .

لاتنم عقب الأكل ؛ ومدة النوم للسليم ست ساعات أو سبع ، وللضعيف والصغير أطول من ذلك .

تضمحل القوة والعقل ، ويذهب كل منهما باعتياد تطويل النوم .

النظافة نصف الصحة ، فلتكن فى البدن والثوب والمسكن والغذاء والمتاع .

لاتمضغ الدخان ، ولا تنتشق به فكثرة اللعاب الذى يكسبه للطبيعة مضعفة على طول الزمن ، وبه يضيع الريق اللازم فى الهضم ، وينتن النفس ، وتسود الأسنان ، وتنفسد ، وقد شوهد أن كثيرا من الناس اعترته الحماقة بالإكثار من شرب الدخان أو شم النشوق .

إياك والانهماك على تعاطى الخمور والمسكرات سيما أيام الصوم ، وقد توهم أنها تشد القوى ، مع أن القوة المستفادة من تعاطيها تمر فى أدنى زمن ، ويعقبها وهن ، وذلك كما أن النار تذكو إذا أكثرت من نفخها وترعى الوقود سريعا ، ولا تعطى الحرارة إلا درجة .

وأما الفلاحون الذين يشتغلون فى وقت (ص ١١١) الصيف فعليهم تغطية رءوسهم وأن يتداركو أشغالهم .

المادة السادسة : فى معالجات لجملة علل وأمراض :

الأول : الزكام والنزلة . يقال : هذا ليس بشىء ، إن هو إلا زكام أو نزلة . نعم ، نسلم أن الإنسان لا يموت بذلك ، لكن يتسبب عن ذلك حرارة الصدر المهلكة له .

ومن كلام بعض الحكماء الأقدمين : يهلك بالنزلة والزكام أبلغ مما يهلك بالوباء .

وعلاج ذلك : استعمال الشربة المذكورة فى المادة الأولى ، أو تعاطى سلاقة الخمان التى

ربعها أو ثلثها لبن ، وينبغى قبيل النوم وضع الرجلين فى الماء الفاتر ، ولو انحبست البطن تعين الاحتقان . وينبغى الاقتصار على تناول الأطعمة الخفيفة ، وتعاطى اليسير فى المأكل ، ولا بأس بتعاطى بعض طاسات من خفيف مرقة الخشخاش الأحمر . وقد توهم بعضهم أن هذا الداء يذهب بالعرقى المحروق ، أو الخمر المعطر ، أو الحلو ، مع أن هذا كإلقاء الحطب فى النار ، إذ هذه الأشربة أقرب فى تثقيل هذا الداء من إزالته ، أو ليس أن هذا الداء حرارة وهى تزداد بهذه الأشربة .

الثانى : وجع الأسنان إذا كان الوجع ناشئا عن فساد السن فخير علاجه ، كما قيل الكلبتان . فاللائق قلعه ، وإلا دام الوجع ، وفسد غيره من الأسنان ، وربما جر ذلك إلى فساد الحنك ، ولكن لو اختير بقاء السن خوفا من قلعه فلا بأس أن نختبر بأن تلطخ على موضع الفساد قطنة مبلولة فى قطرات من عصير القرنفل ، فإن ذلك يصلحها زمنا طويلا ، وربما كانت نهايته تفتتها وسقوطها ، ويمكن أيضا إصلاحها بأن تلطخ على ذلك الموضع قطعة صغيرة من عرق عاقر قرحا ، وتتمضمض بسليق النبات المسمى : حشيشة الفضة ؛ وأما إذا تحرك الوجع من غير أن تكون الأسنان منفسدة ، فأدم الغرغرة بالشعير ، أو بالماء واللبن ، وتضميد الصدغ بالضماد المطرى ، واتخذ الحموم جملة ليال بماء فاتر ولا تشرب الأنبذة المخدرة ولا تكثر من الأكل . وأما إذا كان بالأسنان قرح فتنضيجه بأن تديم فى فمك لبنا أو تينا مطبوخا فى لبن ، فإذا نضج فافتحه فإنه سهل غير مؤلم .

الثالث : السكتة اعلم أن داء السكتة يأتى الإنسان فجاءة فيعطل الحواس والحركات الاختيارية ماعدا النبض ، وبه يعسر التنفس ، وهذا المرض مخوف فتجب المسارعة إلى الطبيب . ومدة انتظار حضوره يجب (ص ١١٢) أولا كشف رأس المريض ، وتغطية ماعداه من البدن بشىء خفيف جدا ، وجلب الهواء الطرى عنده ، وفتح طوقه (١) بالكلية ثانيا : يقام حسبما يمكن رأسه إلى أعلى ورجلاه إلى أسفل . ثالثا : يحقن بحقنة مصنوعة من سلاقة الحشائش الطرية والملح . رابعا : اسقه كثيرا من الماء حسب الإمكان . خامسا : إبعاده عن الأشربة المخدرة كالخمر ، وكذلك الماء المعطر شربا وضمادا وسعوطا . سادسا : عدم مسه وتحريكه إلا للضرورة . سابعا : عصب الرجلين تحت الداغصة ، وهى العظم

(١) الطوق : ( الياقة ) : الجيب .

المدور والمتحرك فى وسط الركبة ، حتى ينحجب الدم عن الصعود إلى الرأس ، وربما يرجع داء السكتة بعد ذهابه ، وكلما رجع ، كان أصعب مما قبله ، فالواجب تداركه من قبل بأن يأكل وهو فى هذه الحالة قليلا جدا ، وأولى ماينفع له أن يترك العشاء ، وأن يتجنب الأشياء الغزيرة المائية ، وطيبات الروائح والحوامض والأشربة المقوية والقهوة ، وأن يأكل قليلا من اللحم وكثيرا من الخضراوات والفواكه ، وأن يشرب دواء مسهلا مرتين أو ثلاثا ، كل سنة ، وأن يتريض ، وأن لايكثر من السخونة فى ( أودته ) أو حرارة الشمس ، وألا يتأخر فى النوم أو فى القيام منه ، وأن لايلبث فوق ثمان ساعات فى فراشه.

الرابع : ضربة الشمس ، هو مرض يصيب الإنسان متى اعترض فى حر الشمس زمنا طويلا عريان الرأس ، فيعرف هذا المرض بوجع الرأس الشديد ، واحترار البشرة واحمرار العيون ، وجمود الدموع ، وضعف البصر عن الامتداد إلى الضوء . وقد يحصل للمريض به سهر ، وربما أحس بالنوم وقلق (قلقا) شديدا. وفى الغالب تكون بشرة الوجه محترقة ، فالمريض لايزال شديدا حتى يأتى الطبيب سريعا ، فينبغى فى مدة انتظاره أن تضع رجلى المريض فى ماء فاتر ، وتدخله نصف حمام ، أو حماما كاملا ، واحقنه بأعشاب مطرية ، واسقه كثيرا من شربة الليمون والماء ، أو اسقه ماء مخلوطا بيسير الخل . وأنفع من ذلك مصل اللبن الصافى المخلوط بيسير الخل ، والطخ على جبهته وصدغه ورأسه خرقة مطراة بماء بارد وخل معا .

الخامس: نهش السميات. أولا : أخرج الزبان إذا لصقت بالمحل الملدوغ . ثانيا: تعهده بالماء . ثالثا : الطخ عليه إما كزبرة أو كرفسا أو زهر الخمان. رابعا فإن عظم الحرقان فأسرع ماينفع هو أن تبل خرقة صوف فى سلاقة الخمان وتلطخها ، وهى هينة (ص ١١٣) الحرارة. خامسا : أن تلصق على الوجع لبخة من سحيق بزر الكتان أو من لباب الخبز الممزوج باللبن أو العسل .

السادس: قاعدة يجب اتباعها فى تعهد الصغار والأطفال : حق على الأمهات اللاتى يردن حفظ صحة أبنائهن وتربيتهم أن يتركن عوائد البربر من لف الأطفال بكيفية يمتنع معها تحركهم ، وتنقل أرجلهم أو أيديهم ، فكيف يقلن لو أخبرهن إنسان أن اللازم لصحتهن أن يحتبسن فى أثوابهن ، وأن يلصقن أذرعتهن ببدنهن ، وألا يتحركن ،

كالمسلسل ! فلأى شيء يصنعن ذلك بأطفالهن ، وهم ضعاف ، فليطلقنهم يتحركوا ، وليعرضن أطرافهم للهواء . من يتوهم من غير مستند أن الفرس الصغير أو العجل كذلك من المستحسن لصحتهما ربطهما وتكتيفهما على ذلك الوجه ، أو ليس أن حكم تربية الآدمى كغيره من باقى الحيوانات ؟.

السابع : السم بالفطر[1] وهى جنس ردىء من الكمأة ، كثير من الناس من يهلك بميله إلى الفطر ، وكان الأحسن فى حقهم يقينا أن يتجنبوه . وقد شوهد غير مرة أن الأم تحمل لعيالها كثيرا من الفطر لتبرئهم به فتقتلهم بيدها ، وأعمال هذا النبات السمى لا يظهر إلا بعد مضى ست ساعات إلى اثنتى عشرة ، فأول ماتحس بها أطلب الطبيب وتناول مدة انتظار حضوره حبتين أو ثلاث حبات من الطرطر مقىء أى ملح الطرطير المقىء بعد تذويبه فى طاستى ماء .

الثامن : السم بالزنجار . اعلم أن آنية النحاس التى تستعمل فيها المطبوخات هى خطرة بسبب زنجرتها سريعا ، والزنجار سم قوى ؛ فلتبيض أوانيك وقتا بعد وقت بالقسدير ، ولا تترك الأطعمة تبرد فيها ، خصوصا إذا كان بها الخل أو الحماض أو الحريفات أو الدسمة ، فإذا اعتراك وأنت محترز عن ذلك قولنج أو قىء فامزج نحو خمسة عشر من بياض البيض فى (قزازتى) ماء ، واشرب منها طاسة فى نحو دقيقتين لتتقايأ السم ، فإن لم تجد البيض فأكثر من شرب اللبن فإن عدمت اللبن فمن الماء المحلى أو ماء الصمغ .

التاسع : داء الكلب ، وهو معروف لسائر الناس بوصفه وعمله الرديئين ، وهو يتولد طبيعة فى الذئاب والثعالب والسنانير وخصوصا فى الكلاب . وعضة الحيوان الكلب تكسب هذا الداء للآدميين وغيرهم من الحيوانات . وعلامة الكلب الكلب أنك تراه أولا كئيبا ( ص ١١٤ ) ذابلا مدة أيام ، فيختفى ، ويسلك المحال المظلمة ، ولا ينبح ، بل يختفى ويترك المأكل والمشرب ، ثم يهجر بيت أصحابه ، ويجرى من جهة إلى أخرى ، ويقف شعره ، ويبتل لسانه من اللعاب ، ويتدلى من فمه ، ويتعوج ذنبه بين رجليه ، ويهرب من المائعات

---

(١) يسمى بنات أوبر .

ويهم أن يعض سائر الناس ، حتى صاحبه ، ثم يموت بعد يوم أو يومين بشدة مصارعته ، وتفوح من جيفته رائحة منتنة ، فالواجب حينئذ دفنها فى عميق من الأرض .

ومتى عض هذا الكلب الإنسان فإن الجرح من عادته أن يلتئم بالسهولة ، كأنه غير متسمم ، وبعد مدة قليلة أو كثيرة ، وهى ثلاثة أسابيع إلى ثلاثة أشهر يحس بالجرح وجع مكتوم ، فينتفخ أثره ، ويحمر ، وينفتح ، ويقيح ، ومدته تخرج حارة منتنة محمرة ، ويذوق المريض الكآبة والخدر والكسل والبرودة ، ويعسر عليه التنفس ، ويمسك الوجع أمعاءه ، ويضطرب فى نعاسه ، ويعطش عطشا مهلكا ، ويقاسى إذا شرب ، ثم يعتريه الارتعاد من الماء والمائع ، ويبح صوته ، ثم يجن ويموت . وليس من شأن من أصيب بهذا الداء أن يعض غيره دائما ، بل معظم المبتلين بهذا الداء إذا أحس هجومه عليه ينصح الحاضرين بأن يكونوا منه على حذر . وما يذوقه من الألم تقصر عنه العبارة ، فيتمنى ولو الموت .

ومعالجته هى : أن أول مايعضه الكلب تسرع الدواء فيه ، فان توانيت سرح السم إلى الدم ، ولا يجدى التطبيب شيئا ، وذلك الدواء هو أن تستخرج الدم من الجرح بعد كشفه ، وتغسله بماء مملح ، وتكويه بحديدة بعد إحراقها فى النار حتى تبيض بعد الاحمرار وتغرزها فى سائر أقطار الجرح ، فلو بقى جزء من الجرح غير محكم الكى كان الكى كلا شىء ، ويصح أن تستعمل بدل الحديدة المحرقة دهن الزاج فتدخله بين شفتى الجرح وتجريه فى سائره ، ومتى انكوى اللحم تغطيه بخرقة مدهونة بالقيروطى ، أى المرهم ، أو بالزبدة الطرية . واعلم أنه يجب غسل الثياب المنقوبة بأسنان الكلب الكلب ؛ لما أنها حين تشربت من ريقه تخلل بها جزء من سمه . وما تقدم لك هو الكيفية المتعينة المجربة فى هذا المرض الشديد ، فلا تتردد ، أو تخف قليلا من الألم الذى يطرد غيره من الألم الشديد ، أو الهلاك المفزع ، وأيضا لو طلبت الحكيم لأثبت لك بسداد رأيه هذه المعالجات (ص ١١٥) السالفة ، ولا بأس أن تستعمل هذا الدواء فى أى حيوان معضوض بكلب كلب .

وأزل ما على الجرح من الشعر ، ولو كان المعضوض أذنا أو ذنبا فلتقطعه ولتكو على ما سبق موضع القطع . وينبغى أن تعزل البهائم المعضوضة عن غيرها من سائر البهائم حتى يزول ما بها ولا تعدى غيرها .

العاشر : الاستعانة على إفاقة الغريق .

لاتيأس من إفاقة الغريق إلا إذا أخذ بدنه فى العفونة ، فحينئذ ولو مضت ساعات كثيرة من وقت غرقه ، أو ذهبت حركته بالكلية ، أو فقد أمارات الحياة فافعل به مايستحقه عليك من واجبات الأخوة : فقبل كل شىء اطرد من اجتمع عليه من الخلق لأنه يضيق الصدر ، ويحجب الهواء .

ثانيا : لو رأيت الغريق قد فقد الحس والحركة فأمل رأسه ، بحيث يكون وجهه إلى أسفل ، وافتح شفتيه ، حتى يخرج بسهولة الماء الذى قد دخل من الفم أو الأنف ، وارفع رأسه مغطاة بقلنسوة من صوف إن تيسرت ، وادرج باقى بدنه فى نحو ملحفة .

ثالثا : أنقله سريعا إلى أقرب موضع .

رابعا : بعد وصوله اخلع ماعليه من الثياب بأسهل مايمكن ، ولو بقطعها بآلات إن لزم .

خامسا : افرش له عند ذلك بعض طراحات و (مخدات) بها بعض صلابة واجعلها قريبا من نار متقدة ، وضع فوق الطراريح ملحفة من الصوف ، ورقد الغريق فوقها مرفوع الرأس ملفوف البدن .

سادسا : دلك البدن تحت الملحفة بالرفق بخرقة صوف مدفأة يابسة ، ثم دلك ، بالمائعات القوية المستقطرة على ظاهر بدنه خصوصا على السرة وما حولها ، والأولى خصوصا فى الشتاء أن تسخن عاجلا ماء ، وتملأ منه مثانات[1] على الثلثين من ماء هين الحرارة ، وتضعها فوق أجزاء البدن المحتاجة للحرارة .

سابعا : مدة الدلك أو عقب وضع المثانات ينبغى أن تدخل الهواء فى صدره ، بأن تضع قصبة أو ريشة فى فم المريض ، أو فى إحدى طاقتى أنفه ، مع فتح الأخرى ، وانفخ فى تلك القصبة بمنفاخ لدفع الهواء فيها ، فان كان النفخ فى الفم فاقبض الأنف ، ولكن أرخ أصابعك مرة بعد أخرى ، ليخرج منه الهواء أحيانا .

ثامنا : أشممه القلى البخارى ، يعنى الروح البخارية من ملح النشادر ، بأن تقرطس

---

(١) زجاجات .

ورقة حتى تكون مبرومة فى صورة فتيلة وتشربها من (قزازة) قلى بخارى ، وتعرضها تحت أنف الغريق (ص ١١٦) ، أو تدخلها فى منخاره ، وتكرر هذا العمل مرارا بالرفق .

تاسعا : ألعقه إن أمكن يسيرا من روح الأنبذة المخلوط بالكافور ، وربما مكث هذا المائع فى فمه يسيرا من الزمن ، ثم بلعه ولكن لاتملأ فمه منه حتى يتعسر بلعه .

عاشرا : لو بلعها فأعطه أكثر منها فلو تحركت معدته من وجود قيء ، وذلك مما يتعبه فأعطه ثلاث حبوب من الطرطر المقيء مذوبة فى ثلاثة أو أربعة ملاعق ماء ، فان تقايأ بهذه الكيفية فاسقه ماء فاترا ، وإن أنزل من المخرج شيئا فقوه بتناوله شيئا من الأنبذة .

حادى عشر : لو أبطأ عن الإحساس فاحقنه حقنة حريفة ، وصورتها أن تأخذ أوراقا يابسة من الدخان ، قدر نصف أوقية ، ومن الملح المعتاد ثلاثة دراهم ، وتغلى ذلك فى مقدار من الماء يعادله نحو ربع ساعة تحقنه به . ويصح أن تؤلف هذه الحقنة من نصف طاسة ماء وطاسة خل ، وربع رطل من الملح المعتاد . وهذه كيفية معالجة الإفاقة للغريق ، وتدبيرها ممكن لكل إنسان ، حتى يحضر الطبيب ، فيعينهم أيضا ، ولو كانت مفيدة ، ففائدتها لاتحصل إلا بعد التدبير مدة ساعات على التوالى ، ففائدة ذلك بطيئة خفية ، ولذلك كان اللازم استدامة ذلك زمنا ، فمن الغرقى من لايفيق إلا بعد ست ساعات أو سبع من مبدأ خروجه من الماء .

الحادى عشر : غيبوبة الحياة برائحة بيوت الأخلية والبالوعات والآبار والمجارى ونحوها .

أولا : أخرج سريعا من أصيب بهذا الداء ، وضعه تحت الهواء .

ثانيا : جرده من الثياب ، ورش على بدنه ماء باردا : أو ماء مشوبا بخل ، وهو أولى ، وأولى منه حامض الجير .

ثالثا : ألعقه ماء باردا ممزوجا بقليل من الخل .

رابعا : احقنه بحقنة ماء بارد ثلثها خل ، ثم بعد ذلك احقنه بملح ذائب .

خامسا : أدخل فى أنفه طرف شعر ريشة ، وحركها بالرفق .

سادسا : أدخل الهواء فى صدره بواسطة قصبة ، وانفخها بمنفاخ ، كما سلف فى الغريق عند العمل .

السابع : اسلك سبيل النشاط والاستعجال فى هذه المعالجة ، فكلما أبطأت كلما ظن اليأس من إنتاجها ، ولما كان الموت لاينكشف إلا بعد مدة ، تحتم إدامة المعالجة حتى يتيقن .

الثانى عشر : غيبوبة الحياة بالبرودة :

اعلم أن شدة البرد قد تستحكم بأعمالها فى الإنسان ، فتجمد الأعضاء ، وتحبس جريان الدم ، وربما مات بها الإنسان ، ودواؤها مخوف العاقبة جدا (ص١١٧) وإن كان لا ألم به أبدا ، فمباديها هو الرعشة التى تكاد تصرع الإنسان ، وصلابة الجسم ، وانحباس الدم ، وخدر المفاصل ، وذهاب الإحساس ، والتذاذ البدن بالنوم ، وانقياده إليه ولو بالقهر ، وانقطاع حركات الحياة على التدريج ، وعاقبته خروج المبتلى به من حيز الأحياء إلى حيز الأموات ، وفى الحقيقة حركات الحياة ليست إلا متوقفة ، فعليك أن تسرع فى معالجته بدواء ، سواء ذهبت أمارات الحياة بالكلية ، أو بقى منها شىء . واعلم أن بعض الناس توهم أن معالجة إفاقته تكون بالحرارة ، وهذا وهم فاسد ، لإضرار الحرارة بكثير من الناس ، ولكن معالجته هى أن تلف أولا بدنه فى ملحفة من صوف ، وتحمله إلى أقرب مايرتاح فيه من الأماكن ، وتخلع ثيابه وتضعه فى فرش غير محمى . ثانيا : إذا كان عندك ثلج فدلك البدن مع رفق بشىء من ذلك ، مارا من القلب إلى المفاصل ، ثم بعد لحظات أدلكه بدل الثلج بخرقة مسقية بماء بارد ، وبعده بماء فاتر ، ثم بماء مسخن ورش على وجهه شيئا من هذه المياه. ثالثا : لو تعذر الثلج فضعه فى حمام فيه ماء بئر بارد ، وبعد نحو ثلاث دقائق أفرغ عليه قليلا من الماء المسخن . وهلم جرا ، فأفرغ عليه كل ثلاث دقائق ، حتى تذهب برودة الماء على التدريج ، ويصير فاترا معتدلا ، واعمل جميع ذلك نحو ثلاثة أرباع ساعة فقط ، فإن استشعرت برجوع حركة نبض المريض فلك أن تزيد حرارة الحمام ، حتى يصير فى درجة سخونة الحمام المعتاد . وما دام المريض فى الحمام فرش على وجهه يسيرا من ماء بارد بعد تدليكه بخرقة رقيقة. رابعا : المسه فى أنفه بطرف ريشة أو بفتيلة ورق مسقية من القلى البخارى . خامسا : أدخل الهواء فى صدره بواسطة أنبوبة أو منفاخ ، كما سبق فى الغريق. سادسا : أعطه سفوفا حبات من الملح المعتاد ، وألعقه لعقتين ماء باردا مخلوطا بقطرات من ماء الملكة .

سابعا : إذا بقى بالمريض الخدر ، فاسقه قليلا من ماء ممزوج بخل وإن كان نومه به سباتا فاحقنه بحقنة حادة ، وهى ماتقدمت فى شأن الغريق . ومن سوء الخطأ توهم أن استعمال الخمور والمسكرات القوية ، يمكن أن يتدارك به إبعاد هذا الداء ، مع أن الأمر بعكس ذلك ، وهو أن كثرة الأشربة تحبس جريان الدم ، فمن ينهمك على تعاطيها فهو أشد تأثرا من غيره ( ص ١١٨ ) بآفات البرودة .

الثالث عشر : غيبوبة الحياة بدخان الفحم ، كل من يمكث فى غرفة مغلقة موقد [1] بها فحم فقد ألقى نفسه فى مهلكة ، فبدؤها يحصل للإنسان شدة وجع الرأس ، وبعد ذلك يعتريه تعسر النفس ، ثم يقع فى ذبول ، كحالة الموتى ، فان عولج فذاك ، وإلا هلك .

ومعالجته هى أن تسرع إلى تعريضه فى الهواء وتجرده من أثوابه ، وتنيمه على ظهره ، وتسقيه ماء ممزوجا بخل وترش من هذا الماء على وجهه وصدره ، وتبل خرقة من ذلك الماء وتدلك بدنه بها ، وتمسح وجهه ثم تعيد ذلك عدة مرات ؛ وتقرب نحو مشامه عود كبريت مشتعلا ، أو غيره من حاد الرائحة ، وتغمزه فى باطن أنفه بطرف ريشة ، وتحقنه مرتين : الأولى بماء ممزوج بخل والثانية بماء ملح ، فإن بقى بعد ذلك على حالته فدلك فقار ظهره بممسحة من عرف حيوان والطخ شيئا من معجون الخردل على بطن رجليه ، وأدخل الهواء فى صدره بأن تدخل فى إحدى طاقتى أنفه فم منفاخ وتنفخ ، والحال أن الأخرى مسدودة ، فاجتهد وواظب على ذلك ، وليس فى الغالب يفوق المريض ، فان ساعدتك المقادير على إفاقته ؛ وظهر شىء من أمارات الحياة فضعه فى فرش عظيم التسخين ، فى غرفة بها الهواء وألعقه شيئا من خير الأشربة .

الرابع عشر : فى معالجة الحرق أول مايحترق عضو الإنسان فليغمس العضو فى أبرد مايمكن من الماء ، وإن تعذر غمسه فى الماء فرشه دائما بإسفنجة مملوءة منه ؛ وكلما تسخن الماء المستعمل فى ذلك الغسل فجدده ، وواظب على ذلك ساعات ، وافتح ماينتفخ من الدمامل بطرف إبرة واحذر أن تفشخها أو تسلخ البشرة ، ثم ألطخ على ذلك العضو المرهم الملصوق على بعض خرقة رقيقة بورق اللازوق ومحل هذا كله مالم يمض

---

(١) فى الأصل : مغلوقة موقود .

نصف ساعة قبل غسل العضو المحترق فى ماء بارد ، وإلا فهذا الدواء يكون مضراً ، بل فى هذه الحالة لابد أن تكتفى باستعمال المرهم الذى تنوب عنه الزبدة الطرية ، ولو رأيت الحرق امتد على العضو بتمامه فعليك بالحكيم لتستعين به على ذلك .

الخامس عشر : فى الجدرى والتخلص من مجيئه بتلقيح البقرى .

أمر الجدرى معلوم ، وكونه إما قاتلا أو مشوها ، لاسيما بالوجه بين عند سائر الناس ، وربما أذهب البصر وأورث أسقاما لا تنقضى إلا بانقضاء الأجل ، وهناك طريقة لتداركه قبل (ص ١١٩) أوانه مجربة فمن مرض بالجدرى مع وجودها فهو من سوء تفريط والديه وإهمالهما ؛ فعلى أبى الإنسان وأمه المبادرة لذلك ، فإذا بلغ سن المولود ستة أسابيع إلى ثمانية وجب طلب الحكيم ليخرج سم الجدرى بالتلقيح ولا عذر لهما إن أهملا فى ذلك ، لقدرتهما على مداواة ولدهما ، فلو تركاه حتى أصيب بالجدرى فقد فات أوان استعمال تلقيح البقرى ، فيندمان حيث لاينفع الندم .

وفى بعض الممالك تلقيح البقرى للأطفال معين على بيت المال ، فلا كلفة فيه خصوصا على الفقراء ، فعلى أهل هذه المملكة أن يقبلوا عليه فى الحال ، ولا يتأخروا إلى غد ، فربما فى اليوم القابل تحرك سم الجدرى ، ولا يغتر بقول من يزعم أنه غير مثمر شيئا ، فصحيح التجربة أوضح فائدة استعماله ؛ ومن استعمله لطفل فأصيب الطفل بعد ذلك بالجدرى فذلك لفقد شروط كون التلقيح كان غير محكم الوضع ، والحبات التى أخذت كانت غير تامة ، فإذا استعملته فى المولود فأطلع الحكيم على حبات البقرى تتحقق إصابة استعماله وعدمها ، واستعمال تلقيح البقرى غير مؤلم فهو أخف من شكة إبرة ولا يمرض به الإنسان ، ويصح استعماله لأى عمر كان .

والجدرى داء متوقع مدة أجل الإنسان ، حتى كأنه دين ماله إلى القضاء ، وقضاؤه يحصل بالمسارعة إلى استعمال تلقيح البقرى لمن يريد التخلص من إصابته .

## خاتمة

هذا آخر ما أردنا شرحه من النصائح النافعة للصحة ، فالصحة جوهر نفيس عن سائر ما عداه ، إذ بسلبها لاتنفع زينة الحياة ، فما ثمرةالأموال لعليل ، لا يتمتع منها بشفاء الغليل . يذهب المريض كنوز ذهبه ، لمن يبريه من وصبه ، ومع ذلك قد يكون خلاف غرضه ، فلا يصح له الشفاء من مرضه ، تقرع الأمراض باب الخطير ، على نسق ما تقرع باب الحقير . ولا ترق لشكواه ، ولا تسمع دعواه . حكمة بالغة للحكم العدل ، ذى الاقتدار والفضل ، فليس بنا قوة ولا حول ، بل الكل بحول وقوة ذى الطول . فهو الممرض والشافى ، والمبتلى والمعافى ، ها نحن الآن فى حيز الحياة والثبات ، ولاندرى هل نعد غدا فى زمرة الأموات ؟ فهذا سر خفى لانصل إلى فهمه ، كيف وقد استأثر به الله فى غامض علمه ! فلا تثق بالمخايل (ص ١٢٠ ) الظاهرة ، من الصحة الزاهية الزاهرة ، فربما فى أسرع من البرق اللامع ، تعترينا الأمراض وتلزمنا المضاجع . وقدرتنا على القبض على الأجل ، وحفظ الصحة من الخلل . كاقتدارنا على عروج السما ، واتخاذ الأفلاك ملزما . فعلينا بالاستعداد للمعاد ، ولنكن كالمسافر المستحضر على الحمل والزاد . العازم على الرحيل ، الجازم من الإقامة بالقليل . قدكان بالأمس نوبة الجار ؛ وستأتى غدا نوبة صاحب الدار ؛ ولا خوف علينا ولا حزن ، حيث كان خلاص ذمتنا حسن . هذا ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على نبيه وآله وصحبه وسلم ؟

# الفصل العاشر

## [في فعل الخير بمدينة باريس]

اعلم أن غالب الناس ببلاد الإفرنج وسائر البلاد التي تكثر الصناعة والنجامة فيها يعيشون من كسب أيديهم ، فإذا حصل للانسان منهم مانع كمرض أو نحوه ، فقد معيشته واضطر إلى أن يعيش من غير كسب يده ، كأن يتكفف الناس ، أو نحو ذلك : فشرعت المارستانات المعدة لفعل الخير ، حتى إن الإنسان لا يسأل ما في أيدي الناس ، وكلما كثرت صنائع بلدة وكثر كسبها كثرت أهاليها فاحتاجت إلى مارستانات أكثر من غيرها ، ومعلوم أن مدينة « باريس » من أعمر المدن وأكثرها صناعة ونجامة ، فلذلك كثرت مارستاناتها ومواضعها المصنوعة لفعل الخير ، فكانت مارستاناتها وجمعيات فعل الخير بها سادة لخلل شح أفراد أهلها وبخلهم ، لما تقدم أنهم بمعزل عن الكرم من العرب ، فليس عندهم حاتم طي ، ولا ابنه عديّ . ولم يخرج من بلادهم معن بن زائدة الشهير بالحلم والندى الذي قال فيه الشاعر :

يقولون : معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكي المال من هو باذله
إذا حال حول لم يكن في دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت نائله
هو البحر من كل النواحي أتيته ... ولجته المعروف والبر ساحله
إذا مر بالوادي فتبكي تلاله ... عليه وبالنادي فتبكي أرامله
(ص١٢١) تعوّد بسط الكف حتى لو انه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
ولو كان ما في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ولم يسمع في بلادهم عند ملوكهم ووزرائهم شيء ولو يسيرا مما يحكى عن بني العباس والبرامكة أصلا ، فالملك المنصور المشهور بالدوانقي(١) أكرم الكرماء بالنسبة

---

(١) المنسوب إلى ( دوانق ) ، وهي جمع ( دانق ) كصاحب ، وهو سدس الدرهم .

إليهم ، نعم إن البلاد المتحضرة يقل إكرامها ، وأيضا يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئا فيه إعانة له على عدم التكسب .

وفى مدينة باريس ديوان لتدبير المارستانات ، وأهله خمس عشرة نفسا للمشورة العامة ، وفى هذا الديوان خمس نظارات : النظارة الأولى: لمباشرة المارستان . النظارة الثانية: لمباشرة مهمات المارستان ؛ والخدمة للمرضى والعقاقير العامة . النظارة الثالثة: مباشرة الأوقاف. النظارة الرابعة: مباشرة الفقراء فى بيوتهم وإعانتهم. النظارة الخامسة: مباشرة مصاريف المارستان وتوابعها .

ولا يدخل الإنسان المارستان إلا إذا أثبت مرضه . يقول الحكماء : ومن قام من مرضه فى المارستان وأراد أن يخرج منه قبل أن يتم شفاؤه وترجع له قوته أخذ من الوقف بعض شيء يستعين به على قوته ، حتى يمكنه الرجوع إلى أشغاله .

وأعظم مارستان « بباريس » المارستان المسمى: « أوتيل ديو » يقرب أن يكون معناه « بيت الله » وهو موقوف على المرضى والجرحى ، ولا يدخل فيه الأطفال ، ولا أرباب الداء العضال ، ولا المجانين ، ولا النفساء ؛ ولا أرباب الأمراض المزمنة ، ولا المبتلى بالإفرنجى ، فإن كل داء من هذه الأشياء له ما رستان خاص .

ومن المارستانات الشهيرة فى « باريس» مارستان يسمى : « سنلويز » وهو معد لأرباب الأمراض المزمنة ، ولأرباب الدمامل ، والقوبة ، والحكة ، والجرب ، ونحو ذلك .

وفى باريس ما رستان للقطاء ، يعنى الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق فيدخل فيه الذين يهملهم أهلهم كأولاد الزنا ونحو ذلك .

« وبباريس » مارستان أيضا للأيتام ، وفيه يدخل الأولاد الفاقدون لأهاليهم ، وهو موقوف على نحو ثمانمائة ذكر وأنثى ، فالذكور فيه فى جهة ، والإناث فى أخرى. ويباشر هذا المارستان عدة راهبات تسمى عندهم : أخوات الإحسان ، ويتعلم صغار هذا المارستان فيه القراءة والكتابة والحساب ، ولهذا المارستان ديوان يدبره فلا يوضع الصغير فى هذا (ص٢٢٢) المارستان إلا بأمر هذا الديوان ، وإذا بلغ الانسان إحدى عشرة سنة فى السن فإنه يخرج بإذن أهل ذلك الديوان من هذا المارستان ، ويسكن عند معلم صنعة

ومصرفه يخرج من وقف المارستان، ولمعلم الصنعة أن يتبنى الصغير، أى يأخذه وينزله منزلة ابنه، ولكن بشرط أن يثبت لأهل ذلك الديوان يساره وفضله وحسن حاله .

ومن جملة مارستانات « باريس » مارستان موقوف لتلقيح الجدرى، بوضع البقرى .

ومنها مارستانان يسميان «مارستانى الشيخوخة والهرم» فأحدهما للذكور، والآخر للنساء ، ومنها مارستان لأصحاب الداء العضال، موقوف على أربعمائة وخمسين مريضا ذكرا وخمسمائة وعشرين مريضة » .

ومنها : مارستان العميان، من أهل «باريس» أو غيرها من العمالات، فلهم فيه الأكل والشرب ، وسائر ما يحتاجون إليه فى تعليمهم ونحو ذلك .

ومنها : مارستان المجانين، وفيه ( قشلة )[١] عظيمة تسمى مارستان السقط ، وفيه يوضع مجاريح الحروب ومقاطيع الأيدى أو الأرجل أو نحو ذلك ، وهو من أنظف وأعظم المارستانات ، وفيه ستة عشر طبيبا ، وجرائحيا ، وستة عقاقيرية لصناعة الأدوية .

ويوجد فى « باريس » زيادة عن هذه المارستانات ديوان عام يسمى «ديوان الإحسان » المقصود منه تكميل الخير الذى لا يمكن فى المارستانات ، كما إذا أحرقت تجارة تاجر أو انكسر ، فإنه يجبر من هذا الديوان بشروط معلومة .

وفى كل خط « بباريس » ديوان إحسان، والإحسان فيه قسمان : إحسان حالى وإحسان حولى ، فالأول يعطى للفقير الذى وقف حاله أو حدث له ما يعطله ، والثانى لمن به حالة دائمة تمنعه من الشغل . ومن فعل الخير بمدينة « باريس» أنه يوجد بشاطىء نهرها علب وحوائج بها روائح لتشميم الغريق والمغمى عليه والجريح ونحو ذلك ليفيق ؛ ويوجد أيضا بهذه المواضع عدة رجال من أهل الخبرة ، لينهضوا لإسعاف من وقعت له حادثة عارضة .

ومن هذا كله يتبين أن فعل الخير بمدينة « باريس » أكثر منه فى غيرها بالنسبة للجملة أو للمملكة ، لا لكل واحد على حدته فإنه قد يشاهد فى طرقها أن بعض الناس

---

(١) القشلة : المستشفى .

الذين لا يذهبون إلى المارستانات الموقوفة ونحوها يقع فى وسط الطريق من الجوع ، وربما تراهم ينهرون السائل ، ويردونه خائبا ، زاعمين أنه لاينبغى السؤال أبدا ، (ص١٢٣) لأنه إذا كان السائل قادرا على الشغل فلا حاجة إلى السؤال ، وإن كان عاجزا عنه فعليه بالمارستانات ونحوها ، ولأن السائلين عندهم أصحاب حيل فى تحصيل الأموال فى غالب الأحوال ، حتى إنهم يتشكلون فى صورة المجاريح ونحوهم ، ليشفق الناس عليهم ويرقوا لحالهم .

ومن فعل الخير أنهم يجمعون عند الحاجة أشياء لمن نكبه الزمان حتى يصير بها غنيا ، فمن ذلك أنهم جمعوا لأولاد «الجنرال نى» نحو مليونين من الفرنكات يعنى ستة ملايين من القروش .

## الفصل الحادى عشر

### [فى كسب مدينة باريس ومهارتها]

اعلم أن المركوز فى أذهان هؤلاء الطوائف محبة المكسب ، والشغف به ، وصرف الهمة إليه بالكلية ، ومدح الهمة والحركة ، وذم الكسل والتوانى ، حتى إن كلمة التوبيخ المستعملة عندهم على ألسنتهم فى الذم هى لفظة الكسل والتنبلة ، وسواء فى محبة الأشغال العظيم والحقير ، ولو حصل من ذلك مشقة أو مخاطرة بالنفس فكأنهم فهموا قول الشاعر :

حبُّ السلامة يَثْنى عزمَ صاحبه عن المعالى، ويُغرى المرءَ بالكسل
فإن جنحتَ إليه فاتخذ نَفَقا فى الأرض أو سلما فى الجوّ واعتزل
ودع غمارَ العلا للمقدمين على ركوبها ؛ واقتنع منهنّ بالأمل

إلى أن قال :

فإنما رجل الدنيا وواحدها من لايعوِّل فى الدنيا على رجل

ثم إن أعظم التجارات وأشهرها فى « باريس » معاملات الصيارفة . والصيارفة قسمان : صيارفة المملكة أو ( الميرى ) ، وصيارفة « باريّس » ، ووظيفة صيارفة الدولة بالنسبة للتجارة أن يضع الناس مايريدون وضعه ، ويأخذوا كل سنة ربحه المعين فى قانونهم ، فلا يعد عندهم هذا الربح ربا إلا إذا زاد عما فى القانون . وللإنسان أن يأخذ ماوضعه من المعاملة عند صيارفة الدولة متى أراد. ومثل ذلك صيارفة « باريس » فإنهم يأخذون ويعطون الأموال بالمرابحة ، وهم يعطون الربح أزيد مما تعطيه صيارفة بيت المال الذين هم صيارفة المملكة ، ولكن المال الموضوع عند صيارفة المملكة آمن من الموضوع عند صيارفة المدينة ، (ص١٢٤) وذلك لأن صيارفة المدينة يفلسون ، وأما صيارفة الدولة فإن مايأخذونه يكون دينا على الدولة ، والدولة دائما موجودة .

ومن أمور المعاملات المهمة عند أهل « باريس » : جمعية تسمى «الشركاء فى الضمانة » فإنها تضمن لمن يدفع لها كل سنة قدرا هينا مخصوصا سائر مايتلف

فى بيته بحادثة قهرية ، كما إذا احترق بيته أو حانوته أو نحو ذلك فإنها ترجعه له كما كان ، وتدفع له قيمته .

وفى مدينة باريس معامل سلطانية ومعامل غير سلطانية : فمنها معامل المعادن كأشغال الفضة والذهب واتخاذ الآنية منهما ، ومنها معامل الصينى ( والفرفورى ) (١) ومعامل الشمع الإسكندرانى ، ومعامل الصابون والقطن والجلود المدبوغة ، وشغل السختيان(٢) ، ونحو ذلك ، وصناعتهم تعظم جودتها شيئا فشيئا ، حتى إنهم كل نحو ثلاث سنوات يعرضون أشغالهم على رءوس الأشهاد ، ويظهرون ما اخترعوه وما كملوه .

وفى باريس عدة خانات عظمى ، توجد فيها سائر المبيعات ، ووكائل وحوانيت وبيوت للتجارة أو الصناعة مكتوب على واجهتها اسم التاجر واسم تجارته ؛ وبعض الأحيان قد يكتب اسم المتجر ، ولا يمكن أن يشرع الإنسان فى التجارة إلا إذا دفع لبيت المال شيئا ولو هينا ، فيأخذ ( نيشانا ) علامة على الإذن له فى التجارة ، فيحتاج أن يكون معه ( النيشان ) ، وعلى تجارته .

وللتجارة مكتب مخصوص يسمى مكتب التجارة ، يتعلم فيه التلامذة علم التجارة ، وعلم تمييز صفات أنواع الأشياء المبيعة ، ومعرفة الأثمان والقيم .

وفى هذا المكتب خمس عشرة مدرسة ، وفيه تلامذة من أقاليم عديدة ، وبمقتضى قانون ذلك المكتب أنه بدفع القدر المعين يقبل من أراد الدخول للتعليم من سائر الأمم .

ومن الأمور التى تعين على النجامة والكسب تعمير طرق البر والبحر ، فمن ذلك صناعة الخلجان والقوارب التى تسير بالدخان ونصب القناطر ، ونصب دواوين تسفير العربات الكبيرة ( والتليغراف ) وهى الإشارة ، ونصب البريد بالساعى ، والبريد بالخيل وغير ذلك .

فانظر إلى مدينة « باريس » فإن حولها أربعة خلجان تأتى منها المتاجر ، وفى نهر السين تسير قوارب على صورة العربات ، وقوارب تمشى بالنار سريعة السير ، وبمدينة

---

(١) نوع من الصينى .

(٢) نوع من الجلد .

«باريس» جملة أنواع من العربات مختلفة الشكل والاسم والسير والاستعمال، فمنها عربات معدة لوسق الأمتعة من «باريس» إلى البلاد البرانية، (ص ١٢٠٥) وتسمى «رولاجة»(١) ومنها جنس معد لوسقه بالناس ليسافروا فيه، ويسمى « الدلجنس » ومنها عربات صغيرة للسفر إلى المحال القريبة من « باريس » تسمى «كوكو»(٢) ( بضم الكافين ) ويدفع فيها على كل رأس قدرٌ معلوم، كالسفر فى السفن . وفى « باريس » عربات تستأجر إلى أجل معلوم، كيوم أو شهر أو سنة ؛ والعربات العادية فى « باريس » هى : الفياكرة » وهى ما فيها مقعد فيه سدلتان متقابلتان ؛ تسعان ستة أنفس، ولها حصانان يسحبانها « والكبريولة » وهى نصف « الفياكرة » فلها سدلة واحدة : وركوب « الفياكرة »(٣) أو « الكبريولة » تكون أجرته بالساعة ، أو يستأجر من محل إلى محل آخر ، وأجرة ذلك محدودة لا تزيد ولا تنقص، ووجودها فى سائر طرق « باريس » أكثر من وجود الحمير فى طريق القاهرة، وقد تجدّدت الآن عربات كبيرة تسمى « الأمنيبوسة »(٤) معناها : لكل الخلق ، وهى عربات كبيرة تسع كثيرا من الخلق، مكتوب على بابها أنها تمشى إلى الحارة الفلانية، فكل الناس الذاهبين إلى حارة واحدة يركبونها ، ويدفع كل منهم قدرا معينا ، وهى موجودة فى أمهات خطوط « باريس » ومن العربات جنس ينقل أمتعة البيوت ، ومنها عجلات البياعين ويوسقونها، ويدورون بها فى الطرق ليبيعوها، وهذه العجلات قد يسحبها حصان، وقد يسحبها حمار ، وقد يسحبها شخص وحده أو مع كلبه، وبها أجناس أخر من العجلات لحمل الحجارة والتراب وغير ذلك .

وأما البريد المسمى عند الفرنسيس «البسطة» فإنه من أهم المصالح النافعة فى التجارات وغيرها ، يسهل فيه إخبار الغير بواسطة المكاتبات التى تذهب عاجلا، ويأتى ردها فى أسرع مايكون . وتدبيرها بكيفيتها التى هى عليها من أعظم مايمكن ، فإن المكاتيب التى تبعث فى البلد أو العمالة تصل إلى صاحبها من غير شك ، لأن سائر نمرة البيوت

---

Roulge (١)
Coucou (٢)
Jiacre (٣)
Omnibus (٤)

مكتوب عليها بالرقم عددها المسمى «النمرة» فبهنا يمتاز البيت عما عداه ، والمكتوب الذى تبعثه لإنسان تضعه فى محل المكاتيب الموضوع فى كل حارة ، فيأتى الساعى ويأخذه ، فيصل المكتوب إلى الحارة الأخرى ، ويأتى رده فى يومه .

ثم إن الفرنساوية يحترمون أمور المراسلات غاية الإمكان ، فلا يمكن لإنسان أن يفتح مكتوبا معنونا باسم آخر ولو كان متهما بشىء . ولما كان احترام المراسلات بباريس على هذه (ص ١٢٦) الحالة كثرت الرسائل بين الأحباب والأصحاب ، خصوصا بين العشاق ، لأمن الإنسان على مكتوبه من أن يفتحه غير المرسل إليه ، المعنون باسمه ؛ وإعلام العشق بين العاشق ومعشوقته يكون بالمراسلة ، وبها أيضا يحصل الوعد بالمواصلة . وفى باريس محل لإرسال المعاملات والحوائج مع الساعى أيضا ، من غير خوف أبدا . ومن الأمور النافعة فى التجارات (الجورنالات) فيكتبون فيها كثيرا من البضاعة النافعة أو الجيدة الصنعة ، ويمدحونها ، ليروجوا السلع ، وليعلموا الناس بها ، وصاحب البضاعة يدفع لهم شيئا فى نظير ذلك ، وسيأتى الكلام عليها إن شاء الله تعالى . وقد يطبع التاجر الذى يريد ترويج سلعته عدة أوراق صغيرة ، ويرسلها مع خدم فى سائر البيوت ، ولسائر المارين ، بالطرق ويفرقها عليهم مجانا ، ففى هذه الأوراق يذكر اسمه واسم دكانه ، وما عنده من المبيع ، ويعين القيمة لسلعته .

وبالجملة ففى مدينة باريس يباع سائر ما يوجد فى الدنيا سواء كان خطيرا أو حقيرا ، ومن أعظم الأشياء دكاكين العقاقيرية ، فيها توجد سائر الأدوية مجهزة ، وسائر العقاقير التى على وجه الأرض المعروفة الاسم والخاصية .

وسائر الخلق « بباريس » يحبون الكسب والتجارة ، سواء الغنى والفقير ، حتى إن الصغير الذى لا يمكنه التكلم إلا بالأشياء الصغيرة إذا أعطيته فلسا يفرح به ويصفق بيديه قائلا . ما معناه بالعربية : كسبت وقنيت : ولولا أن كسبهم مشوب فى الغالب بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا ، وإذا كسدت تجارة أحدهم كما هو غالب فى تلك البلاد فسد حاله ، وآل أمره إلى تطلب ما فى أيدى الناس ، وربما أخذ معه مكتوبا من أحد الكبار يدل على كساد حاله ، وأنه يستحق الإعانة ، ويكثر وقوع مثل هذا الأمر فى هذه المدينة وإن كثر أخذها وعطاؤه.

وتداول الأمطار والرياح لا يمنع الإنسان منهم عن الخروج إلى شغله ، يقولون بلسان حالهم : اليد الفارغة تسارع إلى الشر ، والقلب الفارغ يسارع إلى الإثم .

وأهل « باريس » أغنياء جدا ، حتى إن المتوسط منهم أغنى من تاجر عظيم من تجار القاهرة ، فلا يرضون قول الشاعر :

ولا فخر إلا بالنوال وبالعطا     وليس بجمع المال عز ولا فخر

بل يحرصون على الأموال ، ويسلكون سبيل الحرص زاعمين أنه يزيد فى الأرزاق ، (ص١٢٧) ولا يقتدون بقول الشاعر :

وليس يزاد فى رزق حريص     ولو ركب العواصف كى يزادا

وقد يوجد بها من أهالى الحرف الدنيئة من إيراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك ، وذلك من كمال العدل عندهم ، فهو المعوّل عليه فى أصول سياساتهم ، فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدّى مرة وجار ، ولا شك أنه تأسس فى قلوبهم قول الشاعر :

والملك الجبار والمنيع     ماعنده هاد ، ولا شفيع
رعيّة الجبار مرعى الحرب     والملك العادل نصف الخصب

وهذا لا يمنع من أنهم يدفعون ( الميرى ) عن طيب خاطر ، لما أنهم يرون أن الخراج عمود الملك إذا دفع كل إنسان منهم ما هو عليه قادر ، فمال (الميرى) هو قوام صورة الممالك ، وإحسان مصرفه فى استحقاقه خير ما هنالك ، قال الشاعر :

والمال أس لقيام الصوره     وخير منه صالح المشوره

ولما كانت رعيتهم رائعة كانت الدولة عندهم لها إيراد سنوى عظيم ، فإن إيراد الدولة الفرنساوية كل سنة نحو تسعمائة وتسعة وثمانين مليونا من الفرنكات .

ومن جملة أسباب غنى الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير ، وتدبير المصاريف ، حتى إنهم دونوه ، وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية ، ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى ، فمن ذلك عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف ، فإنه

الوزير مثلا ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما ، وإذا مشى فى الطريق لاتعرفه من غيره فانه يقلل أتباعه ماأمكنه داخل داره وخارجها وقد سمعت أن قريب ملك الفرنسيس المسمى : الدوق «درليان» ، وهو الآن السلطان الذى هو من أعظم الفرنسيس مقاما ، وأكثرهم غنى ، له من الأتباع وسائر من فى طرفه من العساكر ونحوها (كالبستانجية) والخدم وغير ذلك نحو أربعمائة نفس لاغير ، والفرنساوية يستكثرون ذلك عليه فانظر الفرق بين باريس ومصر ، حيث إن العسكرى بمصر له عدة خدم .

## الفصل الثانى عشر

### [فى دين أهل باريس]

(ص١٢٨) قد تقدّم لنا فى الشرطة أن دين الدولة هو دين النصارى «القاثوليقية» وقد بطل هذا الشرط بعد الفتنة الأخيرة ، وهم يعترفون للبابا الذى هو ملك رومة بأنه عظيم النصارى وكبير ملتهم ، وكما أن الدين القاثوليقى هو دين الدولة الفرنساوية كذلك هو دين غالب الناس عندهم ، وقد يوجد «بباريس» الملة النصرانية المسماة : «البروتستانية » وغيرها ، ويوجد بها كثير من اليهود المستوطنين ، ولا وجود لمسلم مستوطن بها .

وقد أسلفنا أن الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم ، أو أوجبه ، أو نحو ذلك فنى أيام الصيام فى «باريس» لا ينقطع أكل اللحم فى سائر البيوت ، إلا ما ندر ، كبعض القسوس ، وبيت ملك الفرنسيس القديم ؛ وأما باقى أهل المدينة فانهم يستهزئون بذلك ولا يفعلونه أبدا ، ويقولون : إن سائر تعبدات الأديان التى لا نعرف حكمتها من البدع والأوهام . ولا تعظم القسوس فى هذه البلاد إلا فى الكنائس عند من يذهب إليهم ، ولا يسأل عنهم أبدا ، فكأنهم ليسوا إلا أعداء للأنوار والمعارف . ويقال : إن غالب ممالك الإفرنج مثل « باريس » فى مادة الأديان .
ثم إن «مسيو دساسى» لما اطلع على ذلك كتب عليه ما نصه : قولك إن الفرنساوية ليس لهم دين البتة ، وإنهم ليسوا نصارى إلا بالاسم فيه نظر ، نعم إن كثيرا من الفرنساوية خصوصا من سكان « باريس » ليسوا نصارى إلا بالاسم فقط لا يعتقدون اعتقادات دينهم ، ولا يتعبدون بعبادات النصرانية ، بل هم فى أعمالهم لا يتبعون إلا أهواءهم ، تشغلهم أمور الدنيا عن ذكر الآخرة ؛ تراهم مادامت حياتهم لا يهتمون إلا باكتساب الأموال بأى وجه كان ، وإذا حضرهم الموت ماتوا كالبهائم ، ولكن فيهم أيضا من يقيم على دين آبائه يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويعمل الصالحات ، وهم طائفة لا تحصى من الرجال والنساء ، ومن العوام والخواص ، بل ومن المشهورين بفضل العلم والأدب ، غير أنهم فى ورعهم وتقاهم على مراتب شتى : منهم من يشارك عامة الناس

تصرفاتهم ، ويحضر معهم فى محافل اللذات أعنى « السبكتاكل » « والبال » ومجامع الأغانى ، ومنهم المتقشفون المعرضون عن كل ما تشتهيه الأنفس ، وهؤلاء أقل عددا ، وإن دخلت كنائسنا (ص ١٢٩) أيام الأعياد المعظمة ظهر لك صحة قولى .

هكذا انتهت عبارته والحامل له على ذلك : كونه من أرباب الديانة ؛ وعددهم نادر ولا حكم له .

ومن الخصال العادية المهولة ببلاد الفرنسيس أو بلاد النصارى «القاثوليقية» : عدم الإذن بزواج القسيسين على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ، فإن عدم زواجهم يزيدهم فسقا على فسقهم .

ومن الخصال الذميمة : أن القسيسين يعتقدون أنه يجب على العامة أن يعترفوا لهم بسائر ذنوبهم ، ليغفروها لهم ، فيمكث القسيس فى الكنيسة على كرسى يسمى كرسى الاعتراف ، فسائر من أراد أن تغفر ذنوبه يذهب إلى كرسى الاعتراف ، داخل باب بينه وبين القسيس حائل كالشبكة ، فيجلس ؛ ثم يعترف قدامه بذنوبه ، ويستغفره ، فيغفر له. وقد عرف عندهم أن أكثر من يدخل الكنيسة أو يذهب إلى الاعتراف يكون من النساء والصغار ، وهذا موافق لقول بعض شعراء العرب :

إن من يدخل الكنيسة يوما    يلق فيها جآذرا وظباء

ودرجة القسيسية عندهم مختلفة فأولهم الكردينال وهو بعد « البابا » فى الرتبة ، وذلك أن البابا قبل توليته يشترط أن يكون « كردينالا » ؛ ثم بعده « المطران » ثم بعده « الأسقف » ثم « الخورى » ثم « نائب الخورى » ثم « الشماس » .

وعند الفرنساوية أعياد دينية متنقلة : يعنى لا تقع فى يوم معين كل سنة ؛ بل هى دورية ومرتبة فى الغالب على وقوع عيد الفصح .

فمن أعيادهم الغريبة «عيد الرفاع» وقد تقدم ، ومنها عيد ظهور السيد المسيح ، ويسمى عند الفرنسيس : عيد الملوك ، وذلك أن كل عائلة تصنع فطيرة عظيمة ، وتضع فيها حبة فول فى عجينها ، ويقسمون الفطيرة على الندامى ، فكل من جاءت حبة الفول فى نصيبه فهو الملك ، فان جاءت فى نصيب رجل فإنه يسمى باسم الملك ، ويخاطب فوق المائدة وتمام الليلة بخطاب الملوك ، ثم يختار من النساء امرأة يجعلها

الملكة ، فتخاطب أيضا بذلك الخطاب ، وإن جاءت الفولة فى نصيب امرأة فإنها أيضا تختار من الحاضرين شخصا كالزوج لها ، وتطلق عليه اسم الملك ، فيكون سائر إكرام الليلة للملك والملكة ، برسوم خاصة ، وقوانين مألوفة ، وهذه الكيفية تصنع فى سائر البيوت فى مدينة « باريس » حتى فى بيت ملك الفرنسيس .

ومن جملة بدع القسيسين أنهم يصنعون فى عيد القربان موكبا (ص ١٣٠) ويلبسون فيه حللا مطرزة ، ويدورون المدينة بشىء يسمونه « البونديو » وكلمة « البونديو » مركبة من كلمتين: الأولى: « بون » ومعناها: طيب ، أو عظيم ، والثانية ، « ديو » ومعناها : الإله ، فكأنهم يقولون إن الإله حاضر فى الجحفة[1] التى بين أيدى القسوس ، والمراد عندهم « بالبونديو » عيسى عليه السلام. والفرنساوية يعرفون أن هذه الأمور من باب الهوس الذى يدنس بلادهم ، ويزرى بعقول أهلها . غاية الأمر أن العائلة السلطانية كانت تعين القسيسين على هذه الأمور ، فتمتثل الرعية لذلك مع غاية الحط والتشنيع .

وللقسيسين بدع لاتحصى . وأهل باريس يعرفون بطلانها ، ويهزءون بها ، ولهم أعياد أخر لايسعها هذا الكتاب .

ثم إن لكل إنسان من الفرنساوية عيدا وهو يوم مولد القديس الموافق له فى اسمه فإذا كان إنسان اسمه بولص ومثلا فإن عيده يكون عيد « مارى بولص » ، فترى كل إنسان اسمه « بولص » يصنع وليمة ويشهر عيده ، وفى عيد الإنسان يهادونه بأنواع الأزهار .

---

(١) الجحفة : بقية ماء فى حوض .

## الفصل الثالث عشر

### [ فى ذكر تقدم أهل باريس فى العلوم والفنون والصنائع ، وذكر ترتيبهم ، وإيضاح ما يتعلق بذلك]

الذى يظهر لمن تأمل فى أحوال العلوم والفنون الأدبية والصناعة فى هذا العصر بمدينة «باريس» أن المعارف البشرية قد انتشرت وبلغت أوجها بهذه المدينة ، وأنه لا يوجد من حكماء الإفرنج من يضاهى حكماء « باريس » بل ولا فى الحكماء المتقدمين كما هو الظاهر أيضا ، غير أن صاحب النقد السديد قد يقول : إن سائر الفنون العلمية التى يظهر أثرها بالتجارب ، معرفة هؤلاء الحكماء بها ثابتة ، وإتقانها عندهم لانزاع فيه ، كما يشهد لذلك قول بعض أجلة الحكماء : « الأمور بتمامها ، والأعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها » .

وأما أغلب العلوم والفنون النظرية فإنها معروفة لهم غاية المعرفة ، ولكن لهم بعض اعتقادات فلسفية ، خارجة عن قانون العقل ، بالنسبة لغيرهم من الأمم ، غير أنهم يموهونها ويقوونها ، حتى يظهر للإنسان صدقها وصحتها ، كما فى علم الهيئة مثلا ، فإنهم محققون فيه : وأعلم ممن عداهم بسبب معرفتهم بأسرار الآلات المعروفة من قديم الزمان ، والمخترعة له .

ومن المعلوم أن المعرفة بأسرار الآلات أقوى معين على الصناعات (ص١٣١) غير أن لهم فى العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية ، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها ، وسيأتى لنا كثير من بدعهم ، وننبه عليها فى محالها إن شاء الله تعالى .

وإنما نقول هنا : إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع ، فسائر كتب الفلسفة يجرى فيها الحكم الثالث ، من الخلاف الذى ذكره صاحب متن السلم فى الاشتغال بعلم المنطق ، فحينئذ يجب على من أراد الخوض فى لغة الفرنساوية المشتملة على شىء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة ، حتى لا يغتر بذلك ، ولا يفتر عن اعتقاده ، وإلا ضاع يقينه ، وقد قلت جامعا بين مدح هذه المدينة وذمها :

أيوجدُ مثلُ «باريس» ديارٌ　　شموسُ العلم فيها لا تغيبُ
وليلُ الكفر ليس له صباحٌ　　أما هذا وحقكم عجيبُ !

ومن جملة مايعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر مايكملها ، فان لغتهم لاتحتاج إلى معالجة كثيرة فى تعلمها ، فأى إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان ، حيث أنه لا التباس فيها أصلا ، فهى غير متشابهة . وإذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا ، فإن الألفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر ، بخلاف اللغة العربية مثلا ، فإن الإنسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة ، ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها .

وأما كتب الفرنسيس فلا شئ من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولاحواش إلا نادرة ، وإنما قد يذكرون بعض تعليقات خفيفة تكميلا للعبارة بتقييد أونحوه ، فالمتون وحدها من أول وهلة كافية فى إفهام مدلولها ، فاذا شرع الانسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكّة الألفاظ ، فيصرف سائر همته فى البحث عن موضوع العلم ، وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر مايمكن إنتاجه منها ، وأما غير ذلك فهو ضياع مثلا إذا أراد إنسان أن يطالع علم الحساب ، فإنه يفهم منه مايخص الأعداد من غير أن (ص ١٣٢) ينظر إلى إعراب العبارات ، وإجراء مااشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة لتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبر بالفاء فى محل الواو والعكس أحسن ، ونحو ذلك ، ثم إن الفرنسيس يميلون بالطبيعة إلى تحصيل المعارف ، ويتشوّقون إلى معرفة سائر الأشياء ، فلذلك ترى أن سائرهم له معرفة مستوعبة إجمالا لسائر الأشياء ، فليس غريبا عنها ، حتى إنك إذا خاطبته تكلم معك بكلام العلماء ، ولو لم يكن منهم ، فلذلك ترى عامة الفرنساوية يبحثون ، ويتنازعون فى بعض مسائل علمية عويصة ، وكذلك أطفالهم فإنهم بارعون للغاية من صغرهم ، فالواحد منهم كما قال الشاعر :

عشق المعانى الغرّ وهو مراهق　　وافتضّ أبكارَ الفنون وليدا

فانك قد تخاطب الصغير الذى خرج من سن الطفولية عن رأيه فى كذا وكذا، فيجيبك بدلا عن قوله لاأعرف أصل هذا الشىء بما معناه «الحكم على الشىء فرع عن تصوره» ونحو ذلك، فأولادهم دائما متأهلون للتعلم والتحصيل ، ولهم تربية عظيمة ، وهذا فى الفرنسيس على الإطلاق .

والعادة أنهم يزوجون أولادهم قبل تمام تعلمهم، وهذا يكون غالبا فى عشرين إلى خمس وعشرين سنة، فقل منهم من كان فى سن العشرين، ولم يبلغ درجة التدريس، أويتعلم صنعته التى يريدتعلمها، غير أنه قد يمكث مدة طويلة ليتمكن من العلوم والفنون غاية التمكن ، وهذا السن فى الغالب تظهر به براعة الانسان وحسن طالعه ، كما قال الشاعر :

إذا ما أول الخطى أخطا فما يرجى لآخره انتصار
إذا جاز الفتى عشرين عاما وما بلغ المراد فذاك عار

فكأن هذه(١) السن عندسائرالأمم سن انتهاء الناجب، فانظر إلى الأخضرى فإنه فى سن إحدى وعشرين سنة قد نظم رسالة السلم وشرحها ، وكذلك العلامة الأمير فإنه فى دون العشرين بيسير صنف مجموعه فتورك(٢) على قول الأخضرى:

ولبنى إحدى وعشرين سنه معذرة مقبولة مستحسنه

بأنه وهوفى دون ذلك السن ألف فى أصعب من ذلك المقام. وماقلناه بالنسبة لأرباب المعارف من الإفرنج .

وأما علماؤهم فانهم منزع آخر لتعلمهم تعلما تاما عدة أمور ، واعتنائهم زيادة على ذلك بفرع مخصوص ، وكشفهم كثيرا من الأشياء ، وتجديدهم فوائد غير مسبوقين بها ، فإن هذه عندهم هى أوصاف العالم ، وليس عندهم كل مدرس عالما ، ولاكل مؤلف علامة؛ بل لا بد من كونه بتلك الأوصاف ، ولابد له من درجات معلومة ، فلايطلق عليه ذلك الاسم إلا بعد استيفائها والارتقاء ، ولاتتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس إنما هم علماء فى الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا ، وأما من يطلق عليه اسم العالم فهو من له معرفة فى العلوم العقلية ، التى من جملتها علم الأحكام والسياسات .

(١) فى الأصل ( هذا ) .
(٢) تورك : اعتمد .

ومعرفة العلماء فى فروع الديانة النصرانية هينة جدا ، فإذا قيل فى فرنسا : هذا الإنسان عالم لايفهم منه أنه عالم فى دينه ، بل إنه يعرف علما من العلوم الأخر[ى]، وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى فىالعلوم عمن عداهم ، وبذلك تعرف خلو بلادنا ، عن كثير منها ، وأن الجامع الأزهر المعمور بمصرالقاهرة ، وجامع بنى أمية بالشام ، وجامع الزيتونة بتونس ، وجامع القرويين بفاس ، ومدارس بخارى ونحو ذلك كلها زاهرة بالعلوم النقلية ، وبعض العقلية كعلوم العربية ، والمنطق ، ونحوه من العلوم الآلية ، والعلوم فى مدينة باريس تتقدم كل يوم ، فهى دائما فى الزيادة فإنها لاتمضى سنة إلا ويكشفون شيئا جديدا ، فإنهم قد يكشفون فىالسنة عدة فنون جديدة ، أو صناعات جديدة ، أو وسائط ، أو تكميلات ، وستعرف بعض هذا إن شاءالله تعالى .

ومما يستغرب : أن فى رجال العسكرية منهم من طباعه توافق طباع العرب العربا فى شدة الشجاعة الدالة على قوة الطبيعة ، وشدة العشق الدالة ظاهرا على ضعف العقل ، مزاجهم كالعرب فىالغزل بالأشعار الحربية . وقد رأيت لهم كلاما كثيرا يقرب من كلام بعض شعراء العرب مخاطبا لمحبوبته بقوله :

ولقد ذكرتك والوغى بحر طغى    والنقع لسيل والأسنة أنجم
فحسبته عرسا ونحن بروضة    وأنا وأنت بظله نتنعم

(ص١٣٣) وقول الآخر :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل    منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها    برقت كبارق ثغرك المتبسم

وقول صاحب لامية العجم :

لاأكره الطعنة النجلاء قد شفعت    برشقة من نبال الأعين النجل(١)
ولا أهاب صفاح البيض تسعدنى    باللمح من خلل الأستار فى الكلل(٢)
ولا أخل بغزلان تغازلنى    ولو دهتنى أسود الغيل بالغيل(٣)

---

(١) عين نجلاء : واسعة جميلة .
٢) الكلل : جمع كلة ، وهى الستر الرقيق .
(٣) الغيل : الشجر الكثير الملتف ، والغيل : جمع غيلة ، وهى القتل خدعة .

ولنذكر لك مجامع العلماء ، والمدارس المشهورة ، وخزائن الكتب ، ونحو ذلك لتعرف به مزية الإفرنج على غيرهم .

فمن خزائن الكتب: الخزانة السلطانية ، وفيها سائرماأمكن الفرنساوية تحصيله من الكتب فى أى علم كان بأى لغة كانت ، مطبوعة أو منسوخة ، وعدة مافيها من الكتب المطبوعة أربعمائة ألف مجلد ، وفيها مبلغ عظيم من الكتب العربية الخزائنية التى يندر وجودها بمصر أو بغيرها ، وفيها عدة مصاحف لا نظير لها أبدا ، ثم إن المصاحف التى عند الفرنساوية فى خزائنهم غير مهانة ، بل هى مصونة غاية الصون ، وإن كان عدم إهانتها حاصلا غير مقصود ، غير أن الضرر فى كونهم يسلمونها لمن يريد أن يقرأ القرآن منهم أو يترجمه أو نحو ذلك . وتوجد المصاحف للبيع فى مدينة « باريس » ، وبعضهم لخص من القرآن العظيم سائرالآيات التىاختارها للترجمة ثم ترجمها ، وضم إليها قواعد الإسلام ، وبعض شعبه ، وقال فى كتابه: إنه يظهر له أن دين الإسلام هو أصفى الأديان ، وأنه مشتمل على مايوجد فى غيره من الأديان .

ومن خزائن الكتب: الخزانة المسماة خزانة «مسيو»وتسمى خزانة«الأرسنال »(١) ومعنى « أرسنال » ( ترسانة ) وهى أعظم الخزائن بعد الخزانة السلطانية ، وبها نحو مائتى ألف مجلد مطبوعة ، وعشرة آلاف منسوخة ، وأغلب هذه الكتب كتب تاريخ وأشعار ، خصوصا الأشعار الإيطاليانية .

ومنها: خزانة « مزارينه(٢) » ، وفيها خمسة وتسعون ألف مجلد مطبوعة ، وأربعة آلاف منسوخة .

ومنها: خزانة « الأنسطيطوت(٣) » أى دار العلوم ، وفيها خمسون ألف مجلد .

ومنها: خزانة المدينة ، وهى نحو ستة عشر ألف مجلد ، وهى دائما فى الزيادة ، وكتبها آداب .

ومنها: خزانة بستان النباتات(٤) ، وفيها عشرة آلاف مجلد ، فى العلوم (ص١٣٥)

---

(1) Arsenal la bibliotheque.

(2) Mazarine.

(3) Bibliotheque de L' Institut.

(4) La Bibliotheque du jardin dcs plantes.

وفيها خزانة الرصد السلطانى ، وفيها كتب علم الهيئة :

ومنها : خزانة مكتب الحكمة . ومنها خزانة «أكدمة(١)الفرنسيس » وهى خمسة وثلاثون ألف مجلد ، وكل هذه خزائن موقوفة.

وهناك خزائن مملوكة وهى كثيرة جــدا : فمنها ما يشتمل على خمسين ألف مجلد ، ومنها للدولة نحو أربعين خزانة ، فأقل مايوجد فى كل خزانة منها ثلاثة آلاف مجلد . وأكثرها فى الغالب خمسون ألف مجلد . وقد تنيف عن ذلك . ولا حاجة لتسميتها هنا .

ولكل إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة كتب على قدر حاله ، ويندر وجود إنسان «بباريس» من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب ، لما أن سائر الناس تعرف القراءة والكتابة . وسائر بيوت الأعيان فيها خلوة مشتملة على خزانة الكتب ، وعلى آلات العلوم وأدواتها ، وعلى التحف الغريبة التى تتعلق بالفنون ، كالأحجار التى يبحث عنها علم المعادن ونحو ذلك ؛ ففى «باريس» كثير من الخزائن التى يقال لها «خزائن المستغربات»(٢) ، فيوجد بها ماتتشوق إليه نفوس الفضلاء ليستعينوا به على الغوص فى الطبيعيات كالمعادن والأحجار والحيوانات البرية والبحرية المحفوظة الجثة ، وسائر المواليد من الأحجار والنباتات ، وسائر الأشياء التى فيها آثار القدماء .

وتعلق هذه الأشياء بالعلوم أن الإنسان يدرس مايراه فى الكتب ويقابله ، فان رآى فى كتاب تعريف حجر كذا ؛ وحيوان كذا . وكان الحجر أو الحيوان نصب عينه قابله مع الأوصاف المذكورة فى الكتب ؛ وأنفع الأشياء بالنسبة للطبيعيات بمدينة «باريس» البستان السلطانى المسمى «بستان النباتات» وفيه سائر مايعرفه البشر من الأمور الخارجة من الأرض الغريبة ، ويزرع بأرضه سائر النباتات الأهلية التى يعالجون تطبعها عندهم بقوة الصناعة والحكمة ، فيطالع طلبة علم العقاقير والحشائش دروسهم ويقابلون مافى الكتاب على مايرونه ، ويأخذون فرعا من كل صنف من الحشائش يضعونه فى نحو ورقة ، ويكتبون اسمه وخاصيته. وفيه أيضا سائر مراتب الحيوانات الحية غريبة أو أهلية برية أو وحشية ، فيوجد بها نحو الدب الأبيض والأسود ، والسبع ، والضبع ، والنمورة

(1) Bibliotheque de L' Academie Française

(٢) يريد بها المتاحف « Les musées »

والسنانير الغريبة، والإبل، والجواميس، وغنم بلاد التبت، وزرافة سنار، وفيلة الهند، وغزلان البربر، والأيل، وبقر الوحش، وأنواع (ص١٣٦) القردة، والثعالب، وسائر أنواع الطيور المعروفة لهم. وسائر هذه الحيوانات التى تراها حية بهذا البستان تراها ميتة أيضا محشوة بالتبن، يراها الإنسان على صورة الحية، كبو البقر الذى يصنعه الفلاحون بوادي مصر.

ويوجد فى هذا البستان أروقة مملوءة بالمعادن النفيسة، وسائر الأحجار سواء كانت (غشيمة) (١) أو طبيعية، فترى فيها مراتب الطبيعيات الثلاثة بسائر أجناسها وأنواعها وأصنافها، ففيها كثير من الأشياء التى لا يمكن أن نجد لها أسماء عربية كحيوانات بلاد أمريكية أو نباتها وأحجارها.

وكل هذه الأشياء موضوعة بهذا البستان كالعينة أو الأنموذج من كل شيء، ومكتوب على كل شيء اسمه باللغة الفرنساوية، أو اللاطينية. مثلا فى القاعة التى فيها سبع مكتوب غليها اسم السبع باللغة الفرنساوية وهو «ليون» وهكذا.

ومما وقع فى هذا البستان ما اشتهر أن بعض السباع قد مرض، فدخل حارسه، ومعه كلب فقرب الكلب من الأسد، ولحس جرحه فبرئ الجرح، فحصلت الألفة بين الأسد والكلب، ودخلت محبة الكلب فى قلب الأسد فصار الكلب يتردد دائما على الأسد، ويتملق إليه، ويراه كأنه من أصحابه، فلما مات الكلب مرض الأسد لفرقته، فوضعوا معه كلبا آخر، امتحانا لتطبعه، فتسلى به عن الميت، ولا زال معه.

وفى بستان النبات رواق يسمى «رواق التشريح» وفيه جميع «الموامى» أى الجثث المحنطة المصبرة ونحوها من الجثث.

ويوجد بهذا الرواق بعض شيء من جثة المرحوم الشيخ سليمان الحلبي الذى استشهد بقتله للجنرال الفرنساوى «كليبر» وقتل الفرنساوية له فى أيام تغلبهم على مصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ومن محالّ العلوم الفلكية «الرصد السلطانى» (٢) بمدينة «باريس» وهو من أغرب المراصد الموجودة على ظهر الدنيا، وذلك أنه مبنى من مجرد الحجارة بغير دخول الحديد أو الخشب فى مادته، وهو على شكل مسدس الأسطحة المتوازية القائمة الزوايا، موجه

---

(١) غشيمة أى غفلا، خاما.

(2) L' Obrerratire Royal

الضلوع الأربعة إلى الجهات الأربع : الشرق ، والغرب ، والشمال ، والجنوب . وفى طرف الجهة الجنوبية صومعة ان مثمنتا الزوايا ، وفى طرف الجُهة الشمالية صومعة ثالثة مربعة وهى باب الرصد ، وفيه رسم الفرنسيس فى رواق فى الدور الأول خط نصف نهارهم ، فخرج ذلك الخط يقسم الرواق قسمين متساويين (ص١٣٧) فمن هذا الخط يحسب الفرنساوية درجة الطول ، فينسبون إليه غيره من الأماكن المغايرة له فى السمت ، وقد أسلفنا ذلك موضحا فى الفصل الأول من المقالة الثانية ، وارتفاع سطحه ثلاث وثمانون قدما فوق الأرض ، وهو منقسم إلى عدة أروقة مناسبة لحاجة أشغال الفلك ، فمن هذه الأروقة ستة لها مارق مفتوحة قطر كل ممرق ثلاثة أقدام ، وهو موضوع على كيفية يمكن معها رؤية السماء ، ويعين فيها على مايحتاج إلى رصده ، فترى منها النجوم وأنت فى المخادع التى تحت الأرض ، وفى هذه الأروقة امتحنوا ثقل الأجسام الطبيعية ، وميزان الهواء . وفى هذا الرصد رواق كبير فيه آلات ، وعلى قُلّته آلة تعديل الرياح المسماة : «الانيمومتر»(١) بها تقاس قوة الرياح وفيها طشت يسمى «دن العيار» يعدل به ماء المطر الذى ينزل كل سنة .

ومخادع هذا الرصد هى داخلة فى الأرض التى عمقها يساوى سمك حيطان الرصد ، وإلى هذه المخادع ينزل بدرج على الدوران والانعطاف ، كدرج المنارة ، وعدة درجها ثلثمائة وستون ؛ ووظيفة هذه المخادع أنها قد تفيد الطبائعية والكيماوية أن يصنعوا بها تجاربهم بأن يجمدوا فيها المائعات ، ويبردوا بها الأجسام ؛ ليعرفوا مزاج الأهوية ، وفيها رواق يسمى « رواق المناجاة » أو رواق الأسرار وذلك أن فيه أمرا عجيبا من قرع الصوت للأذن ، أى وصوله بالهواء إليها ، وذلك أن بالرواق عمودا يقابله عمود آخر ، فاذا وضع الإنسان فمه على العمود ، وأسر بكلام فإنه يسمعه الإنسان الذى بالعمود الآخر ، ولا يسمعه من يقرب منه ، وهذه الأمور يفهمها من له إلمام بخاصية الصوت .

ومن المحال العلمية بمدينة باريس موضع يقال له : « الكنسرو توار » ( بضم الكاف ، وسكون النون ، وكسر السين ، وسكون الراء ، وفتح الواو ، وسكون التاء ) كلمة فرنساوية معناها المخزن أو المحفظ ، أو نحو ذلك ، وفى هذا المحل جميع الآلات

(١) Anémomètre

سواء العظيمة وغيرها، خصوصا الآلات الهندسية ، كآلات الحيل، وتحريك الأثقال، ويزعم الفرنساوية أنه ليس فى الدنيا نظير هذا المخزن ، وفى هذا المحل يرد الصدى صوت الشخص برد عجيب .

ثم إنه يكثر بباريس مدارس سائر العلوم والفنون والصنائع ، وقد سلف الكلام على اعتناء الفرنساوية بالحكمة يعنى علم الطب ولهم فيها (ص١٣٨) مدارس كثيرة .

ولنذكر هنا محال العلماء ومراتبهم فنقول: إن العلماء فى مدينة «باريس» لهم مجامع عظيمة تسمى بأسماء مختلفة، فمنها مايسمى: «أكدمة»، ومنها مايسمى: مجمعا أو مجلسا، «والأنسطيطوت» عندهم اسم عام يشتمل على جميع اجتماع «الأكدمات» أى المجالس الخمس، وهى: «أكدمية» اللغة الفرنساوية و «أكدمية» العلوم الأدبية، ومعرفة الأخبار والآثار ، «وأكدمية» العلوم الطبيعية والهندسية ، و«أكدمية» الصنائع الظريفة(١) ، و«أكدمية» الفلسفة. وقولنا «أكدمية» أو «أكدمة» أو «أقدمة» هو لفظ مأخوذ من اسم مكان فى مدينة «أثينا» كان أفلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء : «الأكدميون» وكان يقال لهذا المكان «أكدمية» لأن صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه : «أكدمس»، وقد جعل هذا المكان وقفا لأهل مدينة «أثينا» ، وصيروه بستانا يتماشون فيه ، ويتفرجون، فكان يدرس فيه أفلاطون، ومنه قيل لجماعة أفلاطون «أكدميون» ويقال لهم «أفلاطونيون» وهم مشهورون أيضا فى كتب العربية بالإشراقيين (بالقاف، والفاء) ويقال لهم أيضا إلهيون ، ويطلق « أكدميون » الآن عند الفرنساوية فيفهم منه بمجرد إطلاقه أهل أكدمة الفرنسيس، وهم كبار علماء الفرنساوية، فإذا قيد فالمعنى ظاهر كما إذا قيل: «أكدمة مصر» ، فالمراد بها الجامع الأزهر ، لأن المراد به ديوان أكابر علماء مصر .

فأول علماء «باريس» بل وعلماء فرنسا ديوان العلوم المسمى : «أكدمة الفرنسيس» وأهلها أربعون عالما، كل واحد من الأربعين يسمى : عضوا ، يعنى أن هذا الديوان بأربابه كالبدن، وكل واحد كالعضو منه، وفى الغالب أن أرباب هذا الديوان لهم فضل عظيم على من عداهم من الفرنساوية، ووظيفتهم تأليف القواميس الفرنساوية ، وأنهم

(١) يريد بها الفنون الجميلة « Les Beaux Arts »

يمتحنون مؤلفات العلوم الأدبية وكتب التاريخ. وقد اتفق أن بعض علماء الفرنسيس قد بلغ درجة عالية فى العلوم، وصلح لأن يكون من أرباب هذه «الأكدمة» بدل واحد من أربابها مات، وكان هذا العالم كثير المجون، فتوقفوا فى قبوله فى هذا الديوان، فما كانت حيلته إلا أنه كان دائما يعرض بهجو أهلها. فمن نوادر وقائعه: أنه مر ذات يوم ومعه بعض أصحابه على هذه «الأكدمة» فتحدث مع أصحابه، فتذاكروا فى فضل علماء «أكدمة» فقال: (ص١٣٩) لاشك أن عقول أرباب هذا الديوان كعقل أربعة، يشير بذلك إلى بعض الأمثلة(١) الفرنساوية، من قولهم فى مدح الإنسان: إن له عقلا كعقل أربعة ومشيرا إلى أن عقل كل عشرة منهم كعقل واحد، فظاهر عبارته من باب المدح وباطنها غير ذلك.

ومن نوادره: أنه كتب قبل موته كعادة الفرنساوية على رخامة قبره المهيأ له بيت شعر باللسان الفرنساوى يقول فيه ما معناه بالعربية:

ها قبر من لم يك شيئا أتمه كلا ولا من علماء أكدمه

ومعناه: هذا قبر من لم يصل إلى درجة أيا ما كانت حتى لو بلغت هذه الدرجة فى الحقارة درجة هؤلاء العلماء.

وهناك أكدمة تسمى «أكدمة تقييد الفنون الأدبية» وأهل ديوان هذه الجمعية ثلاثون نفسا، ووظيفتها الاشتغال بالألسن النافعة، وبآثار القدماء خصوصا بالمبانى الغريبة، وبالعلوم الأدبية وبعوائد الأمم وأخلاقها، وغالب شغلها تكميل آداب العلوم الفرنساوية بما خلت عنه، مما هو فى كتب علوم اللغات الغريبة، كاللاطينية، والعربية، والفارسية، والهندية، والصينية، واليونانية، والعبرانية، والقبطية وغيرها.

ومن الأكدمات الأكدمة المسماة «أكدمة العلوم السلطانية» وأهلها منقسمون أحد عشر قسما، لكل قسم منهم فرع مخصوص فتكون فروعهم اثنى عشر فرعا: فأهل القسم الأول: يشتغلون بالرياضيات، كالهندسة والحساب: وأهل القسم الثانى بعلوم الحيل كعلم جر الأثقال ونحوه، والثالث: بالعلوم الفلكية، والرابع: بالعلوم الجغرافية، والعلوم التجريبية، والخامس: بعلم الطبيعة العامة، والسادس: بالطبيعة،

---

(١) يريد الأمثال.

والسابع : بعلم المعادن والأحجار ، والثامن : بعلم الحشائش ، والتاسع : بتدبير مصاريف الأرض ، والعاشر : بتطبيب الدواب ، والحادى عشر : بالتشريح ، والثانى عشر : بفن الطب والجراحة .

ومنها : الأكدمة السلطانية المسماة : «أكدمة مستظرفات الفنون»(١) ، وهى خمسة فروع : الأول : فن الرسم ، الثانى : فن النحاتة ، الثالث : فن العمارات ، الرابع : فن النقاشة ، والخامس : فن تركيب حروف الموسيقى .

ومنها : مكتب الفنون الظريفة ، وهو مكتب موقوف على تعليم علم الرسم وتوابعه ، وفيه يتعلم الرسم ، والنقاشة والعمارة .

ومن مجالس العلوم جمعية تسمى : « أثينة الفنون » وهى تعين على تقدم الفنون والصنائع ، وهى (ص١٤٠) كالحكم الذى ينفذ الأشياء ، ويقضى فيها برأيه .

ومنها : « أثينة باريس » السلطانية ، وهى محل علوم وفنون ، ولا يكون فيها الإنسان للتعلم إلا إذا دفع شيئا يسيرا كل سنة ، والمدرسون فيها أرباب فضل .

ومنها : جمعية تسمى «الجمعية الفيلوماتية»(٢) ومعناه : محبو العلوم ـ والغرض من هذه الجمعية الإعانة على التقدم فى علوم التولدات ، وهى مرتبة الحيوانات والنباتات والمعادن .

ومنها : جمعية تشتغل بعلوم الإنشاء والبلاغات والغرض من هذه الجمعية تدوين العلوم الأدبية ، وحفظ غريبها ، حتى لا تفسد لغة الفرنسيس ، وإذا اخترع الإنسان معنى غريبا ، أو أجاب عن سؤال غريب أو قال شعرا مقبولا ، فإنهم يعطونه جائزة ذلك .

ومنها : جمعية تسمى « حسن الدروس » ووظيفتها تعليم الآداب القاثوليقية ، والدين القاثوليقى .

ومنها : جمعية تسمى « أكدمة ابنا أبلون » يعنى الأدباء ، وهى مجلس أرباب الفنون الأدبية .

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الأسياتية(٣) يعنى فى لغات أهل آسيا ، واللغات

(1) Les Beaux Arts.

(2) La socièté philomathéque.

(3) La société Astatique

المشرقية ، ووظيفتها تحصيل كتبها الغربية ، وترجمتها إلى الفرنساوية ، أو طبعها لتشتهر .

ومنها : جمعية تسمى « الجمعية الجغرافية » وهى معدة لتحسين وتكميل علم الجغرافيا ، فهى تقوى الناس على السفر إلى البلاد المجهولة الأحوال ، فإذا سافر فيها إنسان ورجع يطلبون منه سائر ماعلقه عليها ، فتأخذ ماعلقه وتقيّده وتدخله فى كتب الجغرافيا ولذلك كان ذلك العلم عند الفرنساوية دائما يأخذ فى الكمال . وبالجملة : فهذه الجمعية هى التى تخدم سائر مايتعلق بالجغرافيا ، كطبع ( الخرطات ) ونحوها .

ومنها: الجمعية « الغرماتيقية » يعنى المشتغلة بنحو اللغة الفرنساوية فإن علم النحو يسمى فى اللسان الفرنساوى « الأغرمير » وباللاطينية والإيطالية « أغرماتيقا » ووظيفة هذه الجمعية : الاشتغال بتصحيح اللغة وتجديد اصطلاحات ، أو إبقاء الاصطلاحات القديمة ؛ لأن اللسان الفرنساوى لسان غير قار القواعد كتابة وقراءة .

ومنها: جمعية تسمى « جمعية المولعين بالكتب الخزائنية » ووظيفة أهل هذه الجمعية الحث على طباعة الكتب النافعة النادرة .

ومنها: جمعية للخطاطين ، وأهلها يشتغلون بإجادة الخط .

ومنها جمعية تسمى : جمعية المغناطيسية الحيوانية ، وهى جماعة تقول : بوجود سيال مغناطيسى فى الحيوان .

ومنها: جمعية « حفظة آثار (ص١٤١) القدماء» ، وهى جمعية معدة لحفظ سائر مايوجد من الآثار الباهرة عند القدماء ، كبعض مبانيهم ، ومومياهم ، وملبسهم ونحو ذلك ، والبحث عن ذلك: ليتوصل به إلى دراسة عوائدهم ففى ذلك يوجد كثير من الأمور النفيسة المأخوذة من بلاد مصر ، كالحجر المصور عليه فلك البروج المأخوذ من « دندرة » فإن الفرنساوية يتوصلون به إلى معرفة الفلك على مذهب قدماء أهل مصر ، فإن مثل ذلك يأخذونه بغير شىء إلا أنهم يعرفون مقامه ، فيحفظونه ، ويستخرجون منه نتائج شتى ، ومنافع عامة .

ومنها: مكتبة تسمى «مكتبة الأطوال» ، وأهلها اثنا عشر : ثلاثة مهندسون ، وأربعة فلكيون ، وأربعة بحرية ، وواحد جغرافى ؛ فيشتغلون بعلم الهيئة ، وتأليف (الرزنامات)

السنوية ، وتحرير الزيجات(١) ، وذكر أطوال البلاد .

ومنها : الجمعية السلطانية فى علوم الفلاحة ، وتحرير توفير المصاريف البرانية والجوانية وأهل هذه علماء، أغنياؤهم يعطون الجائزة لمن يخترع شيئا جديدا نافعا .

ومنها جمعية لتحسين الأصواف ، ووظيفة أهلها مباشرة ما يتعلق بالغنم .

ومنها : جمعية تعين على حث الفرنساوية على البراعة فى الفنون والصنائع ، وهى تعين الصنائع بسائر أنواعها على التقدم ، فاذا اقترح إنسان شيئا نافعا أخذ من أهل هذه الجمعية تحفة عظيمة وشهرة .

وفى باريس مدارس سلطانية تسمى : « الكوليج » (بضم الكاف ، وفتح اللام ، وسكون الياء ) وهى مدارس يتعلم فيها الإنسان العلوم المهمة التى تكون وسائل فى الأمور المقصودة منها ، وهى خمسة (كوليجات ) يدرس فيها صناعة الإنشاء والتأليف ، والألسن القديمة الغريبة . والعلوم الرياضيات ، وعلم التاريخ ، والجغرافيا ، والفلسفة ، وأصول الطبيعيات ، يعنى كتبها الصغيرة ، وعلم الرسم ، وعلم الخط وفيها مراتب للطلبة ، فإن الإنسان يسلك فيها فى العادة مرتبة كل سنة ، ففى كل سنة من ست سنين يخرج الإنسان من مرتبة إلى أعلى ، فهى بالترقى ، لا بقوة الفهم ولا بغيره ، فلا يمكن للانسان أن يتعدى أبدا [مرتبته] .

وهناك ( كوليجان ) آخران غير سلطانيين ، وفيهما يدرس ما يوجد فى ( الكوليجات ) الخمسة السابقة ، وفيها (كوليج ) آخر يسمى (كوليج الفرنساوية السلطانى) وهو أعظم جميعها فيتعلم فيه الرياضيات ، والطبيعية المخلوطة بالحساب ، والطبيعية العملية ، والهيئة ، والطب (ص١٤٢) ، والتشريح العمليان ، وفيه تعلم اللغات : كالعربية والفارسية ، والتركية ، والعبرانية ، والسريانية ، والهندسة ، ولغة أهل الصين ، وعلومهم ولغة التتار ، والحكمة اليونانية التى هى فلسفة اليونان ، وعلم الفصاحة والبلاغة فى اللسان اللاطينى ، وعلوم بلاغة اللغة الفرنساوية . وهذا ( الكوليج) يشتمل على أكابر المدرسين ، وفيه ستة آلاف طالب ، ومن أشهر المدارس : مدرسة « بوليتقنيقا »(٣)

---

(١) التقاويم .

(2) Collége.

(3) L' Éçole Polytechnique

( بضم الباء وكسر اللام ، وسكون الياء والقاف ، وكسر التاء والنون ، وسكون الباء ) يعنى مدرسة كليات العلوم ، وفيه يدرس الرياضيات ، والطبيعيات، لتربية مهندسين فى علم الجغرافيا ، وفى العسكرية ، فمهندسو الجغرافيا يهندسون القناطر والأرصفة والطرق والجسور والخلجان، وكل آلات الحيل ورفع الأثقال . وأما مهندسو العلوم العسكرية، فهم يهندسون القلاع والحصون والبروج ،والتوقى من ضرر الأعداء، واتخاذ العراضى ، وهندسة تسييب البارود . وأرباب هذه المدرسة محققون، لهم باع فى سائر العلوم ، ويكفى فى فضل الإنسان أن يكون من تلاميذها

ومنها : مكتب يسمى « مكتب الفروع الفقهية » فيدرسون فيه أحكام المعاملات والجنايات ونحوها .

ومنها : مكتب موقوف على تعليم علم الرسم ، فيدرس فيه الذكور والإناث علم التصوير .

ومنها : مكتب الغناء السلطانى فيتعلم فيه أيضا الذكور والإناث علم الألحان الصوتية والغناء الكنائسى .

ومنها : مكتب موقوف أيضا على الرسم والرياضيات، لتكون وسائل للفنون ، فيتعلم فيه الحساب ، والهندسة ، والقياس ، ونحاتة الحجر والخشب ، وعلم المساحة، وتصوير البهيمة، والآدمى، والأزهار وأنواع الزينة .

ومنها : مكتب القناطر والجسور : وفيه يتعلم هندسة الطرق والخلجان والأرصفة.

ومنها : مكتب سلطانى لتعلم علم المعادن ، وفيه يتعلم وسائط كشف المعادن واستخراجها .

ومنها : مدرسة الفنون والحرف يتعلم فيها علما الكيميا والهندسة الداخلان فى الحرف والفنون ، وفيها يوجد سائر آلات الصنائع الموجودة إلى هذا العصر .

ومنها : مكتب يسمى : مكتب اللغات المشرقية المستعملة ، وفيه يتعلم الفارسى والملابارى والعربية الأصلية والدارجة ولغة الترك والأرمن والروم .

ومنها : مكتب يسمى «مكتب الأرليغولوغى»(١) بفتح الهمزة وسكون الراء وكسر (ص١٤٣) اللام ، وسكون الياء ، وضم الغين واللام وكسر الغين الأخيرة) يعنى تفسير

---

(1) L' École de L' archéologie

الكلمات المكتوبة من قديم الزمان فى اللغات القديمة ، فيفسرون فيه النقود والمعاملات المكتوبة فى الأزمنة السالفة والأحجار المنقوشة ، وترجمه الهياكل القديمة المكتوبة .

ومنها : مكتب سلطانى يتعلم فيه تواريخ الدول وسياساتها ، ونحو ذلك .

ومنها : مكتب سلطانى للموسيقى والإنشاء ، والخطابة ، وفيه يتعلم أهل اللعب والغناء والآلاتية ، من الذكور والاناث ، وأهل التعلم به أربعمائة نفس .

ومنها : مدرسة بستان السلطان ، التى هى بستان النباتات ، وبها يقرأ ثلاثة عشر درسا فى جملة فروع . كعلم الحشائش ، والطبيعيات ، والكيميا ، والمعادن ، والتشريح ، والمقابلة بين أجزاء بدن الآدمى والبهيمة .

ومنها : مكتب يسمى «مكتب البستنجية»(١) وفيه يتعلم علم زراعة الشجر ، وحفظه من البرد ، وتطبيع(٢) النباتات الغريبة المنقولة على إقليم المحل الذى نقلت إليه .

ومنها : مكتب تقليم الأشجار غير المثمرة لإخراج ثمرها .

ومنها : مكتب تعليم النباتات والمعادن لمن يريد السفر فى بلاد ليميز نباتها ومعدنها .

ومنها : مكتب يسمى : «طب البهائم(٣)» ، وفيه يتعلم تطبيب البهائم ، وفيه مارستانات للحيوانات المريضة ، وفيه مدرسة كيميا ، ومدرسة لعلم الطبيعة ، وفيه العقاقير ، وبستان حشائش ، ومكتب للفلاحة العملية ، وجملة أجناس من البهائم ، معدة لتجربة اختلاف أصناف البهائم وأصولها ، فيطلقون فيه صنفا مثلا من الخيل على صنف آخر ، كحصان عربى على حجرة(٤) أندلسية ليتولد منهما صنف آخر .

ومنها : مكتب الصم البكم ، وهو موقوف على مائة نفس ، ويدخلون فيه من إحدى عشرة إلى ست عشرة ، فيتعلم فيه القراءة والكتابة ، والحساب واللسان ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وصنعة من الصنائع . وفى هذا المكتب ( ورشة ) يتعلم فيها علم الطباخة ، والنقاشة ، والنجارة والخراطة والخياطة ، ( والصرماتية ) ونحوها .

ومنها : مكتب العميان السلطانى ، وهو موقوف على جملة محصورة من العميان ، فيتعلمون القراءة على شىء مكتوب لهم كتابة مخصوصة فيمسونها باليد ، ويتعلمون

---

(١) البستنجية : البستانيين - يريد علم فلاحة البساتين .

(٢) التطبيع : جعلها تنطبع بحالة الإقليم الجديد .

(٣) يريد الطب البيطرى .

(٤) الحجرة بكسر الحاء : الأنثى من الخيل .

. أيضا علم الجغرافيا ، على خرطات مخصوصة أيضا ، ويتعلمون التاريخ واللغات : والرياضيات ، والموسيقى بالصوت وبالآلة ، وغير ذلك من الحرف كشغل الجرابات ونحوه .

وغير ماذكرنا يوجد أيضا (ص ١٤٤) عدة مدارس .

ويوجد فى «باريس» أيضا مكاتب تسمى : « البنسيونات » جمع «بنسيون» ( بفتح الباء وسكون النون ، وكسر السين ، وضم المثناة التحتية ، وسكون الواو ) وهى مكاتب يتعلم فيها الصغار الكتابة والقراءة وعلوم الآلات كالحساب ، والهندسة ، وغيرها ، كالتاريخ ، والجغرافيا ، وهى نحو مائة وخمسين ( بنسيونا ) وفيها أكل الانسان ، وشربه ، ونومه ، وغسل ثيابه ، ونحو ذلك ، فيدفع أهالى الأولاد قدرا معلوما فى السنة .

وغير البنسيونات المذكورة يوجد بيوت يكون صاحبها عالما ، فيأخذ عنده عدة أولاد ، ليأكلوا معه ، ويشربوا معه ، ويعلمهم بنفسه ، أو يحضر لهم معلمين عنده .

وغير هذا كله فكثير من الناس يحضر لأولاده المعلم فى البيت كل يوم ليعلمهم عنده .

ومن الأشياء التى يستفيد منها الإنسان كثير الفوائد الشاردة التذاكر اليومية المسماة « الجرنالات »(١) ، جمع « جرنال » وهو يجمع فى اللغة الفرنساوية على « جرنو » وهى ورقات تطبع كل يوم ، وتذكر كل ماوصل إليهم علمه فى ذلك اليوم ، وتنشر فى المدينة وتباع لسائر الناس ، وسائر أكابر « باريس » يرتبونها كل يوم ، وكذلك سائر القهاوى . وهذه « الجرنالات » مأذون فيها لسائر أهل فرنسا أن تقول مايخطر لها ، وأن تستحسن وتستقبح ماتراه حسنا أو قبيحا ، وأن تقول رأيها فى تدبير الدولة ، فلها حرية تامة ، مالم تضر بذلك ، فإنه يحكم عليها وتطلب بين يدى القاضى .

« والجرنو » عصب ، فكل جماعة لها فى رأيها مذهب كل يوم تقويه وتحاميه ، وتؤيده . ولا يوجد فى الدنيا أكذب من « الجرنالات» أبدا خصوصا عند الفرنسيس الذين لايتحاشون الكذب إلا من حيث كونه عيبا .

---

(١) الصحف Les journaux

وبالجملة فكتاب « الجرنو » أسوأ حالا من الشعراء عند تحاملهم أو محبتهم .

«والجرنالات» مختلفة الأنواع والأصناف. فنها ماهو معد لذكر أخبار داخل مملكة الفرنسيس وخارجها . ومنها ماهو مخصوص بأمور المملكة فقط ، وما هو للمعاملات وما هو للطب ، ولكل علم على حدته كعلم الطب إلى آخره .

والجرنال الواحد ينطبع منه غالبا للبيع خمسة وعشرون ألف نسخة ، وكل جرنال تكثر نسخه على حسب رغبة الناس. وأرباب « الجرنو » يعرفون الأخبار الغريبة قبل غيرهم ، لأن لهم مراسلات مع سائر البلاد ، وهم فى الواقع كخطباء الأمة يتعرضون للمدح والذم ، (ص١٤٥) والاستحسان والاستقباح ، والتحسين والتقبيح ، والاغراء والتحذير ، إلى غير ذلك. وقبلهم فى ذلك المؤلفون ، وربما اتخذ المؤلفون خطابات أرباب «الكازيطات» (١) ، مادة لهم وأعلى درجة منهم أرباب الخطابات بالجمعيات العمومية الذين هم من أعضاء المجالس ، وهم أعلى طبقة فى الاعتبار من الشعراء ، فإذا نظرت وجدت هذا على نسق العرب فى قديم الزمان ، فقد قال أبو عمرو بن العلاء مانصه : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر ، الذى يقيد عليهم مآثرهم(٢) ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ، ومن غزاهم ، ويهيب(٣) من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة ، وتشرعوا(٤) إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. ولذلك قال الأول : الشعر أدنى مروءة السرى(٥) وأسرى(٦) مروءة الدنى ، ولقد وضع(٧) قول الشعر من قدر النابغة الذبيانى ، ولو كان فى الدهر الأول مازاده إلا رفعة .

---

(١) الكازيطات Gszettes هى الصحف .

(٢) فى الأصل : بآثرهم ـ تحريف .

(٣) هيب إلى فلان : جعله مهيبا عنده .

(٤) يريد : اتخذوا إلى أعراض الناس طريقا .

(٥) السرى : صاحب الشرف والمروءة .

(٦) أسرى : أشرف .

(٧) وضع من فلان : حط من قدره .

ومن جملة علوم « باريس » الدفاتر السنوية ، والتقويمات الجديدة، والزيجات[١] المصححة، ونحو ذلك . فكل سنة يظهر فيها كثير من ( الروزنامات ) المشتملة على التواقيع وعلى غرائب العلوم والفنون ، وعلى كثير من أمور الدولة ، وعلى تسمية أكابر الدنيا ، وتسمية أعيان فرنسا ، وتعيين بيوتهم ودرجاتهم ووظائفهم ، فإذا احتاج الإنسان إلى اسم واحد ، وإلى بيته راجع فى ذلك الكتاب .

وفى « باريس » ( أوض ) القراءة أوخلوات القراءة ، فيذهب الانسان فيها ، ويدفع قدرا معلوما ، ويقرأ سائر « الجرنالات » وغيرها من الكتب ، ويستأجر منها ما يحتاجه من الكتب ويأخذه عنده ويرجعه .

ومما يبهر العقول فى باريس دكاكين الكتبية وخاناتهم ، وتجارات الكتب ، فإنها من التجارات الرائجة مع كثرتها وكثرة المطابع ، وكثرة التآليف التى تنطبع كل سنة فإنها يعسر حصرها ، وأغلبها المقصود منه الكسب لا النفع ، ولا تمر سنة بمدينة « باريس » إلا ويخرج من المطبعة كتب معدومة النظير ، واعتناؤهم بالمعارف هو أحسن ماينبغى أن يمدحوا به ، قال الشاعر :

إذا شئت أن تحظى من الكتب كلها بأطيب مروى وأحسن مسموع
ص١٤٦) فطالع مجاميع الدفاتر ، إنها تفرق من هم الفتى كل مجموع

وقال آخر :

اجعل جليسك دفترا فى نشره ليريك من حكم الزمان نشورا
ومفيد[٢] آداب، ومؤنس وحشة وإذا انفردت فصاحبا وسميرا

وبالجملة فلا يمكن وصف مدينة « باريس » مع تفصيل علومها وفنونها ، إلا أنه يمكن التعبير عن ذلك إجمالا كما ذكرنا .

---

(١) الزيجات : التقاويم .
(٢) الأصل : « معيد » وهو تحريف .

# المقالة الرابعة

فيما كنا عليه من الاجتهاد والاشتغال بالفنون المطلوبة لتحصيل غرض الوالى : وفى تدبير إشغال الزمن فى القراءة والكتابة وغيرهما ، وفى المصاريف الواسعة الخارجة من طرف الوالى ، وفى عدة مراسلات بينى وبين بعض خواص الإفرنج تتعلق بالتعلم. وفى ذكر ما قرأته من الفنون والكتب بمدينة « باريس » .

ومن هذه المقالة تفهم أن تعلم الفنون ليس سهلا ، وأنه لابد لطالب المعارف من اقتحام الأخطار ، لبلوغ الأوطار ، فى تلك الأقطار .

قال الشاعر :

دعينى أنل مالا ينال من العلا — فصعب العلا فى الصعب ، والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة — ولابد دون الشهد من إبر النحل

وقال آخر وهو من الكلام الجامع :

من كان يعلم أن الشهد راحته — فلا يخاف للدغ النحل من ألم

وقال آخر أيضا :

إن الفضائل بالأخطار مولعة — فابغ الفضائل وابذل جهدك الثمنا
وإن أراك الهوى منه الهوان فقل — حكم المنية فى حب الحبيب منى

# الفصل الأول

[فيما حصل لنا فى أول الأمر من الترتيب فى القراءة والكتابة وغيرهما]

من عادة أهل « باريس » أنهم فى التعلم يبتدئون بتعليم الانسان القراءة فى كتب عظيمة الحروف لترسم صورها فى ذهنه ، وفى هذه الكتب توجد الحروف الهجائية بتركيبها ، ثم بعدها عدة ألفاظ لغوية من الأسماء والأفعال . فهذه الطريقة يتعلم الإنسان منها الكتابة، ويحفظ هذه الكلمات، وينطق بها ( ص١٤٧ ) كما ينبغى ، حتى تخرج لغته من صغره صادقة الجودة ، ثم بعدها تلقى فى هذه الكتب مدة جمل سهلة التعقل ، تناسب الصغار ، فمن هذه الجمل ما وجدناه فى الكتاب الذى قرأناه : هذه فرس لها أربع أرجل ، والطيور ليس لها إلا رجلان لكن لها أجنحة تطير بها ، وأما السمك فإنه يسبح فى الماء ، ونحو ذلك مما هو معلوم للمخاطب ، فهو مثل قول النحاة : السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ، الممثل به لما لم يفد فائدة جديدة ، على اختلاف تفسير الوضع(١) فى قولهم : الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع ، ثم بعد ذلك يوجد فى هذا الكتاب أوصاف الحيوانات المعروفة ، خصوصا التى تتعلق الصغار باللعب بها : من العصافير ، والطيور ، والسنانير ، ونحو ذلك ، ثم بعد ذلك نبذة صغيرة فى كيفية سلوك الصغار ، وطاعتهم للوالدين ، ونحو ذلك ، ثم نبذة فى علم الحساب ، فبعد فراغ هذا الكتاب يبدءون فى قراءة كتاب أهم منه .

وفى كتاب النحو الفرنساوى وغيره ، وتقسيم الزمن على دروس الإنسان ، فإن الإنسان يتعلم فى النهار عدة أمور مختلفة ، فيقرأ فى الصباح مثلا التاريخ ، ثم بعده درس تصوير مع معلم الرسم ، ثم بعده درس النحو الفرنساوى ، ثم بعده درس تقويم البلدان ، ودرسا مع معلم الخط لتعلم قواعد الكتابة : إلى آخره . وقد أسلفنا ذلك .

(١) يقول علماء الوضع : إن الكلمات إنما أفادت معانيها بوضعها لهذه المعانى .

ولما كانت آمال الولى متعلقة بتعلمنا عاجلا ، ورجوعنا إلى أوطاننا ابتدأنا فى « مرسيليا » قبل وصولنا إلى « باريس » وتعلمنا فى نحو ثلاثين يوما التهجى ، ثم لما ذهبنا إلى « باريس » مكثنا جميعا فى بيت واحد ، وابتدأنا فى القراءة ، فكانت أشغالنا مرتبة على هذا الترتيب ، وهو : أنا كنا نقرأ فى الصباح كتاب تاريخ ساعتين : ثم بعد الغداء نتعلم درس كتابة ومخاطبات ومحاورات باللغة الفرنساوية : ثم بعد للظهر درس رسم ، ثم درس نحو فرنساوى ، وفى كل جمعة ثلاثة دروس من على الحساب والهندسة . وفى مبدأ الأمر كنا نأخذ فى الخط درسين : يعنى فى معرفة الكتابة الفرنساوية ، ثم بعد ذلك كنا نأخذ كل يوم درسا ، ثم انتهى الأمر إلى أننا تعلمنا الخط ، فانقطع عنا معلم الخط ، وأما الحساب والهندسة والتاريخ والجغرافيا فلم نزل تشتغل بها حتى سهل الله علينا بالرجوع ، وقد مكثنا جميعا فى بيت واحد دون سنة نقرأ معا فى اللغة الفرنساوية ، وفى هذه الفنون المتقدمة ، ولكن (ص١٤٨) لم يحصل لنا عظيم مزية إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوى ، ثم بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين ، أو ثلاثة : أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم ، فى نظير الأكل والشرب والسكنى . والتعليم وتعهد أمورنا : من غسل ، ونحوه ، فكان يأخذ صاحب المكتب أو البيت نحو عشرة أكياس كل سنة فى نظير ذلك ، ولا يلزمنا شئ فى المأكل والمشرب .

ولما كانت طباع هذه البلاد شدة البرودة كان لكل واحد منا فى كل سنة بثلثمائة قرش خشب للتدفى بها ، وغير هذه المصاريف العظيمة كان يشترى لنا من طرف ( الميرى ) أيضا القمصان والسراويل والنعال وسائر ما يلزم من الآلات والأدوات ، مثل الكتب والورق والحبر وأقلام التصوير وغيرها . ومما ينبغى ذكره أيضا ما كان يعطى للحكماء ( والأجزاجية ) فى مداواة من كان يمرض منا : فان الحكماء «بباريس» مع كثرتهم غاية الكثرة ، يأخذون فى زيارتهم للمريض الموسر قدرا له وقع ، على اختلاف مراتبهم فى الشهرة وعدمها ، ويتعدد القدر بتعدد الزيارة(١) ، وهذا إن لم

(١) فى الأصل (الزيادة) ، وهو تحريف .

يكن للحكيم سنوية معلومة ، وقد أسلفنا ذلك فى باب اعتناء الفرنساوية بالطب ، وتعهدهم للصحة ، فأقل الحكماء يأخذ فى كل زيارة يمكث فيها نحو نصف ساعة ثلاثة فرنكات ، والحكيم المتوسط يأخذ فى كل زيارة خمسة فرنكات ، والحكيم الجليل القدر يأخذ فى كل زيارة أبلغ من خمسين فرنكا ، وكلما تعددت الزيارة فى اليوم الواحد تعدد القدر . وأما بالنسبة للمعدم فقد لا يأخذون منه شيئا . ونحن نعد هناك من الموسرين ، بل من الأغنياء لتجملنا بالملبس الغريب عندهم ، ولنسبتنا للوالى .

ولكثرة هذه المصاريف فى تعليمنا وغيره من سائر ما ذكرنا ، كان ناظر التعليم أو الضابط علينا يذكرنا به فى أغلب الأوقات لنجتهد ، وسترى بعض ذلك فى مراسلات كتبها لى بعد الامتحان العام .

## الفصل الثانى

[ فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج]

حين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا إلا يوم الأحد الذى هو عيد الإفرنج بورقة إذن البواب من الضابط الذى نظره علينا الوالى، ثم بعد (ص١٤٩) تفرقنا فى المكاتب المسماة «البنسيونات»(١) كنا نخرج أيام البطالة، وهى يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس، وأيام أعياد الفرنساوية، ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء إن لم يكن له درس بعده. ولنذكر لك هنا «قانون نامة» الذى صنعه (الأفندية) بعد دخولنا فى «البنسيونات» وعبارته :

هذه صورة ترتيب (الأفندية) فى «البنسيونات».

المادة الأولى: أن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة التاسعة، ويأتوا إلى البيت المركز من أول الأمر، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم إلى (الأفندى) (النوبتجى) فى هذا الشهر، لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت، وبعد ذلك يذهبون إلى المواضع المعدة للفرجة، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة، ثم يرجعون إلى « البنسيونات » فى أيام الصيف فى الساعة التاسعة، وفى أيام الشتاء فى الثامنة .

وهذا الترتيب لازم ولابد، فإن رجع أحد إلى «البنسيون» قبل ذلك، وتعشى هناك، فهو أولى وأحسن ومن اللوازم أن لا يدور أحد فى الأزقة ليلا، ومتى دخل فى «البنسيونات» يعطى الورقة المذكورة للمعلم .

المادة الثانية: أن من لم يمتثل لخصوص ماسبق يمنع الخروج من «البنسيون» بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين .

المادة الثالثة : أن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع، ولا تقبل، حتى

---

(١) Les Pensions

يكتبها فى ورقة ، ولا تسمع إلا من جهة التعليم ، أو من جهة أخرى يحصل له منها ضرر ، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة ، ثم يكتبها (للنوبتجى) فى هذا الشهر .

المادة الرابعة : أن جميع ( الأفندية ) يمتحنون فى آخر كل شهر ، ليعرف ماحصلوه من العلوم فى هذا الشهر ، ويسألون عما يحتاجون إليه من الكتب والآلات ، ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح ، ولأجل هذا ينبغى التفكر فى هذا بالخصوص ، لأجل تحصيل غرض الوالى :

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئا من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك « مسيوجومار » فإن رآه مناسبا يعطيهم ذلك بعد مايخبر (النوبتجى) فإن اشترى أحد شيئا من غير إجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده .

المادة السادسة : أنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة ( ص١٥٠ ) الرابعة إن استحق أحد من (الأفندية) الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة (١) .

المادة السابعة : فى محل التفرج أو الطريق لاينبغى لأحد منهم أن ترتكب مايخل بمروءته وهذا الأمر هو أهم الجميع ، وممنوع أشد المنع .

المادة الثامنة : أن كل الأفندية الذين هم فى « البنسيونات » لايدخلون فى البيت المركز إلا كل خمسة عشر يوما مرة ، وهو يوم الأحد .

المادة التاسعة : أن يوم الأحد الذى لايأتون فيه إلى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين إلى مواضع التفرج أو الرياضة أو ماينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ، إن لم يكن عليهم شغل ، فيذهبون مع من ذكر إلى المواضع المذكورة .

المادة العاشرة : يتبعون قوانين «البنسيون» كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الأمور المتعلقة بالدين .

المادة الحادية عشرة : (٢) إذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر مخالفته ، وإذا

---

(١) يريد النقود . والسكة فى الأصل : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم .
(٢) فى الأصل ( عشر ) ، وهو خطأ .

أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وإن كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقة ، وأطواره غير مرضية ، وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حاله ، وتبين عصيانه فمثل ماذكر الوالى فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين له من أهالى هذه المدينة ، ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا إلى مصر من غير شك ولا شبهة .

المادة الثانية عشرة : (١) أن جميع (الأفندية) يكونون فى « البنسيونات » فى هذا الترتيب على حد سواء ، وإن كان فى « البنسيونات » مائدتان إحداهما للمعلمين ، والأخرى للتلامذة (فأفنديتنا) يأكلون مع معلميهم .

المادة الثالثة عشرة : (١) إن (الأفندية) المذكورين يلزمهم جميع ماذكر من القوانين من غير امتياز ، وبسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك .

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هى خلاصة أفكارنا ، ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا الوالى ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعه ، مع التنبه لأجل تحصيل رضاء الوالى ، فمن لم يمتثل ، أو تعلل بشىء يجرى عليه ماهو مذكور فى قانونه .

---

(١) فى الأصل : عشر ؛ خطأ .

# الفصل الثالث

## [فى ترغيب الوالى لنا فى الشغل والاجتهاد]

جرت عادته من مدة (ص ١٥١) خروجنا من مصر بأنه كان يبعث لنا «فرمانا» كل عدة أشهر، يحثنا فيه على تحصيل الفنون والصنائع، فمن هذه «الفرمانات» ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية إحياء القلوب مثل الفرمان الآتى، ومنها ما كان من باب التوبيخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض الناس حقا أو غير ذلك، (كفرمان) آخر وصلنا قبل رجوعنا إلى مصر القاهرة، ولنذكر لك هنا (فرمانا) من النوع الأول الذى هو إحياء القلوب، وإن كان فيه أيضا شائبة توبيخ لتعلم كيف كان يحثنا على التعليم. وهذه صورة ترجمته:

قدوة الأماثل الكرام (الأفندية) المقيمين فى «باريس» لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم.

ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة، وما فهمنا منها شيئا وأنتم فى مدينة مثل مدينة «باريس» التى هى منبع العلوم والفنون، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم، وهذا الأمر غمنا غما كثيرا، فيا (أفندية) ما هو مأمولنا منكم، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من أثمار شغله وآثار مهارته، فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة، وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون، فإن ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية، وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون، فينبغى للانسان أن يتبصر فى عاقبة أمره، وعلى العاقل ألا يفوّت الفرصة، وأن يجنى ثمرة تعبه، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة، وتركتم أنفسكم للسفاهة، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك،

ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم ، لتتميزوا بين أمثالكم ، فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة ، والحساب ، والرسم ، ومابقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شهر ما تعلمه (ص ١٥٢) فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو إما من عدم اعتنائكم ، أو من تشويشكم ، وأى تشويش لكم هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى تفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرؤا هذا الأمر مجتمعين ، وأفهموا مقصود هذه الإرادة .

قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر ، فى مجلسنا فى إسكندرية ، بمنه تعالى : فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (خمسة فى ربيع الأول ، سنة ١٢٤٥) خمسة وأربعين بعد الألف والمائتين من الهجرة . انتهت صورة المكتوب .

ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه وما تعلمناه فى ذلك الشهر . ويكتب تحته المعلمون أسماءهم ويبعثونه إلى الوالى ، فلما تساهل بعض منا فى ذلك كتب « مسيو جومار » إلينا جميعا مكاتيب ، ليأمر من كان مواظبا على كتابة هذه الأوراق فى كل شهر أن يدوم على مواظبته ، ويوبخ من تساهل . وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى أرسله إلى فى هذا المعنى ، ولنذكره كما هو :

باريس ١٥ فى شهر يونية ٢٥ فى شهر محرم سنة ١٢٤٦

إلى محبنا العزيز الشيخ رفاعة

لا يخفى عليكم الأمر الوارد من الوالى المتعلق بالأوراق الشهرية ، المشتملة على الدروس التى قرأتموها ، فدم على ما أنت عليه من المواظبة ، وابعث هذه الأوراق فى اليوم الثلاثين كل شهر « لمسيو المهردار أفندى » واطلب منه أوراقا غير مكتوبة ، لتكتبها بعد ذلك ، ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ فى كتابتها إلا نصف

ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ، ومعرفة نوعها . وليكتب رئيس مدرستك فى كل شهر فى الورقة الشهرية تحت اسمك ، ولا يخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك .

چومار

أحد أرباب ديوان الأنسطيطوت

## الفصل الرابع

### [فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء]
### الفرنساوية غير مسيو جومار

(ص١٥٣) فممن كاتبنى عدة مرات «مسيو دساسى» ولنذكر لك بعض مكاتيبه، فنها ما كتبه باللغة العربية ، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية :

صورة مكتوب منه :

من الفقير إلى رحمة ربه سبحانه وتعالى ، إلى المحب العزيز المكرم ، والأخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوى ، صانه الله عز وجل من كل مكروه وشر ، وجعله من ذوى العافية وأصحاب السعادة والخير .

أما بعد : فإن القطعة التى أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس ، وحوادث إقامتك فى باريس رددتها إليك على يد غلامك ، ويصلك صحبتها حاشية منى على ماتقوله فى باب تصريف الفعل فى لغتنا الفرنساوية ، فإذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضى ، فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوروبا كلها وفى ممالكها ، حتى يهتدى أهل مصر إلى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها ، فانه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ، ودمت سالما .

كتبه المحب سلوسترى دساسى

صورة مكتوب آخر :

إلى حبيبنا الشيخ رفاعة الطهطاوى ، حفظه الله ، وأبقاه .

أما بعد : فإنه سيصلك مع هذا ماطلبته منا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك . وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه، ويعجب من وقف عليه. ولابأس أن تعرض خط يدنا على «مسيو جومار»

وإن شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة سعادة الباشا وينعم عليك بما أنت أهله ودمت على أحسن حال .

محبك الداعى : سلوسترى دساسى الباريزى

وصحبة هذا المكتوب أرسل إلى ورقة باللغة الفرنساوية لأطلع عليها «مسيو جومار» وهى بالتقريظ أشبه ، وصورة ترجمتها ،

لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره المؤلف باللغة العربية قرأت هذا التاريخ إلا اليسير منه ، فحق لى أن أقول : إنه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم إخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنه يشتمل على بعض أوهام إسلامية ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العالم (ص ١٥٤) وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد ، سليم الفهم ، غير أنه ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به إلا على « أهل باريس » والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها ، حيث لم يطلع على غير « باريس » وبعض المدن .

وقد حرص[1] فى باب العلوم على ذكر المعلومات توطئة للتوصل إلى المجهولات خصوصا فى نبذته المتعلقة بعلم الحساب ، وبهيئة الدنيا

وعبارة هذا الكتاب . فى الغالب واضحة غير متكلف فيها التنميق ، كما يليق بمسائل هذا الكتاب . وليست دائما صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ، ولعل سبب ذلك أنه استعجل فى تسويده ، أنه سيصلحه عند تبييضه وفى التكلم على علم الشعر ذكر استطرادا بعض أشعار عربية أجنبية من موضوع هذا الكتاب ، على ما يظهر لى . لكنه ربما أعجب ذلك إخوانه من أهل بلاده ، وفى الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ، ذكر بعض أشياء قليلة الجدوى فينبغى له حذفها ، وما ذكرت هذه الأشياء وبينتها هذا التبيين إلا للاعلام بأنى دققت النظر فى قراءتى هذا الكتاب

وبالجملة فقد بان لى أن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون

---

(١) فى الأصل ( أحرص ) تحريف .

نافعا فى بلاده ، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندى منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة .

البارون سلوسترى دساسى

باريس فى شهر فبريه سنة ١٨٣١ ( ١٩ فى شعبان سنة ١٢٤٦ ) .

و(هذه) صورة ترجمة مكتوب كتبه لى قبيل خروجى من مدينة «باريس» :

بعد إهداء السلام إلى مسيو رفاعة ، يحصل لى حظ عظيم إذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى ، والساعة فى ٣ إن أمكنه أن يسرنى برؤيتى له لحيظات لطيفة ، ويحصل لى أيضا غاية الانبساط إذا بعث لى أخباره بعد وصوله إلى القاهرة ، فاذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره ، وأستنشق أخباره ، مع انجذاب قلب ، وانشراح صدر .

البارون سلوسترى دساسى

وصورة ما كتبه « مسيو كوسين دى برسوال » مدرس اللغة العربية المتداولة فى المحاورات ، المشهورة باسم الدارجة عند العامة ، بدار كتب خانة السلطانية (ص١٥٥) «بباريس» وكنت كتبت له أن يبعث لى رأيه فى هذه الرحلة ، فكتب هذا الجواب ، وصورته :

حضرة المحب العزيز الأكرم ، الفصيح اللسان والقلم ، جناب الشيخ رفاعة المحترم ، حفظه الله آمين .

بعد إهدائكم جزيل السلام ، ومزيد التحية والإكرام ، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجتكم ، فواصل لكم طية تحرير تحتوى على رأينا فى كتاب حوادث سفركم الذى تفضلتم علينا بإطلاعنا عليه ، وبالحقيقة قلنا مثل ماهو اعتقادنا وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن . وأما بخصوص المذام فما لقينا من ذلك شيئا .

وحيث إنكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر ، فالمأمول من حسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة إلى بلادكم لا تحرمونا من خاطركم ، وتواصلونا بالإعلام .

بصحتكم ، ونترجاكم أيضا أنه إذا طبع كتابكم تبعثوا(١) لنا منه نسخة ، وبذلك تصيرونا(٢) ممنونين ، ولأفضالكم شاكرين ، والله تعالى يحفظكم والسلام .

محبكم كوسين ذى برسوال

٢٤ شباط سنة ١٨٣١ .

والمراد بطيه التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب ، وقال رأيه فيه .

وصورة ترجمة هذه الطية التى كتبها لمسيو جومار باللغة الفرنساوية ليخبره برأيه فى هذه الرحلة : قرأت بالتأمل مؤلف الشيخ رفاعة الملقب بتخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين إلى فرنسا من طرف وزير مصر الحاج محمد على باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات موجزة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة . وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فإنه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها ، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوروبا العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابة أهل الإسلام ، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجى ، والترقى فى صنائع المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك . وما نظر فيه فى بعض العبارات يدل فى الغالب (ص١٥٦) على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل .

وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة. وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدى كان الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام ، فما رأيت منه إلا نبذة فى الرياضيات ، وعلم هيئة الدنيا ، ومبادئ أصول الهندسة . والجغرافيا الطبيعية ، فهذه النبذات وإن كانت موجزة إلا أنها مشبعة . فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النبذات الباقية بهذه المثابة ، وإذا اجتمعت

---

(١) الصواب : تبعثون .

(٢) الصواب : تصيروننا .

هذه النبذات فى الكتاب هذا فإنها تكون كتاب علوم مستقل ، مفتاحا لغيره من العلوم نافعا لأهل العربية ، وإذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فإنه يستبدل به على رفعة عقل مؤلفه ، واتساع دائرة معرفته .

كوسين دى برسوال

فإذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن « مسيودساسى » و « مسيوكوسين » اتفقا على حسن هذا الكتاب ، وعلى بساطة عبارته ، أى عدم التأنق فيها ، وعلى نفعه لأهل مصر .

وإنما « مسيودساسى » عابه بثلاثة أشياء : اشتماله على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الإسلام ، الثانى : جعلنا ما ينسب لمدينة « باريس » وغيرها من المدن عاما لسائر بلاد فرنسا ، الثالث : ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل الشكل المدور على غيره من الأشكال .

وأما « مسيوكوسين » فإنه لم يتعرض لما جعله « مسيودساسى » من باب الأوهام ، ولما تحدثت معه فى شأن ذلك أجابنى بأنه لم ير ذلك مضرا ، حيث إنى كتبت على ما هو فى اعتقادى ، وإلا لو تتبعت ما قاله الإفرنج ، ووافقت آراءهم للحياء أو غيره لكان ذلك محض موالسة ، وأما قوله « كمسيودساسى » : إن عبارة هذا الكتاب بسيطة فمعناه أن تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة : يقال عند علماء الفرنساوية ، عبارة بسيطة فى مقابلة العبارة البليغة .

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بينى وبينه محبة أكيدة ، وصورة اجتماعى لهذا الشخص أنى دخلت مكتبه لقراءة « الكازيطات » أى الوقائع اليومية ، فتعرفت بهذا الشخص الذى هو ( محاسبجى ) فى وزارة الخزينة المالية ، وأخوه مأمور «دبرطمانه(١) » يعنى إقليما من أقاليم الفرنساوية ، وهو من بدنة عظيمة ، تسمى : « السلادانية » نسبة إلى « سلادان » يعنى صلاح الدين يتوهمون أنهم ينتسبون (ص١٥٧) إلى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، قائلين : إنه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الإفرنج تسرى بفرنساوية ، فحملت منه ، ثم انطلقت إلى بلادها ، فبقى الاسم فى أولادها

---

(١) departement أى إقليم .

وذراريها إلى الآن . ثم إنى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ، ومازلت معهم على الصحبة الأكيدة مدة إقامتى فى « باريس » ، فلما سافرت كان عند أخيه المأمور فى إقليم الترك فى مدينة يقال لها « إلبى » فأرسل إلى هذا المكتوب ، وهذه صورة ترجمته ، مع بعض حذف جائز .

إلى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة

قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ، ليعطيها لك ، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمن يسير ، وقد وكلنى أخى بأن أخبرك بثنائه عليك على ماصنعته معه من الجميل فى إعارتك له هذه الأمانة ، وأن أهنيك على بلوغك المأمول :

هل عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز؟ فإن شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب ، وتجده بخير ، فقد بلغنى أن سفرك قد قرب جدا ، حتى إننى لاأظن أن أقابلك فى مدينة «باريس» ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير لاجتمعنا فى مرسيليا وودعتك فى آخر مدينة من مدن الفرنساوية تعبر فيها فى سفرك ، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لافترقنا فى مدينة «باريس» التى كان بها أول اجتماعنا ، ولا أدرى إن كان التلاقى مقدرا أم لا ، ولكن تقلبات الدهر كثيرة ، خصوصا للإفرنج ، فلا يمكننى أن أجزم بعدم الاجتماع . وبالجملة فلا شك أنك تركت فى فرنسا صديقا يتذكرك ، ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضر ، ويسر غاية المسرة إذا بلغه أنك تحظى فى بلادك بثمرة فضلك وأوصافك ، وليت شعرى ترجع إلى بلادك بأى اعتقاد فى طبيعة الفرنساوية ، وقد رأيت هذه الملة فى وقت ينبغى أن يكون تاريخا من غرائب سيرها ، وأظن أنك تسأل فى بلادك مرارا عديدة عن هذه الفتنة العظيمة ، ونصرة الفرنساوية فى طلب الحرية .

فإذا وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة أيام فمأمولى أن أراك فى مدينة « باريس » وإلا فأرجو منك ألا تسافر حتى تودعنى بلسان القلم بمحبتى لك غاية المحبة . انتهت صورته

جول سلادان

وهذه صورة مكتوب تفهم منه أيضا رغبة الفرنساوية فى تحصيل الكتب (ص ١٥٨) الغريبة وترغيبهم للمؤلفين أو المترجمين فى ترجمة الكتب وتأليفها . وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب :

إلى مسيو الشيخ رفاعة :

قد حملنى «مسيو دبنغ» أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، لأن « مسيو دبنغ » مؤلف هذا الكتاب ، فإذا كانت ترجمتك تنطبع فى مصر هل(١) يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيد اسمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء ، ونعرفك أنك تخبرنا إلى أى محل وصلت فى الترجمة من المجلد الأول من جغرافية ملطبرون ، فإن هذا الجزء الآن يطبع طبعا آخر مصححا مشتملا على زيادات لاتوجد فى الأول فلا بأس أن نحيطك به علما ، فإنه يكمل طبعه فى أثناء هذا الشهر . ومنى إليك مزيد التحية .

محبك الصادق : رنو

بخزانة الكتب السلطانية بباريز

---

(١) الصواب : فهل .

# الفصل الخامس

[فى ذكر ماقرأته من الكتب فى مدينة ، «باريس» وفى كيفية الامتحانات ، وفيما كتبه لى «مسيو جومار» ، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير ، فى الوقائع العلمية ، وأذكر هنا ما قرأته مرتبا بهذا الترتيب ، وإن تكرر مع ما سبق ]

## تعليم أصول نحو اللغة الفرنساوية

كان خروجنا من الكرنتينة فى السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١ (١٢) ، وبعد أيام قليلة فى مرسيليا ابتدأنا فى التهجى والقراءة ، وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجى ، ووصلنا «باريس» فى شهر محرم ، فرجعنا ثانيا للابتداء فى أصول الهجاء ، واشتغلنا بذلك نحو شهر ، ثم ابتدأنا جميعا فى قراءة أجرومية « تومند »(١) فى نحو اللغة الفرنساوية ، وكان المعلم يضيف إليها من أجرومية أخرى ما يحتاج إليه الحال فلما خرجت من بيت (الأفندية) قرأت مع «مسيو شواليه» أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى «لمونرى»(٢) أجروميتين . وفى كل من البيتين ، يعنى بيت ( الأفندية ) وبيت المعلم كنت أشتغل بالإعراب النحوى ، والإعراب المنطقى — يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق — وبالإملاء والإنشاء والقراءة ، وما زلت على ذلك ثلاث سنوات .

## (ص ١٥٩) علم التاريخ

ابتدأنا فى بيت (الأفندية) حين كنا معا بكتاب «سير فلاسفة اليونان» فقرأناه ، وتممناه ، ثم ابتدأنا بعده فى كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين ، وأهل الشام ، واليونان ، وقدماء العجم ، والرومانيين ، والهنود ، وفى

---

(1) Charles - François Thomond : Eléments de la Grammaire françsiae. وقد كتب اسمه فى المطبوعة ( لومند )

(2) Lmonry

آخره نبذة مختصرة فى علم «الميثولوجيا» (١) يعنى علم جاهلية اليونان وخرافاتهم، ثم قرأت عند «مسيو شواليه» كتابا يسمى: «لطائف التاريخ» (٢) يتضمن قصصا وحكايات ونوادر، ثم بعده قرأت كتابا يسمى «سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم» (٣) ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها (٤) ثم كتاب رحلة «انخرسيس» الأصغر إلى بلاد اليونان (٥) ثم قرأت كتاب «سيغور» (٦) فى التاريخ العام، ثم سيرة نابليون، ثم كتابا فى علم التواريخ والأنساب، ثم كتابا يسمى «بانوراما العالم (٧)» يعنى مرآة الدنيا، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين فى بلاد الدولة العثمانية، ثم رحلة فى بلاد الجزائر.

## علم الحساب والهندسة

قرأت فى الحساب «بزوت» (٨)، وفى الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندره (٩).

## علم الجغرافيا بأنواعها

قرأت مع «مسيو شواليه» كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية، ثم قرأت رسالة أخرى فى الجغرافية الطبيعية مقدمة لقاموس فى

---

(1) Mythologie

(2) Les Agrements de L'histoire.

(3) Les Moeurs des Peuples Leurs hebitudes ct leur Savoir Vivre Par Dipping.

(4) L' Histoir de La Cause de La grandeur et de La décadence de L' Empire des Césars Romains. par Montesquieu.

(5) Voyage du trés Jeune Anacharsis en Grèce.

(9) Ségur.

(7) Panorama du monde.

(8) Etienne Bezout : Traité d' arithmêtique.

(9) Legendre : Eléments de Géométrie.

الجغرافية ، يعنى معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير «مسيو شواليه» ، وقرأت أيضا مع «مسيوشواليه» ، جملا عظيمة من جغرافية «ملطبرون»(١) ورسالة ألفها التعليم [١] بنته فى هيئة الدنيا ، وقرأت وحدى مؤلفات عديدة فى هذا الفن .

## فن الترجمة

ترجمت مدة إقامتى فى فرنسا اثنى عشر كتابا وشذرة يأتى ذكرها فى آخر هذا الكتاب ، يعنى اثنى عشر مترجما بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذات صغيرة الحجم .

## كتب فى فنون مختلفة

(ص ١٦٠) قرأت كتابا فى علم المنطق الفرنساوى مع «مسيو شواليه» و «مسيو المونرى» وعدة مواضع مع كتاب «ليبرترواپال» (٢) من جملتها المقولات وكتابا آخر فى المنطق يقال له كتاب «قندلياق» غير(٣) فيه منطق أرسطو .

وقرأت مع «مسيوشواليه» كتابا صغيرا فى المعادن وترجمته .

وقرأت كثيرا من كتب الأدب فمنها مجموعة(٤) «نويل» ومنها عدة مواضع من ديوان «ولتير»(٥) وديوان «رسين» (٦) وديوان «رسو» (٧) خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية ، وقرأت أيضا وحدى مراسلات انكليزية صنفها «القوته شسترفيلد» (٧) لتربية ولده وتعليمه ، وكثيرا من المقامات الفرنساوية ، وبالجملة فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة .

---

(1) Malte - Brun .

(2) La Porte - Royale.

(3) Condiliac .

(4) Noël .

(5) Voltaire .

(6) Racin .

(7) Rousseau ؛ des Lettres Persanes.

(8) Le Comte Chesterf ield

وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب « برلماكى » وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين ، يجعله الإفرنج أساسا لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليه » جزأين من كتاب يسمى «روح الشرائع»(١) مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له « منتسكيو» وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الإفرنجى ؛ كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا: «منتسكيو الشرق » ؛ أى «منتسكيو الإسلام » وقرأت أيضا فى هذا المعنى كتابا يسمى «عقد التأنس والاجتماع الانسانى»(٢) مؤلفه يقال له «روسو» وهو عظيم فى معناه .

وقرأت فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة مجال نفيسة فى معظم الفلسفة «للخواجه ولتير»(٣) وعدة مجال فى كتب فلسفة «قندلياق»(٤) .

وقرأت فى فن الطبيعة رسالة صغيرة مع مسيو « شواليه » من غير تعرض للعمليات .

وقرأت فى فن العسكرية من كتاب يسمى «علميات ضابطان عظام» مع «مسيو شواليه» مائة صحيفة ، وترجمتها .

وقرأت كثيرا فى كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفى « كازيطات»(٥) السياسيات اليومية التى تذكر كل يوم مايصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة «البوليتيقه» وكنت متولعا (ص ١٦١) بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية وربما كنت أترجم منها مسائل علمية ، وسياسية ، خصوصا وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية .

ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية من فرنساوى متطوع بالخدمة فى معسكر «الموسقو» ، حررها من مدينة «شملا» القريبة من جبل «بلقان » إلى بعض أمراء الألوية بمدينة « باريس » تاريخها الثنان وعشرون من يولية الإفرنجى سنة ١٨٢٨ من الميلاد :

« اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف الإسلامية من منذ وصولنا إلى العساكر الموسقوبية ، ثم إن سائر ما رأيته مما يذهل العقول ويحير الألباب ،

(1) L' Esprit des Lois
(2) Le Contrat Social
(3) Condiliac
(٤) أى الصحف

تقصرعنه العبارة ، كيف وهو أمر غريب ! بالنسبة إلى مثلى ، فلو كنت مثل جنابكم من العسكر المتمرن على الحروب سافرت فى غزوة مصر ، ورأيت واقعة أبى قير ، وحصار مدينة عكا لما حار لبى حين رأيت شيئا جديدا لم أكن عاينته قبل ذلك ، مما يكل عنه الوصف ، ولكن تأمل يا أخى فى أمرى حيث إنى قد كنت فى خفر مليكنا ، وخرجت من مكتب « سنسير » ولم أحضر من الوقائع إلا وقعة الأندلس ، فلم أشعر إلا أن وجدت نفسى قدام جبل « بلقان » بعد أن جبت البرارى والقفار ، وعاينت المشاق بتهديد أهلها لنا وتخلصهم منا ، وإدهاشهم لجيوشنا ، وانظر فى استعجابى وذهاب صوابى حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة للحروب الإسلامية بأعلى «شملا» وقد وصل إلى شريف علمكم من دفتر علم «الموسقو» تفصيل هذه الواقعة ، وشرح أحوال الجم الغفير من عساكرنا ، والخبر بأنها صارت ضائعة ، وقد شاهدت بعينى رأسى سوء ميتة « الميرالاى باردى الموسقوبى » بحالة رديئة ، حيث انقسم نصفين بضربة مدفع تركية ، ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه الحرابة ، وطول مدتها لا يعد من الغرابة ، وإن كان بعساكرنا شجاعة وصلابة فى الحروب ، فعساكر الإسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب . وهذه المصادمة هى التى تسهل الخطر ، وتخترق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : الأولى : أنها تلقى الحيرة فى عقول الرجال . والثانية : أن عاقبتها دائما تفرغ الفزع فى قلوب الأعداء ، ولو كانوا من الأبطال ، ولو شاهدت عيناك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع (ص١٦٢) الإنسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ، ومشيها على صوت الألحان الوحشية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية لحكمت مثلى بأن هذه الحرابة تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول . أو ليس أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة علية بنظام غريب ؟ أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها فى الإقدام والإحجام ، يبلغ عليها فى الحرابة المقصود والمرام ؟ فياويح العساكر القرابة التى يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم الإسلامية والوطنية ، وهذه مزية

لا توجد يقينا فى عساكر « الموسقو» ، ثم ازدحام الخلائق فى أوقات الحروب له تدبير صحيح ، ولكن فى هذه الواقعة لا يجهل إنسان ولو كان من «القزاق» أن الفخر لعساكر الإسلام . وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من مثلى ، خصوصا وأنا قد جئت متطوعا فى عسكر «الموسقو» ، لأشاركهم فى اقتحام الأخطار ، وأقتسم معهم الفخار ، ولكن لما وصلت إلى هنا ظهر لى أن الظن قد خاب ، وأنى قد حدت عن الصواب. ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم ، ليس لهم شيء من الدناءة ، بل هم أقرب إلى قبول التأدب والظرافة من الإفرنج .

واعلم يا أخى أن غيرتى على خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئا ، ولكن أقول ليت شعرى ، هل تلزم الغارة على إسلامبول فى خلاصهم ؟أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه فى أخذ مدينة « ابرائل» من العساكر كان يكفى وحده فى فك أسر الأروام وتحرير رقابهم ، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الإسلام . وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية ، وكان شابا بديع الصورة كثير الجروح ، فعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك لغيره ، ورقوا لملاحته وجراحته ، فخاطبته باللغة الإيطاليانية ، ففهم مقالى ، وأجاب سؤالى . وأخبرنى بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة ، وله أخوان فى خدمة حسين باشا لا يشك فى نصرة الدولة العثمانية ، بل يقول : إن الترك يصلون إلى موسقو . واعلم يا أخى أن فى «شملا» نحو مائتى ألف محارب ، ويتجدد (ص ١٦٣ ) عليها كل يوم ، وسلطانهم بطل عظيم عن يقين . وها أنا الآن أطوى لك كتابى لأضع قدمى فى ركابى ، فالآن عساكر الأعداء تحارب فى طليعة جيشنا ، وأنا بين دوى ألحان الترك ، وعجيج أصوات الروس غريق ، وهذه حرابة مهولة إن نظرت بعين التحقيق .

## الفصل السادس

### [فى الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة « باريس » خصوصا فى الامتحان الأخير الذى أعقبه رجوعى إلى مصر]

اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا فى العلم بمجرد شهرة الإنسان بالفهم ، أو الاجتهاد ، أو بمدح المعلم فى المتعلم ، بل لابد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيد الحاضرين فى الامتحان قوة الانسان والفرق بينه وبين أمثاله . وهذا إنما يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص ، بدعوة مثل دعوة الولائم عادة . وهناك امتحانات خاصة ، وهى أن يمتحن المعلم تلامذته كل أسبوع أو شهر ، ليعلم قوة زيادتهم فى ذلك الأسبوع أو الشهر . وليكتب مفاد ذلك إلى آبائهم ، فكنا فى البنسيونات بهذه المثابة ، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام بحضور أعيان الفرنساوية .

فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية ، وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية امتحان للبارعين فى الجواب المتميزين عن غيرهم ، ففى أول امتحان عام بعث لى « مسيو جومار » كتابا يسمى « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان » سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب ، يصحبها هذا المكتوب الذى صورته مترجما :

أول يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ من الميلاد .

قد صرت مستحقا لهدية اللغة الفرنساوية ، بالتقدم الذى حصلته فيها ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير . ولقد حق لى أن أهنىء نفسى بارسالى لك هذه الهدية من طرف ( الأفندية ) النظار دليلا على التفاتك فى التعليم ، ولا شك أن الوالى يسر متى أخبر أن اجتهادك وثمرة تعلمك يكافئان المصاريف العظيمة التى يصرفها عليك فى تربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام مصحوبا بالمودة .

وقوله فى الامتحان الأخير المراد أنه آخر بالنسبة لما قبله من الامتحانات الخصوصية .

وهدية الامتحان تشبه أن تكون مثل جائزة الشعراء : أو هى كقصب السبق وفى الامتحان (ص١٦٤) العام الثانى بعث لى كتاب « الأنيس المفيد ، للطالب المستفيد » ، و « جامع الشذور ، من منظوم ومنثور » تأليف « مسيو دساسى » وصحبته هذا المكتوب ، وصورته مترجما .

باريس ١٥ شهر مارس سنة ١٨٢٨ من الميلاد .

قد صرت مستحقا لهدية النحو الفرنساوى ، بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير ، ولقد سرنى أنك صرت مستحقا أن أبعث لك علامة السرور منك ، تشويقا لك ، وها أنا باعث جدول امتحانك للوالى باجتهادك وفلاحك ، ولا شك أنه يسر بأنك تشتغل مع ثمرة ، وأنك أهل لرعايته لك واعتنائه بتربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام .

وفى هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان :

وأما صورة الامتحان الأخير الذى به رجعت إلى مصر أن « مسيو جومار » جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الامتحان ، وكان القصد بهذا المجلس معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرانسا .

وصورة ماتحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية فى وقائع العلوم مانصه : وصور التلميذ رفاعة أنه قرىء فى المجلس دفتران : الدفتر الأول يشتمل على تعديد اثنتى عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية إلى العربية ترجمها المذكور منذ سنة وهذه أسماؤها : الأول : نبذة فى تاريخ اسكندر الأكبر ، مأخوذة من تاريخ القدماء . الثانى : كتاب أصول المعادن . الثالث : رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة ، ألفة «مسيو جومار» لاستعمال مصر والشام ، متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية . الرابع : كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم . الخامس : مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على «مسيو دهنبلدهنيلض (١)» السادس قطعة من كتاب ملطبرون(٢) فى الجغرافية . السابع : ثلاث مقالات من كتاب «لجندر(٣)» فى علم الهندسة . الثامن : نبذة فى علم هيئة الدنيا . التاسع : قطعة من «علميات ضابطان عظام»

---

(١) فى المطبوعة « مسيودهنيلض » . : Humboldt

(2) Malt — Brun .

(3) Legendre .

العاشر: أصول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم . الحادى عشر: نبذة فى « الميثولوجيا » يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم . الثانى عشر : نبذة فى علم سياسات الصحة .

الدفتر الثانى: (ص١٦٥) يشتمل على رحلته، وذكر سفره ثم أحضر له عدة تآليف مطبوعة فى بولاق، فترجم منها مواضع بسرعة إلى اللغة الفرنساوية. ثم قرأ بالفرنساوى مواضع منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير فى «كازيطة» مصر المطبوعة فى بولاق، ثم بحث معه فى ترجمة العلميات العسكرية المترجمة له فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنساوى، والشيخ بيده الترجمة، ثم إنه يترجم العربية بالسرعة إلى الفرنساوية قراءة لا كتابة؛ ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الأصل، وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الأصل المترجم، ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغات العربية أن يضع مجازا بدل مجاز آخر من غير خلل فى المعنى المراد، مثلا: فى تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا غير العبارة بقوله: العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدر، وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه، وأنه ربما كرر، وربما ترجم الجملة بجمل، والكلمة بجملة، ولكن من غير أن يقع فى الخلط؛ بل هو دائما محافظ على روح المعنى الأصلى، وقد عرف الشيخ الآن أنه إذا أراد أن يترجم كتب علوم فلا بد أن يترك التقطيع، وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييرا مناسبا للمقصود، وقد امتحن فى كتاب آخر، وهو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية، وهذا الكتاب ترجمه هو إلى العربية ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب لم يصل إلى درجته الآن فى اللغة الفرنساوية، كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث معه فيه قبله، وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها؛ وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيئا، بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة، فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها فى نشر العلوم، والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة، ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوى

على إشكال ، وأحمد أفندى العطار من أهل بلاده يشتغل بالطباعة على الأحجار لأجل ذلك ،وقد كان حاضرا فى المجلس ، فقدم لأهل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابة عربية وفرنساوية ، وقد ابتدأ فى معرفة تسيير الشوكة للنقش والقلم للكتابة ،وقلم الشعر لكتابة التصوير ،وفى تصويراته توجد حيوانات (ص ١٦٦) وأمور عمارات وغير ذلك من الأمور المصنوعة بالخطوط من غير ظل ، ولكنه جاء فى فرنسا كبير السن فلم يمكنه أن يصور تصويرا صحيحا خاليـا عن جميع العيوب ، ولـكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة طريق الطباعة على الحجر علما وعملا ، وينسخ ( عينات ) التصوير التى تعطى له ويطبعها بنفسه عند الحاجة ، ويمكنه أن يتأهل لفتح دار لطباعة الحجر ونظارتها ، وقد ترجم مختصرا فى صناعة الطباعة بالحجر وكتبها على الحجر وطبعها بيده ، وكانت نسخة منها موضوعة على ( باش تختة(١)« مسيو جومار» انتهى كلام « كازيطة » دائرة العلوم .

وكتب لى مكتوب تهنئة برجوعى إلى مصر بعد تحصيل المرام غير أن هذا المكتوب قد ضاع منى وكان لابأس بذكره هنا وصورة ترجمة ما كتبه لى «مسيو شواليه» وهو أشبه بإجازة وشهادة لى :

## وزارة الحرب

يقول الواضع اسمه فيه : « شواليه» تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة «بلوتـكنيقا» (٢) الضابط المهندس المكتوب فى وزارة الحرب الوكيل من طرف « مسيو جومار » والأفندية النظار بالإرشاد إلى تعلم مسيو الشيخ رفاعة:

أشهد أنى مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ المذكور عندى لم أر منه إلا أسباب الرضى سواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ولين عريكته ، وقد قرأ معى فى السنة الأولى اللغة الفرنساوية « والقسمغرافيا» (٣) انتهى وفيما بعدها الجغرافيا والتاريخ والحساب وغير ذلك. ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم الرسم مع ثمرة ، لم يشتغل به إلا مرة فى كل أسبوع لمجرد امتثال أوامر الوالى ولكن صرف جهده مع غاية الغيرة فى الترجمة التى هى صنعته

---

(١) منضد صغير ذو أدراج عدة .

(٢) مدرسة المهندسين : L' Ecole Polytechnique

(٣) Lacosmogsaphier. علم الفلك .

المختارة له وأشغاله فيها مبينة فى إعلاماتى الشهرية، خصوصا فى «الجرنالات» الأولى التى أعطيتها «لمسيو جومار» وحسب هذا التلميذ مافى هذه الإعلامات والجرنالات

ومماينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به إلى أن أدته إلى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار، حتى احتاج إلى الحكيم الذى نهاه عن مطالعة الليل، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه، ولما رأى أن الأحسن فى إسراع تعليمه أن يشترى الكتب اللازمة له غير ماسمح به (الميرى) وأن يأخذ معلما (ص١٦٧) آخر غير معلم (الميرى) أنفق جزء عظيما من ماهيته المعدة له فى شراء كتب، وفى معلم مكث معه أكثر من سنة، وكان يعطيه الدرس فى الحصة التى لايقرأ معى فيها.

وقد ظننت أنه يجب على وقت سفره أن أعطيه هذا الإعلام الموافق لما فى الواقع ونفس الأمر، وأن أضيف إلى ذلك الإفصاح عما فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته.

مسيو شواليه

٢٨ فى شهر فبريه سنة ١٨٣١

# المقالة الخامسة

[فى ذكر ماوقع من الفتنة فى فرنسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا إلى مصر ، وإنما ذكرنا هذه المقالة لأنها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه] :

## الفصل الأول

[فى ذكر مقدمة يتوقف عليها إدراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم]

إعلم أن هذه الطائفة متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين ، وهما : الملكية والحرية. والمراد بالملكية أتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر ، من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء. والأخرى تميل إلى الحرية ، بمعنى أنهم يقولون : لاينبغى النظر إلا إلى القوانين فقط ، والملك إنما هو منفذ للأحكام على طبق مافى القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة ، ولاشك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لااتحاد بين أهل فرانسا ، لفقد الاتفاق فى الرأى . والملكيةأكثرهم من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية . فالفرقة الأولىتحاول إعانة الملك ، والأخرى ضعفه وإعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ، ولا حاجة إلى ملك أصلا . ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية ويقال للكبار : مشايخ وجمهور .

وشريعة الإسلام التى عليها مدار الحكومة الإسلامية مشوبة بالأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها ؛ فعلم من هذا أن بعض الفرنساوية يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد المملكةالمقيدةبالعمل بما فى القوانين ، وبعضهم يريد الجمهورية ، وقدسبق للفرنساويةأنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد (ص١٦٨) وحكموا على

ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية ، وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة «البربون» من مدينة «باريس» وأشهروهم مثل الأعداء ، ولا زالت الفتنة باقية الأثر إلى سنة ١٨١٠ ميلادية ، ثم تسلطن «بونابارته» المسمى : «نابليون» وتلقب بسلطان سلاطين : ثم لما كثرت محارباته ، وكثر أخذه للممالك وخيف بأسه وبطشه تعاهد عليه ملوك الإفرنج ، ليخرجوه من المملكة ، فأخرجوه منها ، مع محبة الفرنساوية له ، وأعادوا البربون إلى محلهم رغما عن أنف الملة الفرنساوية ، فكان أول من تسلطن منهم « لويز الثامن عشر » ولأجل ترغيب الناس فى حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين الفرنساوية بمشورتهم ورضائهم ، وألزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج عنه ، وهو الشرطة ، وقد ذكرناها مترجمة فى باب سياسة الفرنساوية ، ولاشك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم . وقد جعل هذا القانون له ولمن بعده من ورثة مملكة الفرنساوية ، وأنه لايزاد فيه ولا ينقص إلا إذا اتفق عليه الملك وديوان « البير » وديوان وكلاء الرعية ، فلابد من الديوانين والملك ، ويقال إنه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه ، وهم يحبون التصرف المطلق فى الرعية ، ويقال : إنهم تعصبوا عليه ، وكان رئيس العصبة أخاه « كرلوس العاشر » حتى إنه اطلع على ما أخفاه له فأبطله ، ويقال إن « كرلوس العاشر » أراد فى « كبز لويز الثامن عشر » أن ينقض ذلك القانون ، ويرجع إلى طريق إطلاق التصرف ، فلم يمكنه ذلك ، ثم بعد موت أخيه أظهر « كرلوس » الحيلة ، وأبطل ما كان نواه ، وأظهر أنه لايريد شيئا من ذلك ، وجوز لكل إنسان أن يبدى فى الكازيطات رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيه قبل طبعه وإظهاره فصدق الناس كلامه واعتقدوا أنه لايخلف وعده ، بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين ، ثم إنه انتهى أمره إلى أن هتك القوانين التى هى شرائع الفرنساوية وخالفها ، وقبل هتكه للشريعة بانت منه أمارات ذلك بمجرد تقليده الوزارة للوزير : « بولنياق » وهو معلوم المذهب والتدبير ، يعنى أنه يميل إلى كون الأمر لايكون إلا للملك ، ويقال : إن هذا الوزير هو ابن زنا ، زنت أمه بهذا الملك ، فولدته منه ، فهو فى الحقيقة أبوه ، وشهير بالظلم والجور ومن الحكم التى فى غاية الشيوع : أن ظلم الاتباع مضاف إلى المتبوع . وفى الحديث :

(ص ١٨٩) من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة ولازمه الهم . وقال الشاعر .

من أنصف الناس، ولم ينتصف    بفضله منهم فذاك الأمير
ومن يرد إنصافه مثل ما    أنصف ، أضحى ماله من نظير
ومن يرد إنصافه ، وهو لا    ينصفهم فهو الدنىء الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقا « ايلچيا » ببلاد الإنكليز من طرف الفرنساوية ، يعنى رسولا للمصالح بين الدولتين، كانت الفرنساوية تنسب إليه كل ماخالف مذهب الحرية . وكلما شاع عنه أنه راجع إلى فرنسا يظن جميع الناس أنه لايأتى إلا ليتقلد منصب الوزارة ويغير القوانين، فلذلك كان يبغضه سائر أرباب الحرية وأغلب الرعية. وقد عرف الفرنساوية من قبل أن اختياره للوزارة كان مقصودا لهم، وقد حصل بعد توليته بنحو سنة :

وقد قلنا فيما سبق : إن ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية . فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزراء الستة ، فلم يصغ لكلامهم أصلا ، وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه ، وكان المجتمع فى هذا الديوان للمشورة فى قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا ، منها ثلثمائة لايرضون بإبقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون إبقاءهم ، فكان العدد الأكثر عليهم ، والعدد الأقل لهم ، فتيقنوا عزلهم ، وكان الملك يحب إبقاءهم، لاستعانته بهم على تنفيذ ماأضمره فى نفسه فأبقاهم ، ثم خرم القانون بعدة أوامر ملكية فكانت عاقبتها خروجهم وإخراجهم له من بلادهم معزولا ، فهو كما قال الشاعر :

لم يدر مايجنى عليه القول    ولا لماذا أمره يؤول
يلقى الكلام كيف ما ألقاه    لم يحسن الفكرة فى عقباه
وهكذا التهوير فى المقال    وصحبة الأشرار والجهال
يخفضك الجاهل أنى رفعك    يرديك وهو زاعم أن ينفعك

# الفصل الثانى

[ فى ذكر التغيرات التى حصلت وماترتب عليها من الفتنة ]

قد سبق لنا (ص ١٧٠) من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى الماده الثامنة أنه لا يمنع إنسان فى فرنسا من أن يظهر رأيه ، ويكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضر مافى القوانين ، فإن أضر به أزيل ، فلما كانت سنة ١٨٣٠ ، وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، منها : النهى عن أن يظهر الانسان رأيه ، وأن يكتبه أويطبعه بشروط معينة ، خصوصا « للكازيطات » اليومية ، فإنه لابد فى طبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة ، فلايظهر منها إلا مايريد إظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان لا يمكنه عمله إلا بقانون ، والقانون لا يصنع إلا باجتماع آراء ثلاثة : رأى الملك ورأى أهل ديوانى المشورة يعنى ديوان البير ، وديوان رسل العمالات ، فصنع وحده مالاينفذ إلا إذا كان صنعه مع غيره ، وغير أيضا فى هذه الأوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العمالات ، يعنى فى الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها فى « باريس » وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع مع أنه كان حقه ألا يفتحه إلا بعد اجتماعهم كما فعله فى المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين . ثم إن الملك لما أظهر هذه الأوامر كأنه أحس فى نفسه بحصول مخالفه ، فأعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية ، التى هى مقصد رعية الفرنساوية ، وقد ظهرت هذه الأوامر بغتة حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها ، وبمجرد حصول هذه الأوامر قال غالب العارفين بالسياسيات : إنه يحصل فى المدينة محنة عظيمة يترتب عليها مايترتب — كما قال الشاعر :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعيدان تذكو وإن الحرب أولها الكلام

ففى مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الأوامر فى « الكازيطات » أخذ الناس فى الحركة بقرب المحل المسمى » بالروايال « يعنى » السراية السلطانية التى سكنها عائلة

أقارب الملك المسماة «عائلة أورليان» التى منها الملك الآن، وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس ، وكان هـذا يوم السادس والعشرين فى شهر يولية ، وفى يوم السابع والعشرين منه لم يظهر غالب « كازيطات » الحرية لعدم رضائها بالشروط ، فلذلك (ص١٧١) بلغت الأوامر جميع الناس ، وحصلت حركة عظيمة بعدم ظهور «الكازيطات» التى من عادتها أنها لاتفتر عن الظهور إلا لمهم عظيم ؛ فأغلقت « الورشات » والمعامل ( والفبريقات ) والمدارس ، فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل ، وبهذه الديار ، بل وفى غيرها قد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام. خصوصا مادة الخطات ، فإنها قوية وخصوصا بلاغة الإنشاء ، فلها مدخلية عظيمة كما قيل : إن نزل الوحى على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب ! خصوصا إذا كان ما يذكر فى تلك اليوميات مقبولا عند العامة ، ومقصودا عند الخاصة ؛ فإن هذا هو عين البلاغة الصحيحة ، إذ هى ما فهمته العامة ، ورضيت به الخاصة ، فلما سمع بذلك ولاة الحسبة حضروا فى المحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه « الكازيطات » ، وحاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ، وحبسوا من اتهموه من الطباعين ، ( وبهدلوا) كثيرا ممن أظهر شيئا مخالفا لترتيب الملك من الرعية ، وهذا أيضا مما قوى غضب الفرنساوية ، فكتب أرباب هذه الكازيطات يعنى رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم « ورقة إنكار » وأشهروها وعددوا نسخها ، ولصقوها بجدران المدينة وأمروا فيها الرعية بالحرب ، وعينوا محله ، وكان الميعاد فى درب «سراية باليروايال»(١) فازدحم فيه كثير من الأمم ، وفيما حوله من الحارات ، فكانت العساكر السلطانية تحاول تفريق هذا الازدحام ، فعظم دوى الرعية ، وكثرت أصواتهم ، وظهر غضبهم فى سائر الدروب والحارات ، فهجم العسكر على الرعية ، والتحم القتال بين الفريقين ، فكانت الرعية تقاتل أولا بالأحجار ، والعساكر بالسيوف وآلات الحرب ، فكثر القتال وعظمت المطاردة من الجانبين ، ثم بحث الرعية عن آلات الحرب ، وظهر صوت البارود من الجانبين ، فى مدينة « باريس » فكأنما لسان حال الفرنساوية الذى هو أصدق من

(1) Le Sérail Palais Royal.

لسان مفالهم جعل يقول :

* إن ابن عمك فيهم رماح *

فعظم القتال وكان أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، كما قال الشاعر :

فالحرب تنكح ،والنفوس مهورها ... مابين أبكار تزف وعون

(ص١٧٢) وترى الدماء على الجراح طوافيا ... وكأنها رمد بنجل عيون

فاشتد غضبهم ، وعرضوا القتلى فى المحال العامة ، لتحريض الناس على القتال ، وإظهار عيوب العساكر . وقامت أنفس الناس على ملكهم ، لاعتقادهم أنه أمر بالقتال ، فما مررت بهذا الوقت بحارة إلا وسمعت فيها : السلاح! السلاح ، أدام الله الشرطة ، وقطع دابر الملك ! فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية الأسلحة من السيوفية بشراء أو غصب . وأغلب العملة والصنائعية خصوصا الطباعين هجموا على ( القرقولات ) وخانات العساكر ، وأخذوا منها السلاح والبارود ، وقتلوا من فيها من العساكر ، وخلع الناس شعار الملك من الحوانيت والمحال العامة ، وشعار ملك الفرنسيس هى صورة «زهر الزنبق» ، كما أن شعار ملك الإسلام «صورة هلال » وملك الموسقوبية «صورة عقاب» ، وكسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينة ، وجمعوه فى السكك المطروقة ، حتى يتعذر مشى الفرسان عليه ، ونهبوا ( جبخانات ) البارود السلطانية . فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك ، وهو خارج أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العساكر أميرا من أعداء الفرنساوية مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ، فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ! ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحبابا له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكن أراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استصلاح العدو أحزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحلم وبالحياء ... والرفق بالمذنب ، والإغضاء

إن لم تُقل عثرة من يقال ... يوشك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى إعطاء الحرية ، لأمة بهذه الصفة حرية . لما وقع فى مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه

فى هذه المحنة الأخيرة ، لا سيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفيسة ، وما أحسن (ص ١٧٣) قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفوا بها　　لها سنن يرعونها وفروض

فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم　　فذاك ثقيل عندهم وبغيض

وفى اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى : « دار المدينة» الذى هو محل شيخ مدينة باريس ، فعندذلك ظهر الخفر الأهلى يعنى «الرديف»(١) وهم عساكر كانت سابقا تخفر الأهالى ، كما أن للملك عساكر (ورديان)(٢) تخفره وقد كان أبطلهم الملك «شرل» او«كرلوس العاشر» فلما وقعت الفتنة ظهروا ليمانعوا عن الرعية ، فشهروا أسلحتهم للقتال ، وطردوا سائر العساكر من محلهم ، وأحرقوا كثيرا منها ، وفى هذه الأوقات ارتفعت المحاكم ، وصار الحاكم هو الرعية ، ولم يمكن للدولة عمل شىء ، فقد بذلت ماعندها من القوة لإخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه ، فكان جميع المحافظين متحركين ، و(الطبجية)(٣) معينة لاثنى عشر ألفا من الورديان السلطانى ، وستة آلاف من عساكر الصف ، فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس غير الطبجية والمحافظين ، وكان من يحمل السلاح من الرعية أقل من هذا العدد ولكن من لا يحمل السلاح يحارب بالأحجار ، أو يعين المتسلح. وبعد أخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية بالبلدة ، ثم ذهبوا إلى الديوان المسمى «لوور»(٤) وإلى قصر «طويلريا»(٥) وهو (سراية الملك) ووقع الحرب فيهما بين العساكر وأهل البلد ، وبينماهم فى الحرب بهذا المحل إذ انتشر البيرق المثلث الألوان الذى هو علامة الحرية على الكنائس والهياكل العامة ، ودقت نوافيس الخطر لإعلام سائر الناس داخل وخارج « باريس » من أهل المدينة أو غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر ، فلما رأت العساكر أن النصرة للرعية ، وأن ضرب السلاح على أهل بلادهم وأقاربهم عار عليهم امتنع أغلبهم ، وعزل كثير من

(١) الرديف : الجند الاحتياطى .
(٢) يريد بهم الحرس .
(٣) رجال المدفعية .
(٤) Louvre .
(٥) La Palais des Tuileries .

رؤساشهم نفسه من منصبه ، وفى اليوم التاسع والعشرين فى الصباح ، ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا فى أيديهم قصر «طويلريا» و « لوور » فملكوهما ، ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر المأمور (ص١٧٤) بإدخال أهل «بايس» فى طاعة السلطان ، رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى إن العساكر دخلت تحت (بيرق) الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت ، لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت سرعسكر ، المسمى «لافييته»(١) وهو الذى قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا ، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ، ويحامى عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى «البوليتيقة» وليس صاحب قريحه ، مستخرجا للعلوم من حيز العدم كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصا فى العلوم العسكرية ، ولكن أعظم الناس مقاما ، لا قريحة وفهما ، وليس المراد القدح فى معرفته ، بل فى انتهاء الرياسة إليه ، ومما يشاهد فى سائر بلاد الدنيا أن التصدر ليس دائما على قدر المعرفة وإن كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع ، ومن الغريب أن مثل هذا الأمر يقع أيضا فى البلاد الحسنة التمدن ، وأظن أن هذا كله مصداق الحديث الشريف الذى هو «ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه» وكما قال الشاعر :

إذا أبصرت ذا فضل فقيرا　　فلا تعجب لفقر فى يديه
فقد قال النبى مقال صدق　　ذكاء المرء محسوب عليه

وما أحسن قول الشاعر :

ولو أن السحاب همى بعقل　　لما أروى مع النخل القتادا
ولو أعطى على قدر المعالى　　سقى الهضبات واجتنب الوهادا

(1) La Fayttəɔ

# الفصل الثالث

[ كيف كان يصنع الملك فى هذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح ، بعد فوات أوانه ، وفى خلعه المملكة على ابنه]

اعلم أن أوامر الملك برزت منه وهو فى بلدة «سنكلو» على القرب من باريس ، فالفتنة حصلت فى باريس ، والملك لم يكن بها ، ثم إن أهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه ، وأن يسترد أوامره ، ويسترجعها ، يعنى أن يكتب أمرا بأنه أعاد إليه ما كان أمر به فلم يرض بذلك ، وأرسلوا إليه (ص١٥٧) فى ذلك عدة وكلاء ، ليستعطفوه ، ويترجوه فى هذا المعنى ، فلم يفد كلامهم ، بل كان : أضيع من دمع على طلل ، وأخبروه أن الرعية لا تريد ذلك أبدا ، وأنه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك ، فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل ، فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله للمصالحة ، أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه ، فأجابوه بأنه لم يبق محل للصلح ، وأن أوان الصلح قد فات ، وأنه لم يتبصر فى العواقب ، ومن لم يتبصر فى العواقب لقى النوائب. وأنه لم يدقق النظر ، وإلا لما حصل له ذلك [الضرر] وفى اليوم الثلاثين من شهر يولية اتفق رأى أهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا ليترجوا «الدوق درليان» قريب السلطان من بدنة ثانية بأن يكون قائم مقام المملكة ، حتى تقع مشورة أخرى على من يتولى مملكتهم وكان خارج «باريس» فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل إلى «باريس» فى الحادى والثلاثين ، ونزل فى دار المدينة ، وأجاب برضائه بما صنعه أهل هذا الديوان وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة فى السبب الحامل له على الرضاء بذلك ، وملخصها : أنه قد حصل لى غاية التحسر على الأمر الذى جعل «باريس» فى هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين أو تفسيرها بمعنى بشع تحتمله عباراتها ، ولقد امتثلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل ، ولابد أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التى قد لبستها كثيرا فى أول عمرى ، ثم ختم عبارته بقوله : والشرطة تصير من هذا الوقت حقا . يعنى أنه يعمل بقوانين المملكة ، وتصير متبعة لا يحاد عنها لكونها حقا ، ولقد

صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الأمثال ، وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الحماسة ، ثم إن « شرل » العاشر ظن أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على ابنه ونزوله عنها له : شعر :

يود لو أن أيام الحمى رجعت    وقلّ أن رد شيء بعد ماذهبا

فما كان ذات يوم فى « سنكلو »(١) إلا وخرج ابنه «الدوفين»(٢)فى ساحة ، وجمع فيها العساكر ، وأعلمهم بأن أباه ولاه ملكا ، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء . ثم إن الملك لما ولى ابنه سافر مع ديوانه وجلسائه فى ليلة التاسع والعشرين (ص ١٧٦) من شهر يولية ، وبتى الدوفين وحده ينتظر عاقبة توليته ، فأحضر جميع من معه من العساكر ، وسيرها قدامه ، ليرى كيفيتها ، فلما علم أنها لا ترضى بالمحاربة معه ، نوى السفر ، وخرج من «سنكلو» فبعد عدة ساعات من خروجه ، انتشر على قصر «سنكلو» (البيرق) المثلث ، وهذا القصر هو (سراية) السلطان فى هذه البلدة ، فوصل السلطان وأتباعه فى «رنبوليا» (٣) فى غرة شهر أغسطوس ، وفى اليوم الثانى من هذا الشهر بعث «شرل» العاشر وابنه «الدوفين» ورقة «للدوق درليان»(٤) قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق «دبردو» حفيد الملك ، وابن أخى الدوفين » وأنهما جعلا «الدوق درليان» وكيله ووليه ، حتى يبلغ رشده ، وطلبا منه فى هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ، ليؤمنوهما فى خروجهما من فرنسا ، فعرض « الدوق درليان » ذلك على مشورة رسل العمالات فلم يرضوا بخلع المملكة ، ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبائر ، ليؤمنوه فى خروجه من فرنسا ، ثم إنه جاء الخبر فى « باريس » أن الملك لم يرض الخروج حالا ، فوجهوا إليه جملة من العساكر ، ليكرهوه حالا على الخروج ، فبمجرد سماعه بذلك أجاب بالخروج متوجها إلى بلاد الإنكليز .

شعر :

والدهر طورا بعز    يقضى ، وطورا بهون

---

(1) Saint cloud.
(2) Le Dauphinp. « لقب ولى عهد فرنسا »
(3) Rambouillet.
(4) Le Duc d Orléens.
(5) Duc de Bordeaux.

وهكذا حال الدنيا، وأحسن ماقيل فى التسلية والصبر على مكارهها قول بعضهم:

سلا بنفسى عن الدنيا وبهجتها   أنى أرى فانيا منها تلافانى
والصبر أحمد ما أوليت من قلق   ما كنت فى شدة إلا تلافانى

وفى هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة «بباريس» فكان الأمر والنهى له ولدواوين المشورة، فأول ماصنعه تقرير بقاء الثلاثة ا[لأ]لوان التى هى علامة على حرية الملة الفرنساوية، ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البير، وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات يحضر الملك، ويخطب على منبر بكلام فصيح، يذكر فيه ماصنعه من التحسين فى بلاده، وما هو عازم على فعله فى سنته، ولما كان هذا الدوق قائما فى هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر (ص ١٧٧) يقول كلاما وجيزا مضمونه:

أنه يتحسر على الخطر الذى حصل لمدينة «باريس» عقب هتك قوانين المملكة، ثم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التى بعثها له «كرلوس» العاشر وابنه «الدوفين» المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق «دبردو» وأنهما يسميانه «هنرى» الخامس، لأنه تقدم فى فرنسا أربعة ملوك كل منهم يسمى: «هنرى» ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة، وصار ديوان المشورة يفتح كل يوم للتدبير.

# الفصل الرابع

[ فيما انحط عليه رأى أهل المشورة ، وفيما ترتب على هذه الفتنة
من تولية الدوق دوليان ملك الفرنساوية]

اعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرنسا المستقبلة ، وقد أسلفنا أن آراء الفرنساوية مختلفة ، حتى إنهم فى المشورة مختلفون فى الموضع ، فمنهم الملكية يجلسون فى الجهة اليمنى ، والحريون فى الجهة اليسرى ، والتابعون لآراء الوزراء فى الجهة الوسطى ، وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له ، لأن العبرة بكثرة الأصوات ولا زال هذا الأمر ، معمولا به إلى الآن ، ولم تغير الفتنة شيئا من ذلك ، فكان أصحاب الآراء فرقتين : فرقة تريد المملكة ، وفرقة تريد الجمهورية ، والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك الدوق «دوبردو» حفيد الملك القديم ، ومنهم من كان يريد تولية ابن «نابليون» الذى هو « بونابارته » ومنهم من كان يريد تمليك «الدوق درليان» قائم مقام المملكة ، وعائلة «درليان» هى العائلة الثانية الوارثة للمملكة ، بعد انقراض العائلة الأولى البكرية ، وهى عائلة «البربون» ثم إنه ظهرت ورقة مطبوعة ، وألصقت فى الحارات والمشارع العامة ، مضمونها ، قد صح بالتجربة أن الجمهورية لا تناسب بلاد الفرنساوية ، وأما الدوق دبردو فتوليته تجعل الفرنساوية تحت حكم « البربون » فتقع الفرنساوية فيما فرت منه ، وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين وهم أعداء الحرية فتعين « الدوق درليان» انتهت .

وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأى .

المادة الأولى : أن الكرسى فارغ حسا ومعنى ، ولاحق لأحد فيه فلا بد من شغله بأحد . الثانية : من أغراض الفرنساوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات (ص١٧٨) الدالة على الاستعلاء من الشرطة ، التى هى كتاب قوانين المملكة ، لأن بقاءها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنساوية ، ولا بد أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة وتبدل بغيرها ، حتى تكون مصلحة على ماتقتضيه الحال الراهنة ، ثم بعد تمام ذلك طلب ديوان مشورة وكلاء الرعية أن المصلحة العامة اللازمة حالا لجميع الفرنساوية

أن يترجى حضرة سعادة « الدوق درليان لويز فليب» قائم مقام المملكة، لأن يكون ملكا وتكون مملكته وراثة بعده لأولاده الذكور، ثم بعده لأكبر أولاده ،وهكذا. يعنى أن الملك إذا مات انتقلت المملكة لأكبر أولاده ، فإذا مات أو حصل له عذر كانت لابنه الأكبر ، وهكذا ، وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط، وبصيغة المبايعة التى يعينها له أهل المشورة ، وأن يلقب بملك الفرنساوية ، لابملك فرنسا ، والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكا ، بخلاف ملك فرنسا ، فإن معناه أن أرض فرنسا مادامت باقية فهو سيدها وملكها ، ولا منازع له من أهل بلاده فيها وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرنسا ، وكان إذا كتب الواحد منهم يقول ماصورته: أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا « ونوار » (١) على كل من يرى هذه الأوامر الحاضرة سلام قد أمرنا ونأمر بما سيأتى لنا. وقوله : ملك فرنسا ظاهر، وأما قوله «ملك نوار» فإن هذا لقب اصطلاحى له ، لمجرد الشرف : وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرانسا كانوا يحكمون على مملكة«نوار» ثم انتقلت منهم إلى ملوك أسبانيا ، فصارت حصة منها ، وبقى اللقب لملك فرنسا ، وأما ملك الفرنساوية فإنه يقول فى كتابته: أنا فلان ملك الفرنساوية منى السلام على من حضر فى الحال والاستقبال قد أمرنا ونأمر ففرق بين عبارة الأول والثانى، فإن الأول: جعل نفسه ملك مجموع فرنسا ونوار بإنعام الله سبحانه وتعالى عليه ، والثانى: جعل نفسه ملك الفرنسيس ، ولم يقل بفضل الله، ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك لإرضاء الفرنساوية فإنهم يقولون إنه ملك الفرنسيس بإرادة ملته ، وبتمليكهم له ، لا أن هذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عائلته ، من غير أن يكون لرعيته مدخلية فظهر من هذا أن قوله بفضل الله، معناه عندهم باستحقاقه للملك (ص١٧٩) بولادته ونسبه ، كما أن قوله ملك فرنسا معناه صاحب الأرض والسلطنة عليها ؛ وإلا فلو كان عندنا لاستوت العبارتان، فإن كون الملك ملكا باختيار رعيته له، لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان ، ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك أرض العجم، ثم بعد تمام المشورة بعث إليه أهلها عدة رسل، فقرأ عليه رئيس الرسل مااتفق عليه أهل ديوان المشورة ، فأجاب حالا بقوله : قد سمعت والقلب فى اضطراب ماعرضتموه على من خلاصة مجلس المشورة، من انتخابى للملكة،

---

(1) Navarre

ولقد صح عندى أن عبارتكم الصادرة عنكم هى أيضا عبارة لسان حال الرعية بتمامها، وظهر لى أن ماصنعتموه فى القوانين يناسب ماذهبت إليه فى السياسات التى مارستها مدة حياتى ، ولكن حصل لى من ذلك انفعال عظيم لأننى لست أنسى مدة حياتى ماقاسيته سابقا من الأهوال ، حتى إننى كنت عزمت على أن لا أطمع أبدا فى قضية السلطنة ، ونويت على أن أعيش خاملا مرتاحا بين عيالى ، ولكن حبى لعمار بلادى غلب ذلك ، فهو جدير بأن أوثره عليه ، حيث قد أيقنت أن الضرورة دعت إليه ، ثم إنه عين اليوم الذى يتتوج فيه ، فى ديوان رسل العمالات ، فلما جاء اليوم الموعود جاء فى الساعة المتفق عليها بموكب عظيم ، من غير خفر سلطانى ، ومن غير جلساء ، وقد جرت عادة ملوكهم بأن زينة الموكب إنما هى بذلك ، وكل مامشى خطوة حياه جميع الناس من الجوانب بقولهم : حفظ الله «الدوق درليان» حفظ الله الملك ، فلما دخل الديوان ركب مصطبة بقرب الكرسى ، وسلم على أهل المجلس ثلاث مرات ، ثم جلس على دكة أمام الكرسى وابنه الأكبر عن يمينه ، والثانى عن يساره ، وخلفه أربعة وزراء فى العسكرية يلقبون بالمارشالات جمع «مارشال» ، وهو أعلى مراتب العسكرية عند الدولة الفرنساوية ، وهو دائما مضاف إلى فرنسا ، فيقال : مارشال فرانسا ، وبالفرنساوية « مارشال د فرانسا » والدال علامة على الإضافة بين المضاف والمضاف إليه ، مثل اللام المقدرة فى الإضافة عندنا ، فعلامة الإضافة ظاهرة عند الفرنسيس ، ثم بعد جلوسه عزم على أهل ديوان « البير وديوان رسل العمالات » بالجلوس ، ثم طلب من رئيس الديوان أن (ص ١٨٠) يقرأ عليه الخلاصة التى عزم عليه أهل الديوانين فيها بالمملكة ، فلما فرغ الرئيس من قراءتها أجاب « الدوق » المذكور بقوله : ياساداتنا ، قد سمعت مع التأمل خلاصة الديوانين ، وقد وزنت عبارتهما وأمعنت فيها النظر ، وأقول : رضيت من غير شرط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة فى الخلاصة ، وبتلقيبى ملك الفرنسيس الذى أعطيتموه لى ، وها أنا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على أنى أحفظ ذلك ، ثم قام الملك مكشوف الرأس ، ورفع يده اليمنى ، وشرع يقول هذه الصيغة ، الآتية بترتيب وترتيل ، وبصوت ثابت من غير لجلجة ، وهذه الصيغة مترجمة : أشهد الله سبحانه وتعالى على أنى أحفظ مع الأمانة الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة ، مع مااشتملت عليه من الإصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة ، وعلى أنى لا أحكم إلا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وأن أعطى كل ذى حق حقه ، بما هو ثابت فى القوانين ، وأن أعمل

دائما على حسب ماتقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها ، ثم صعد على كرسى المملكة ، وشرع يقول : ياساداتنا ، قد حلفت فى هذا الوقت يمينا عظيما ، وما جهلت بالواجبات المرتبة به على ، مع عظمها واتساعها ، لما أن نفسى تحدثنى أننى أوفى بها ، وما قبلت المبايعة إلا عن رضى ، وقد كنت عزمت على ألا أركب أبدا الكرسى الذى أعطته لى الملة الفرنساوية ، ولكن لما رأيت أن فرنسا قد جرحت حريتها ، وتكدرت الراحة العامة بأرضها ، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على الفساد ، وجب نصب القوانين ، وكان ذلك من وظيفة ديوان « البير وديوان رسل العمالات» ، وقد وفيتهم بذلك ، فما صنعناه من إصلاح الشرطة يستلزم الأمن فى المستقبل فمأمولى أن فرانسا تصير مرتاحة فى داخلها ، ومحترمة فى خارجها ، والصلح فى بلاد أوروبا يزيد ثباتا ، فلما فرغ من كلامه صاحت الأصوات : حفظ الله الملك« لويز فليب الأول » ، ثم سلم الملك على المجلس ، وخرج ، مصافحا من رآه من أهل المجلس وغيرهم ، وركب حصانه ، ومشى ، وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره ، وربما عانق كثيرا من الناس ، وكان موكبه مؤلفا من أهل البلد ، ومن خفر الملة المسمى الخفر الأهلى يعنى«الرديف» ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة عظيمة وكان تملكه فى السابع من شهر أغسطوس سنة ١٨٣٠ ( ص ١٨١ ) من الميلاد .

## الفصل الخامس

فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية التي كانت السبب في زوال مملكة الملك الأول الذي فعل فعلته، وفي العواقب لم ينظر ، وطمع بما لم يظفر، كما قال الشاعر :

إن النفوس على اختلاف طباعها طمعت من الدنيا بما لم تظفر

اعلم أن الفرنساوية بعد هذه الفتنة اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب في ذلك ، وأيضا فإنه بمقتضى القوانين أن الوزراء يضمون ما يقع في المملكة من الخلل فهم المحاسبون دون الملك : وليس على الملك شيء أصلا ، فحملهم ثقيل ، ووظيفتهم شاقة التحمل ، فعليهم الوزر في كل ما يحدث ، قال الشاعر :

يتداول الناس الرياسة بينهم وأريد حظهمو فلا أستطيع
وأكلَّف العبء الثقيل وإنما تبلى به الأتباع لا المتبوع
فعليهم الأثقال يرمى حملها وعلى الرئيس الحتم والتوقيع

فبرزت الأوامر في جميع طرق البلاد أن يوقفوهم إذا مروا عليهم ، وقد قلنا : إن رئيس الوزراء كان « بولنياق » فمسك من الوزراء أربعة منهم هذا الأمير المذكور. وصورة القبض عليه : أنهم وجدوه خارجا من بلاد فرنسا في صورة خادم لامرأة عظيمة ، فعرفوه ، وأوقفوه وخفره الخفر الموجود في الطريق خوفا من الرعية ، ثم أعلموا بذلك الديوان في « باريس » فكتب هو مكتوبا إلى ديوان مشورة « البير » وقد كان من رجال المشورة يقول فيه : إنه لامعنى للقبض عليه حيث إنه من أهل هذا الديوان ، واحتج بالمادة الرابعة والثلاثين من الشرطة ، لا يمكن أن يحبس أحد من أهل ديوان « البير » إلا بأمر أهل ذلك الديوان ، ولا يمكن أن يحكم عليه غيرهم في مواد الجنايات ، فما كان جوابهم إلا أنهم اجتمعوا وقرأوا مكتوبة ثم تشاوروا فكانت خلاصة المشورة الإذن بالقبض عليه وحبسه حتى يحكموا عليه، فجيء به إلى بلدة «ونسينه»(١) بقرب « باريس »،وحبس في قلعتها،ثم قبض على الثلاثة الأخر

(1) Le Ville de Vincennes

وحبسوا معا من غير أن يحصل لأحد منهم شيء من الترذيل أبدا مدة حبسه، ثم إنهم مدة حبسهم بنوا لهم محلا عظيما فى ديوان مشورة «البير» لتسمع دعواهم فيه (ص ١٨٢) وجعلوه بناء متينا وثيقا على صورة عظيمة، حتى لا يمكن للرعية الهجوم عليهم لأذيتهم، ولا لأحبابهم أن يخلصوهم من الحبس، وكلفوا ذلك أموالا لها وقع عظيم ثم جاءوا بهم إلى هذا المكان وحبسوهم فى محل منه، وصاروا يأتون بهم كل يوم وكانت دعوتهم من أعظم ما يتعلق غرض الإنسان بسماعه.

ومن أجلّ ما يدل دلالة قطعية على تمدن الفرنساوية وعدل دولتها؛ ولنذكر لك بعض شيء منها فنقول:

اعلم أن ملك الفرنسيس الجديد لما تولى تعلقت إرادته بعزل سبعين رجلا من أهل مشورة « البير » الذين كان ولاهم «شرل العاشر» الملك السابق ثم سمى منهم تسمية جديدة من كان على غرضه فلو كان هؤلاء السبعون ( فضلوا ) من أهل الديوان لكانوا يحامون عن الوزراء، فكان غالب أهل ديوان مشورة « البير » أعداء لهم إلا أن التمسك بالقوانين، وطيب نفوسهم فى الجملة وعدم ميلهم بالطبيعة إلى الظلم كان سببا فى نجاة الوزراء المذكورين، ومما يتعجب منه أن الوزير « بولنياق » حين القبض عليه أراد أن يختار واحدا يحامى عنه من العارفين بالأحكام، فلم يختر إلا «مرتنياق» أحد الوزراء المعزولين قبله ليس بينه وبينه وصلة ولا محبة، وأعجب من ذلك أن الآخر الذى هو « مرتنياق » وفى بذلك مع غاية الأمانة التامة، وبذل ما عنده من المعارف لدفع الإيرادات عن موكله، وكذلك كل واحد من الوزراء المقبوض عليهم وكل محاميا له، ثم لما فتحوا الدعوى أرسلوا لكل واحد من الوزراء المحبوسين يطلبونه بخصوصه مع غاية الرفق واللين.

وكيفية أول ما يسأل به: ما اسمك؟ ما وصفك؟ ما منصبك؟ ما رتبتك؟ فيجيب بأجوبة هذه الأسئلة، ولو كانوا يعرفون ما ذكر ثم قالوا لكل واحد منهم: أتقر بأنك وضعت خط يدك تحت أوامر الملك؟ قال: نعم، ولأى شيء فعلت ذلك؟ فيجيب بأن الملك أراده، ولأى شيء أراد الملك فعل ذلك؟ وهل عزم عليه من قديم الزمان أو الآن فقط؟ وقد كان كل منهم يجيب فى مثل هذه الأسئلة بقوله: لا أفشى سر ديوان حضرة الملك أصلا، مع غاية التعظيم فى المجلس لمليكهم المعزول ولم يتفوه أحد منهم بشيء من أسرار الديوان أبدا، ولم يكرههم أحد على ذلك. ثم بعد سؤالهم

وانتهائه ، وكتب خلاصته جاء المحامون عنهم ومكثوا أيضا عدة أيام ، ليظهروا أن الوزراء (ص ١٨٣) بريئون من الذنوب وأن مقصدهم كان حسنا ، وهكذا ، فبعد ذلك امتحنت المشورة جميع الدعوى. ثم قضت بما هذه صورته : من حيث إن الوزراء وضعوا خط أيديهم تحت الأوامر المخالفة لقوانين المملكة ، ومن حيث إنهم هتكوا حرمة القوانين ومخالفتها ، حكمت المشورة عليهم بالحبس الدائم ، وتجريدهم من أوصاف الشرف وألقابه ، وحكمت على « بولنياق » زيادة على ذلك بالموت الحكمى وهو تقريبا نظير مسئلة من انقطع خبره وحكم بموته القاضى باجتهاده ، بعد مضى مدة لا يعيش فوقها غالبا ، والموت الحكمى عند الفرنساوية ، ويقال له «الموت المدنى» هو أن يكون حكم الحى عندهم كحكم الميت فى كثير من الأحوال ، وهو أن المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته مثل ما إذا مات حقيقة ، ولا يصح أن يرث غيره بعد ذلك : ولا أن يورث هو غيره الأموال التى ملكها بعد ذلك ، ولا يمكنه أن يتصرف فى أمواله جميعها أو بعضها بهبة أو وصية ، ولا يجوز إهداؤه ، ولا الوصية له إلا بالقوت ، ولا يجوز أن يكون وليا ولا وصيا ولا شاهدا فى شهادة شرعية ، ولا تقبل دعواه ، ولا ينعقد نكاحه ، بل ينفسخ نكاحه الأول ؛ بالنظر للأحكام المترتبة عليه : ولزوجته وأولاده أن يصنعوا فى أمواله أو فى أنفسهم كما لو مات هو حقيقة . وبالجملة فهو حى ملحق بالموتى ، ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس ، وكانت ذريته حسنة التربية ، كان المحكوم عليه بذلك يبقى فى العادة على ما كان عليه قبل الحكم ، لكون عائلته تعتقد أن هذا من باب التعدّى المحض ، وأنه ناج بينه وبين مولاه ، ولا تفارقه زوجته أصلا ، لاعتقادها أنها فى عصمته باطنا ، ولو ولدت منه بعد ذلك ولدا ورّثه الأخوة معهم ، وإن كان هذا خلاف الأحكام المترتبة على الموت الحكمى ، ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لا بد من الحكم عليهم بالموت الحقيقى ، فأخبرهم أهل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والإنصاف ، وأن كتاب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء إذا حصلت منهم خيانة ، وإنما حكمت المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لأمثالهم ، ويصلح فى حقهم قول الشاعر :

فهم من المجد فى حضيض وهم من الجد فى الروابى
(ص١٨٤) وهم إذا فتشوا وعدوا أعز من عودة الشباب

ثم ليلة أن حكم عليهم بذلك، قبل أن يطلعوهم على خلاصة المشورة أخرجوهم من هذا الحبس الذى كان بنى لأجلهم، وخفروهم إلى قلعة «ونسينه» (١) فحبسوهم بها، ومنها نقلوهم إلى قلعة أخرى، وهم محبوسون بها إلى الآن، والحكم عليهم بهذه الكيفية، مما يدل على حسن أخلاق الدولة الفرنساوية.

---

(1) Le château de Vincennes

## الفصل السادس

[فيما كان بعد الفتنة فى سخرية الفرنساوية على « شرل العاشر »
وفى عدم اكتفاء الفرنساوية بذلك]

اعلم أنه جاء إلى الفرنساوية خبر وقوع بلاد الجزائر فى أيديهم قبل حصول هذه الفتنة بزمن يسير ، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة ، وإن أظهروا الفرح والسرور به فبمجرد ما وصل هذا الخبر إلى رئيس الوزراء « بولنياق » أمر بتسييب مدافع الفرح والسرور ، ولقد صدق من قال :

وكم سرور طيه أحزان　　لأجل هذا خلق الزمان

وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث إن مراده نفذ ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل إلا وانتصرت الفرنساوية عليه ، وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى إن مادة الجزائر نسيت بالكلية ، وصار الناس لا يتحدثون إلا بالنصرة الأخيرة : على أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيس خرج من ملكته يتندم على ما وقع منه . وللزمان صروف تدول ، وأحوال تحول . وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضى ذلك ، بل بمجرد إرضاء هوى النفس ، وإذا نصر الهوى بطل الرأى .

ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك جاء إليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة ، فمن جملة كلامه ما معناه : أنه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية ، ولازالت كذلك – انتهى – مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهالى الجزائر إنما هو مجرد أمور سياسية ، ومشاحنات تجارات ومعاملات ومشاجرات (ص١٨٥) ومجادلات ، منشؤها التكبر والتعاظم .

ومن الأمثال الحكمية : لو كانت المشاجرة شجرا ، لم تثمر إلا ضجرا . فلما

وقعت الفتنة كسر الفرنساوية بيت المطران بعد هروبه وخربوه ، وأفسدوا جميع مافيه حتى إنه تخفى ، ولم يعلم له أثر ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته ثانيا،ولا زال مذموما مخذولا ، قال الشاعر :

لاتعجبن رويدا إنها دول     دنيا تنقّل من قوم إلى قوم

ثم إن الفرنساوية لما رأوا أن«شرل العاشر» أخرج«باشا الجزائر» من مملكته أيضا، صاروا يهزءون « بشرل » العاشر ، ويصورونه هو وباشا الجزائر فى الطرق،ويكتبون فى وقائع النوادر تلميحات غريبة ، ونكات ظريفة ؛ فمن جملة ذلك أنهم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر : وأنت أيضاجاءت نوبتك ؟!! كأن الباشا يقول للملك استفهاما ليهزءوا به : وأنت أيضا عزلت كما عزلتنى !

شعر

فقل للشامتين بنا رويداً     أمامكم المصائب والخطوب

وقال آخر :

الدهر يفترس الرجال فلا تكن     ممن تطيشه المناصب والرتب
كم نعمة زالت بأدنى زلة     ولكل شىء فى تقلبه سبب

وكتبوا أيضا فى وقائع النوادر ما نصه : إن الباشا المذكور يقول «لشرل» العاشر قم بنا نلعب لعب كذا ، على قدر معلوم ،وإن لم يكن معك شىء جمعنا لك شيئا ، على سبيل الصدقة من الناس ! يشيرون بذلك إلى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا ، و«شرل العاشر » خرج من بلاده فقيرا ، وصوروا أيضا الملك المذكور فى صورة أعمى يتكفف الناس ، ويقول فى سؤاله : أعطوا بعض شىء للفقير الأعمى ، يشيرون إلى أنه لم يتبصر فى عواقب الأمور ، وصوروه أيضا هو ووزيره « بولنياق » خارجين من كنيسة ، إشارة إلى أنهما لايفلحان إلا فى هذه العبادة الباطلة ،وأنهما قسوس لا أمراء ، وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس فى بعض الأحيان لبس القسيسين ،ويقدس بالناس كالقسيس فى كنيسته التى فى (سرايته). وكانوا يصيحون (ص١٨٦) فى البلدة بعد هذه الفتنة بورقات مطبوعة ،فيها : عشق هذا الملك وفساده فى صغر سنه ، وفسق المطران الكبير ، وهكذا ، وبأن ابن ابنه ليس هو ابنا حقيقيا ، وإنما هو ابن مزور ، والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق ليبيعوها فى ساحة بيت الملك الجديد ، الذى هو من أقارب

الملك . وأعجب من ذلك أنهم يكتبون فى هذه الورقة : أن الملك الجديد هو الذى كتب ذلك سابقا فى « جرنالات » الإنكليز ، بعد ولادة حفيد الملك القديم ، ويصيحون بذلك ، ولا أحد ينكر عليهم ، لما أن حرية الرأى قولا وكتابة تقضى بذلك .

وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة ، منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من ذلك ، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم ، وتولية حفيد الملك السابق .

ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار إلى الآن ، وربما تعدّت آثارها إلى غيرها من البلاد .

فمن ذلك : الفتنة التى ترتب عليها انعزال إقليم البلجيك من مملكة الفلمنك ، وقد كان جزءا منها .

ومن آثارها أيضا : طلب بلاد له الحرية والخروج من حكم الموسقوبية .

ومنها : الفتن التى وقعت فى بلاد إيطاليا .

## الفصل السابع

[فيما كان من دول الإفرنج ، بم بعد سماعهم بانعزال الملك الأول]
وتقليد المملكة للملك الثانى ، وفى رضائهم بذلك

لايخفى أن العائلة السلطانية القديمة قد رجعت بعد تعاهد الدول الإفرنجية على السلطان « نابليون » وإخراجه ونفيه إلى جزيرة « سنت هلينة » . وترجيع هذه العائلة إلى البلاد بعد أن كانت فى البلاد الغريبة ، فتملك هذه العائلة إنما هو بمعاهدة ملوك الدول الإفرنجية ، فهى فى الحقيقة مملكة على فرنسا رغما عن أنف غالب الفرنساوية . فلما وقعت الفتنة خشى الفرنساوية من أن الملوك المذكورين يأتون بجيوش إلى بلادهم ، وينصبون كرسى هذه العائلة ، فتخلصوا من ذلك بتملك العائلة الأخرى التى هى عائلة «أرليان» ، ولكنهم لم يعلموا هل ترضى الملوك بذلك أو لا ، وعزموا على أنهم إذا لم يرضوا بذلك وجاءوا لمحاربتهم حاربوهم ، ولو حصل ما حصل ، وجهزوا ما يدل على ذلك .

ولنذكر لك هنا نسبة ملوك الإفرنج بالنظر لهذه المادة فنقول : اعلم أن ملك أسبانيا يوافق بسياسته (ص١٨٧) وسلوكه سياسة ملك فرنسا القديم ، وهو أيضا من أقاربه ، لأن العائلة التى تحكم ببلاد أسبانيا من العائلة التى تحكم ببلاد فرانسا ، فهى تميل إليها ظاهرا وباطنا ، ومثلها فى ذلك الميل بلاد البرتوغال ، فهاتان المملكتان لايحصل منهما شىء يخاف به على العائلة القديمة . وأما بلاد إيطاليا فإن دولة « نابلى » ودولة « رومة » ودولة « سردنيا » توافق أيضا فى سياستها سياسة «البربون» ، يعنى العائلة القديمة ، فحينئذ ملوك هذه الدول تأثرت باطنا بما وقع فى بلاد الفرنساوية ، وأما دولة « المسقو » ، ودولة «النيمسا» ، ودولة « البروسه » ، و« الإنكليز » فإنها متعاهدة على تولية عائلة « البربون » القديمة المملكة ، فهى أيضا تأثرت بذلك نوع تأثر ، وخصوصا الدولة المسقوبية ، وأما الدول الصغيرة ببلاد الإفرنج فإنها تابعة للدول الكبيرة ، فلم يبق مع دولة الفرنساوية الجديدة إلا بعض أقاليم صغيرة تريد الحرية ، غير أن أهل دولة الانكليز أظهرت الرضا

بما وقع ، فلذلك ملكهم كان أول من اعترف بالمملكة لملك الفرنساوية الجديد ، وقد جرت العادة أن الملك إذا تولى لا بد من أن يعترف له الملوك بالتملك ، ويقروه على ذلك ، وهو من الرسوم غالبا . يقال إن حضرة مولانا السلطان الأعظم لما سمع بذلك، وأخبره « الإيلجى » أجاب بأنه لايصنع شيئا حتى يرى ماتصنعه ملوك الإفرنج ، فإن أقروه على ذلك أقره أيضا ، ومدخلية الدولة العلية فى ميدان دوائر الدول الإفرنجية قليل.

وممن توقف فى الإقرار مدة طويلة ملك الموسقو ، ثم بعد ذلك أقره بشرط أن لايتغير شىء فى ميزان بلاد الإفرنج ، يعنى أن بلاد الإفرنج تبقى على ماهى عليه ، من غير أن يحصل بها راجحية أومرجوحية فى السياسة ، بمعنى أن مملكة فرانسا مثلا لاتزيد عما كانت عليه قبل الفتنة . والظاهر أن أكثر الملوك التى أقرت ملك الفرنساوية الجديد إنما أقرته على ذلك ، ورضيت بما وقع رضاء وقتيا ، حتى أن الفرنساوية تحس بذلك وتجهر به ، كأنها لاتثق بذلك الصلح الذى تراه كأنه هدنة وتعليق .

ولما خرجت من فرانسا كان جميع الناس يتوقع فيها إشهار الحرب وظهوره بين النيمساوية والفرنساوية ، أوالموسقوبية ، أوالاسبانيول ، أوالبروسه :

والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون ، وللفرنساوية الآن التئام مع الإنكليز لم يسبق مثله أبدا ، وأما الكلام على (ص١٨٨) الرجوع فراجعه فى خاتمة الرحلة .

# المقالة السادسة

[فى ذكر نبذات من العلوم والفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقدمة]
وهى تشتمل على عدة كتب

## الكتاب الأول

فى تقسيم العلوم والفنون من حيث هى ، وفى ذكر الفنون
والعلوم العامة لجميع التلامذة

### الفصل الأول

[ فى تقسيم العلوم والفنون على طريق الإفرنج ]

اعلم أن الإفرنج قسموا المعارف البشرية إلى قسمين : علوم وفنون .

فالعلم هو الادراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين ، وأما الفن فهو معرفة صناعة الشىء على حسب قواعد مخصوصة .

ثم إن العلوم تنقسم إلى رياضية وغيرها ، وغير الرياضية تنقسم إلى طبيعيات وإلهيات .

والعلوم الرياضية هى : الحساب ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة .

والعلوم الطبيعية هى : تاريخ الطبيعيات ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء .

والمراد بتاريخ الطبيعيات علم الحشائش ، والأعشاب ، وعلم المعادن والأحجار ، وعلم الحيوانات .

وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات : مرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن ، ومرتبة الحيوانات .

وأما الإلهيات فتسمى أيضا علم ماوراء الطبيعيات : أومافوق الطبيعيات .

وأما الفنون فإنها تنقسم إلى فنون عقلية ، وإلى فنون عملية ، فالفنون العقلية ما يكثر

قربها من العلوم ، مثل علم الفصاحة والبلاغة ، وعلم النحو ، والمنطق ، والشعر ، والرسم ، والنحاتة ، والموسيقى ، فإن هذه فنون عقلية ، لأنها تحتاج إلى قواعد علمية : وأما الفنون العملية : فهي الحرف .

هذا هو تقسيم حكماء الإفرنج ، وإلا فعندنا أن العلوم والفنون في الغالب شيء واحد ، وإنما يفرق بين كون الفن علما مستقلا بنفسه ، وآلة لغيره ، ثم إن العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هي : الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم ، ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنساوية ، ومايتعلق بها ، فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها :

## الفصل الثانى

[ فى تقسيم اللغات من حيث هى ، وفى ذكر اصطلاح اللغة الفرنساوية ]

اعلم أن اللغة لما كانت ضرورية فى إفهام السامع معنى يحسن سكوت المتكلم عليه (ص١٨٩) وكانت لازمة فى التفهيم والتفهم وفى المخاطبات والمحاورات ، وجب عند جميع الأمم على المتعلم أن يبتدىء بها ، ويجعلها وسيلة لما عداها ، واللغة من حيث هى الألفاظ المخصوصة الدالة على المعانى المخصوصة ، وطريقها الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الأمم ، وهى قسمان : لغات مستعملة . ولغات مهجورة ، فالأول مايتكلم بها الآن كلغة العرب ، والفرس ، والترك والهند ، والفرنسيس ، والطليانية ، والإنكليز . والأسبانيول ، والنمسا ، والموسقو . والثانى ماانقرض أهله واندثر أربابه ، ولم يبق إلا فى الكتب مثل اللغة القبطية ، واللاطينية ، واليونانية القديمة المسماة بالإغريقية . ومعرفة هذه اللغات المهجورة فى المخاطبات نافعة لمن أراد الاطلاع على كتب المتقدمين ، وفى بلاد الإفرنج توجد مدارس مخصوصة معدّة لتعلم هذه الألسن ، لما يعلمون من نفعها .

وكل لغة من اللغات لابد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة ، وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية « أغرماتيقا » وباللغة الفرنساوية « أغرمير » ومعناها تركيب الكلام ، يعنى علم ضبط اللغة بنحوها ، فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هى ، وهو مرادنا هنا فهو : علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال ، والكلام ماقصد به إفادة السامع معنى يحسن عليه السكوت ، وهو يتركب من الكلمة ، وأقسامها عند أهل اللغة العربية ثلاثة : الاسم ، والفعل والحرف ، والاسم إما مظهر نحو زيد ، أو مضمر نحو هو ، أو مبهم نحو هذا . والفعل إما ماض كضرب ، أو مضارع كيضرب ، أو أمر كاضرب . والحرف إما مختص بواحد من قسيميه كمن وقد ، أو مشترك بينهما كهل وبل .

وإنما قسمنا هذا التقسيم هنا لأنه سيأتى لنا أن الفرنساوية عندهم الضمير واسم الإشارة قسيمان للاسم ، ولا يعدان منه بوجه من الوجوه فإنهم جعلوا أجزاء الكلمة

عشرة، كل واحد منها قسم مستقل له علامة وهى الاسم، والضميروحرف التعريف والنعت والمشترك وهو أسماء المفعول والفاعل والفعل والظرف ويسمى عندهم مكيف الفعل، وحروف الجر وحروف الربط وحروف النداءوالتعجب ونحوه. فيقولون فى تعريف الاسم هو كلمة تدل على شخص أو شىء أى على العالم وغير العالم مثل زيد وفرس وحجر. وفى تعريف (ص ١٩٠) الضمير: هو مايقوم مقام الاسم وحرف التعريف هو أيضا عندهم لام التعريف كما عندنا إلا أنه يختلف باختلاف الاسم الداخل عليه فإنه للمذكر «لُ» بالضم، وفى المؤنث «لَ» بالفتح، ولجميعهما «لس» ، ولكن السين لا ينطق بها ويقولون فى تعريف النعت هو مايدل على الاتصاف بوصف من الأوصاف كحسن وجميل ، فهو نظير الصفة المشبهة ، وأما اسم الفاعل واسم المفعول فإنهما نحو ضارب ومضروب؛ والظرف عندهم مثله فى لغة العرب، وحروف الجر مثل الظروف، وحروف الجر فى اللغة العربية، فإذا قال الإنسان باللغة الفرنساوية جئت قبل زيد وبعده، فإن قبل وبعد من حروف الجر عندهم ، وإذا قال جاء زيد أولا أو قبل أونحو ذلك فإنه ظرف. وأما الحروف الروابط فإنهم يعرفونها بأنها ماتتوسط بين كلمتين أو جملتين نحو واو العطف فى قولك جاءزيد وعمرو ، ونحو أن فى قولك أؤمل أن أعيش زمنا طويلا. ومن هذا القسم إذن وحينئذ من نحو قولك أنت عاقل، فإذن أنت قابل للتعلم أو أنت فحينئذ قابل ، وحروف النداء والتعجب ونحوها معلومة ، وقواعد لغتهم يلزمها هذا التقسيم .

ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو الكلام ثلاثة فى سائر اللغات، وإن الحصر عقلى لعلة استقلالها بالمفهومية وعدمه ، ودلالة مااستقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شىء .

ورأيت فى كتب الفرنساوية من قسمها أولا إلى هذه الأقسام الثلاثة ، ثم قسمها تقسيما ثانويا ، فالحصر حينئذ عقلى على حاله .

ثم إن كل إنسان يعبر عن مقصوده إما بالكلام أو بالكتابة ، فكلامه يسمى عبارة ومنطقا . وتعبيره عن مقصوده بالكتابة يسمى نفسا ومسطرة وقلما ، فقد يكون قلم الإنسان أفصح من عبارته ؛ فإنه قد يكون الإنسان ألكن ، ويكون قلمه فصيحا ثم إنه إذا أفصح وأغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية ، وإن كانت عبارته مؤدية

للمقصود من ركاكة فهى مناسبة ، وإن كان بها بعض شىء يمجه السماع فهى ركيكة أو رديئة ، وعلى كل فالعبارة إما بها إطناب أو اختصار أو على الأصل ، ثم إن الكاتب إما أن يفصح عن مراده بنظم أو نثر ، وعلى كل فإما أن يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة فى المحاورات المسماة الدارجة أو باللغة الموافقة ، فقواعد النثر هو الأصل (ص ١٩١) فى الكلام والتأليف ، ولا يحتاج إلى وزن وتقفية إلا فى السجع ، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك ، ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوما ، وأما لغة الفرنسيس فلا ينظم فيها كتب العلوم أصلا.

والنظم هو أن يفصح الإنسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ، وهو يحتاج زيادة عن الوزن إلى رقة العبارات ، وقوة الأسباب الداعية لنظمه ، ويعجبنى قول بعضهم موريا :

صوغ القريض على اختلاف رجاله    ما بين حصبا لا تعد وجوهر
وإذا أردت بأن تفوز بدره    نظما فخذه من «صحاح الجوهرى»

ولبعضهم :

يامن يقول الشعر غير مهذب    ويسومنى التكليف فى تهذيبه
لو كان كل الخلق فيك مساعدى    لعجبت من تهذيب ما تهزوبه (١)

وقال بعضهم فى فقد الأسباب :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة    باب الدواعى والبواعث مغلق
خلت الديار : فلا كريم يرتجى    منه النوال ، ولا مليح يعشق

وقال آخر :

الشعر لا يخفى عليكم حاله    قد بار وا أسفاه ، بعد نفاق (٢)
وارحمتا لبنى القريض ، فإنهم    ماتوا ، وهم أحيا ، من الإملاق (٣)

ونظم الشعر غير خاص بلغة الغرب ، فان كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرها ، نعم ، فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها فى لغة العرب

---

(١) الصواب : ماتهذى به ، ليكون الجناس تاما.
(٢) نفاق : مصدر نفق البيع : راج ، ورغب الناس فيه .
(٣) الإملاق : الافتقار .

وحصره فى البحور الستة عشر المستعملة هو لخصوص اللغة العربية ، وليس فى اللغة الفرنساوية تقفية النثر . ومعرفة فن النظم لا تكفى فى نظم الشعر ، بل لا بد أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة ، وإلا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول :

إلى العربى مل فى نظم شعر  فذاك لسان أرباب الكمال
فشعر الفرس أسكرنا بجام  وشعر الترك طرّز بالخيال

(ص١٩٢) ولنذكر هنا خلاصة صغيرة من الأشعار ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات فنقول : قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب فى الغزل قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها حور  قتلننا ، ثم لم يحيين قتلانا
يسلبن ذا اللب حتى لاحراك به  وهن أضعف خلق الله إنسانا

ولنذكر هنا حكاية لطيفة ؛ وهى : أنه دخل أعرابى على ثعلب ، فقال له : تزعم أنك أعلم الناس بالأدب ؟ فقال : كذا يزعمون ، فقال : أنشدنى أرق بيت قالته العرب ، وأسلسه فقال قول جرير : إن العيون إلى آخره ، فقال : هذا الشعر غث رث ، قد لاكه السفلة بألسنتها ، هات غيره ، فقال ثعلب : أفدنا من عندك يا أعرابى ، فقال : قول مسلم بن الوليد صريع الغوانى :

نبارز أبطال الوغى فنبيدهم  ويقتلنا فى السلم لحظ الكواعب
وليست سهام الحرب تفنى نفوسنا  ولكن سهام فوّقت فى الحواجب

فقال ثعلب لأصحابه : اكتبوها على الحناجر ، ولو بالخناجر ! فشعر مسلم ابن الوليد أقوى حماسا من قول جرير . وأقول : إن نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم :

خطرات النسيم تجرح خديـ  ـه ولمس الحرير يدمى بنانه

وقول ابن سهل الإسرائيلى :

إنى له عن دمى المسفوك معتذر  أقول : حمّلته فى سفكه تعبا

ومما يمكن نظمه فى سلك قول مسلم بن الوليد قول بعضهم :

نعد العذارى من دواهى زماننا  واقتلها أحداقها والمحاجر
ونشكو إليها دائرات صروفه  وأعظمها أطواقها والأساور

ويعجبنى قول أمين أفندى الزللى فى همزيته :

واقرن صبوحك بالغبوق ، ولا تدع  فرص السرور بغدوة ومساء

واعقد ببنت الحان ، واجعل مهرها    عقلى ، وأشهد سائر الندماء
واستجلها بكرا تقلد جيدها    بعقود در بل نجوم سماء

إلى أن قال :

(ص١٩٢) واعدل عن العيدان وارشفها على    رقص الغصون ونغمة الورقاء

إلى أن قال :

من كف ساق . فى لماه ولحظه    وحديثه . نوع من الصهباء
وبخدّه ورد حماه بأسهم    عن قطفه باللحظ والإيماء

ويحسن هنا ذكر قول الشهاب الحجازى :

لاوغصن راق للطرف ورقّ    وعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظرى    والشعور لليل والخد الشفق
وعيون حرمت نومى وما    حللت لى غير دمى والأرق
مااحمرار الراح إلا خجلا    من رضاب سكرت منه الحدق
والذى قد حسبوه حببًا    فوق خد الكاس قطرات العرق

ويعجبنى قول بعضهم :

لولا شفاعة شعرها فى صبها    ما واصلت وأزالت الأسقاما
لكن تنازل فى الشفاعة عندها    وغدا على أقدامها يترامى

وينتظم فى سلكه قول بعضهم :

سل سيفا من لحظه ثم أرخى    وفرة وفرت عليه الحميله(١)
إن شكا الخصر طولها غير بدع    لنحيل يشكو الليالى الطويله

ومما يفوق قول الواو(٢) الدمشقى أو يساويه :

قالت متى الظعن ياهذا؟ فقلت لها :    إما غدا زعموا أولا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت    وردا ، وعضت على العناب بالبرد

وقول بعضهم :

بنفسى بيضاء العوارض أقبلت    بوجه كأن الشرق من حسنه غرب

---

(١) الحميلة : علاقة السيف .    (٢) الصواب : الوأواء .

وبين الإزار الماوى حقف رملة(١) وبين الوشاح الملتوى غصن رطب
وتحت لثام الخز أنفاسها لظى(٢) وفوق الرواء السكب أدمعها سكب
تبدت مع الأتراب تدعو على النوى(٣) وإن لم يكن فى الغانيات لها ترب
تسيل على الخد الأسيل(٤) دموعها وصب دموع العين يروى به الصب
(ص١٩٤) وقد وكلت إحدى يديها بقلبها مخافة أن يرفض من صدرها القلب(٥)
فلما أجزن الجسر قمن وراءه كسرب من الغزلان ليس له سرب(٦)
وعضت بدر الثغر فضة معصم يكاد يثنيه من الذهب القلب(٧)
وكادت تحط الرحل لولا عزيمتى قسى جفون العين أسهمها الهدب

ومما بعد من الأشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصفر وجهى إذا تأمله طرفى فيحمر خده خجلا
حتى كأن الذى بوجنته من دم جسمى إليه قد نقلا

ومما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

وإذا نظرت إلى محاسنها فلكل(٨) موضع نظرة نبل(٩)
وتنال منك بحد مقلتها مالا ينال بحده النصل
شغلتك وهى لكل ذى بصر لاقى محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها عن ذى الهوى ، ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل(١٠)

---

(١) الإزار : كل ما سترك ، والحقف : كل ما اعوج من الرمل واستطال.
(٢) الخز : الحرير ، واللظا : النار أو لهبها .
(٣) الأتراب : جمع ترب وهو من ولد معه ، والنوى : البعد .
(٤) الأسيل : اللين الأملس الطويل .
(٥) ارفض : تفرق ، وذهب .
(٦) السرب من الغزلان : القطيع منها . وسرب ( فى آخر البيت ) بمعنى البال والقلب والنفس
(٧) يثنيه : يكون ثانيا له . القلب ( بالضم ) : سوار المرأة .
(٨) الأصل : «فكل» وبه ينكسر الوزن ولعل الصواب ماذكرناه : فلكل .
(٩) النبل : عظام الحجارة وصغارها .
(١٠) الكحل : سواد منابت شعر الأجفان خلقة .

ومن أرق ماقيل أيضا قول الشاعر :

لاموا على صب الدموع كأنهم  لايعرفون صبابتى وولوعى
فأجبتهم : وعد الخيال بزرة  أفلا أرش طريقه بدموعى!

ومما يعجب فى الرثاء قولى أبى الطيب فى أبى شجاع فاتك :

يامن يبدل كل يوم حلة  أنى رضيت بحلة لاتنزع
مازلت تخلعها على من شاءها  حتى لبست اليوم مالا يخلع
مازلت تدفع كل أمر فادح  حتى أتى الأمر الذى لايدفع
فظللت تنظر لارماحك شرع(١)  بين الأقام ولا سيوفك قطع
بأبى الوحيد وجيشه متكاثر  يبكى ومن شر السلاح الأدمع
وإذا حصلت من السلاح على البكا  فحشاك رحت به وخدك تقرع

إلى أن قال :

من للمحافل والجحافل والسرى(٢)  فقدت بفقدك نيرا لايطلع
(ص١٩٥) ومن اتخذت على الضيوف خليفة  ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

وقوله أيضا فى فاتك المذكور :

لا فاتك آخر فى مصر نقصده  ولا له خلف فى الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء فى شيم  أضحى تشابهه الأموات فى الرمم
عدمته وكأنى سرت أطلبه  فما تزيدنى الدنيا على العدم

إلى أن قال :

الدهر يعجب من حملى نوائبه  وحمل جسمى على أحداثه الحطم(٣)
وقت يضيع وعمر ليت مدته  فى غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه فى شبيبته  فسرهم وأتيناه على الهرم

وبالجملة والتفصيل فأحسن وأظرف سائر ما قيل :

سلوت عن الأحبة والمدام  وملت عن التهتك والهيام
وسلمت الأمور إلى إلهى  وودعت الغواية بالسلام

---

(١) شرع : مسددة ، مصوبة .
(٢) الجحافل : جمع جحفل ، وهو : الجيش العظيم .
(٣) الحطم : الشديدة .

وملت إلى اكتساب ثواب ربى وقدما طال عزمى بالغرام
وما أنا بعده معطٍ عنان الـ هوى لكن ترى بيدى زمامى
أبعد الشيب وهو أخو سكون يليق بأن أميل إلى غرام
فشرب الراح نقص بعد هذا ولو من راحتى بدر التمام
فكم أجريت فى ميدان لهو خيول هوى وكم ضربت خيامى
وكم قبّلت وردا من خدود وكم عانقت غصنا من قوام
سأوتى الكأس تعبيسا وصدا وإن جاءت تقابل بابتسام
عزمت على الرجوع عن المناهى ومثلى من يدوم على اعتزام

# الفصل الثالث

## [ فى فن الكتابة ]

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء أو حروف المعجم، وأغلب الحروف الهجائية متفقة فى سائر اللغات ومبدوءة بحرف الألف إلا عند الحبشة، فإن حرف الألف هو الثالث عشر، وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الأمم، وهى روح المعاملات وإحضار الماضى، وترتيب (ص ١٩٦) المستقبل ورسول المراد، ونصف المشاهدة. ثم إن العرب والعبرانيين والسريانين يكتبون من اليمين إلى الشمال، والصينيون يكتبون من أعلى إلى أسفل، وتكتب الإفرنج من الشمال إلى اليمين، وهل الأوفق طبعا الكتابة من اليمين إلى الشمال كما تكتب العرب وغيرهم ممن ذكر معهم، أو العكس كما تكتب الإفرنج؟ .

مما يدل على الأول ترتيب الأعداد فإنها مرتبة طبعا، وهى تبتدئ من اليمين إلى اليسار، فالآحاد التى هى أجزاء العشرات تكون على يمين العشرات، والعشرات كذلك بالنسبة للمئات، وهى كذلك بالنسبة للألوف، إذا كانت الأعداد أصولا لغيرها - يعنى أشياء أولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها - دل ذلك على أن مخالفتها مخالفة للأصل وثبت نقيضه وهو المراد. وحاول الافرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الأعداد وكتابتها فقط، فبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع. فمن باب أولى يقال: إن الكتابة من أعلى إلى أسفل مخالفة لمقتضى الطبع ويقال: إن العرب كانت تعرف الكتابة فى زمن سيدنا أيوب عليه السلام، وقد وقع اختلاف فى أن الحروف الهجائية هل هى من الأوضاع الإلهية أو من الأوضاع البشرية، وعلى الثانى فقد وقع الاختلاف فى أنها من أوضاع أى ملة، فقال بعضهم: انها من أوضاع السريانيين أو من أوضاع قدماء المصريين، واستظهر الأول فعليه تكون انتقلت من السريانيين إلى اليونان ثم بدليل أن الحروف اليونانية هى عين السريانية إلا أنها انقلبت من الشمال إلى اليمين، ومن أهل اليونان أخذ الرومانيون حروفهم .:.

وجودة الخط لا تدل على الفضل ، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل .

وقد تنازع الشعراء فى التفضيل بين السيف والقلم ، ثم بين قلم الإنشاء والحساب :
وأشار المتنبى(١) إلى تفضيل السيف فى قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب    فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى    متونهن جلاء الشك والريب

وأشار السيوطى فى كتاب الأوائل إلى تفضيل القلم على السيف حيث قال :

الكتب عقل شوارد الكلم    والخط خيط فرائد الحكم(٢)
بالخط نظم كل منتثر    منها ، وفصل كل منتظم
(ص١٩٧) والسيف ، وهو بحيث تعرفه    فرض عليه عبادة القلم

وتمام رفع المنازعة فى تاريخ الدول لابن الكردبوسى فى قوله : قوام الملك(٣) شيئان السيف ، والقلم . والثانى مقدم على الأول . وبرهن على ذلك . والظاهر أن يقال فى ذلك ما قيل فى الكتابتين : من أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، فيقال إن السيف أرفع من القلم ، والقلم أنفع منه .

(١) البيتان الآتيان لأبى تمام فى مطلع قصيدته التى هنأ بها المعتصم بعد عودته منتصرا من غزوة فى بلاد الروم .
(٢) عقل الدابة : ربطها . وشوارد الكلم : نوادرها وغرائبها . فرائد الكلام : نفائسها .
(٣) قوام الملك : عماده ، وما يقوم به .

## الفصل الرابع

[ فى علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع ]

وهو علم تحسين العبارة، أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال، والمقصود منه على العموم توصل الإنسان إلى الإفصاح عما فى ضميره بفصيح الكلام وبليغه.

وهذا العلم بهذه الحيثية ليس من خواص اللغة العربية، بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات، فإنه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الإفرنجية بعلم «الريثوريقى» نعم هذا العلم فى اللغة العربية أتم وأكمل منه فى غيرها، خصوصا علم البديع فإنه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية، لضعفه فى اللغات الإفرنجية.

وبلاغة أسلوب القرآن الذى نزل إعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية، ثم إنه قد يكون الشىء بليغا فى لغة غير بليغ فى أخرى، أو قبيحا فيها، وقد تتفق بلاغة الشىء فى لغتين أو لغات، كما إذا أردت أن تعبر عن رجل شجاع بأنه أسد، فتقول زيد أسد، فإن هذا مقبول فى غير اللغة العربية كما هو مقبول فيها. وإذا أردت أن تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال، فتقول: هو شمس أو عن حمرة خده فتقول: خدوده تتلظى، فإن هذا التشبيه حسن فى اللغة العربية، غير مقبول أصلا فى اللغة الإفرنجية. وكذلك مايقال فى الريق ونحوه، مثل قول الشاعر:

خليلى إن قالت بثينة: ماله ... أتانا بلا وعد؟ فقولا لها: لها
سها، وهو مشغول بعظم الذى به ... ومن بات طول الليل يرعى السها سها(١)
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى ... إذا برزت لم يبق يوما بها بها (٢)
لها مقلة نجلاء كحلاء خلقة ... كأن أباها الظبى أو أمها مها (٣)
دهتنى بود قاتلى، وهو متلفى ... وكم قتلت بالود من ودها دها (٤)
وماست بأعطاف لطاف تهزها ... فعاينت غصن البان من هزها رها (٥)

(١) السها: كوكب خفى فى مجموعة «بنات نعش».
(٢) الغزالة: الشمس.
(٣) النجلاء: الواسعة. والمها جمع مهاة، وهى البقرة الوحشية.
(٤) دها: دهاء.
(٥) زهاء: ازهار.

(ص١٩٨) وقالت : وقد سارعت فى السير  دونها وقاطعت طرقا دونها ومهامها
سلافة ريق(١) عتقت ، ثم روقت  فمن لم يمت بالسكر من صفوها وهى
وفى الشفة اللعسا دواكل مدنف  فان كنت مشتاقا إلى رشفها فها(٢)

فأغلب التشبيهات الموجودة فى هذه الأبيات غير مقبولة عندهم ، لأنهم يقولون إن الطبع لا يألف الريق مثلا لكونه آيلا إلى البصاق . وإذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التى لم تفتح ، ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيما عند الفرنسيس. فمبنى البلاغة عندهم على مايقبله الطبع. ويقال: نسبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر ، فحينئذ قد توجد البلاغة عند من لا يحسن علمها ، كما أنه قد يحسنه غير البليغ .

وأغلب نفع البلاغة يكون فى الشعر والخطابات ونحوها من كتب الآداب والتواريخ وأعظم نفع ذلك العلم الموصل(٣) إلى معرفة أسرار التنزيل وإعجازه ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث فى زمن شعر ونظم وكهانة ، فأيده الله سبحانه وتعالى بالقرآن الذى لو « اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فظهر لأرباب العقول الصائبة أنه كلام قادر يقدِر ولا يقدَر عليه ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين ، فآمنوا به ، واتبعوه ، إلا من حق عليه العذاب . فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال ، وكانت سائر عباراته مناسبة للأحوال لفظا ومعنى ، وإذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعانى والبيان والبديع .

(١) الظاهر أن الصواب : ريقى ، ليكون مقول القول . وعتق : قدم . وزهى الرجل : حمق .
(٢) المدنف : المريض .  (٣) الأصل : التوصل .

# الفصل الخامس

## [فى المنطق]

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها إلى غيرها، والمشهور أن واضعه «أرسطو الحكيم» المسمى أيضا: «أرسطاطاليس» وفى كتب الفرنساوية أن أرسطاطاليس هو الذى قد كمل هذا الفن، وأن «أفلاطون» أيضا هذبه، وأن «زنون» وضعه. ونسبة هذا العلم للجنان كنسبة النحو للسان، والعروض للنظم ونحو ذلك .

ولهذا العلم مباد ومقاصد، فمباديه التصورات والتصديقات ومقاصده التعريفات والأقيسة، والتصور إدراك غير (ص١٩٩) الحكم، وعكسه للتصديق فإذا تصورنا حقيقة الرجل من غير أن نحكم عليه بإثبات ونفى كان ذلك تصورا، وإذا حكم عليه بأنه عالم مثلا فإنه يكون تصديقا، والتصور قسمان: بسيط، ومركب، فالتصور البسيط: إدراك الشىء مجردا عن صفاته، والمركب: إدراك الشىء مع بعض صفاته، مثال الأول: ما إذا تصورت الإنسان ولم يخطر ببالك أنه متحرك، ومثال الثانى ما إذا تصورته وميزته من الجماد بتحركه فالتصور لا يكون إلا فى المفردات، كما أن التصديق لا يكون إلا فى القضايا، والقضية، هى حكم يحصل بإثبات تصور إلى آخر، أو نفيه عنه، فالتصور المسند إليه الإثبات أو النفى يسمى: الموضوع، والتصور المسند إلى الموضوع مما تقدم يسمى: المحمول، والموضوع والمحمول يسميان جزءى القضية، وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى رابطة. مثال ذلك ما إذا قلت: زيد فصيح فإن زيدا هو الموضوع وفصيح هو المحمول؛ والرابطة مقدرة والتقدير زيد هو الفصيح، أو زيد يكون فصيحا، وأما إذا قلت: زيد هو الفصيح فإن الرابطة ظاهرة، ثم إن القضية إما كلية يعنى مستغرقة لسائر الأفراد، كما إذا قلت: كل إنسان صنعة الله تعالى، وإما جزئية كما فى قولك: بعض الحيوان إنسان. وكل من القضية الكلية والجزئية مسور .

وإما شخصية وإما مهملة فالأولى كزيد قائم والثانية كالإنسان كاتب بقطع النظر

عن الكلية والجزئية . وإما طبعية : كما فى قولك: الظلم ردىء. والقضية أيضا إما بسيطة أو مركبة، فالقضية البسيطة ما كانت غير متعددة الموضوع والمحمول ، كما فى قولك: الفضيلة حميدة ، والرذيلة ذميمة ، وبخلافها المركبة ، فهى ما تعدد فيها الموضوع فقط ، أو المحمول فقط ، أو هما معا ، كما إذا قلت : الفضيلة والرذيلة ضدان ، أو الفضيلة محبوبة مطلوبة ، أو الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان ، ونحو ذلك ، وإذا كانت القضية المركبة مصنوعة من عدة قضايا بسيطة فإنه يكفى فى كذبها كذب بعض أجزائها. وأما التعريفات التى هى مقاصد التصورات ومصححات القضايا فإنها تنقسم إلى تعريف بالحد ، وتعريف بالرسم ، وتعريف لفظى ، فمثال التعريف بالحد قولك الإنسان حيوان ناطق ، ومثال التعريف بالرسم قولك: الإنسان حيوان كاتب، ومثال التعريف اللفظى قولك الإنسان (ص ٢٠٠) هو الآدمى إذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف من لفظ الإنسان . ويمكن أن يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الألفاظ المترجمة من لسان إلى آخر ، مثال ذلك: إذا قدرنا أن أعجميا لا يعرف معنى كلمة الله ، فإنك تعرفها له تعريفا لفظيا بقولك له : الله هو « خداى » .

وكل من الحد والرسم ينقسم إلى تام ، وإلى ناقص ، على حسب كونه بالجنس ، أو الفصل القريب أو البعيد ، أو بالخاصة ، أو بالعرض العام ، كل منها منفردا أو مجتمعا ، وهذا كله موضح فى كتب المنطق .

وأما القياس : وهو المقصود الأصلى من علم المنطق فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر ، مثال ذلك : ما إذا قلنا إن الله سبحانه وتعالى لابد أن يقتص من الظالم للمظلوم، فإنك تقول هكذا : الله سبحانه وتعالى حكم عدل ، وكل من كان كذلك فإنه يقتص للمظلوم من الظالم ، فتكون النتيجة هكذا الله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم. فمتى سلمنا القضيتين الأوليين فلا بد أن نسلم القضية الثالثة ، والقضيتان الأوليان تسميان مقدمتين ، وإحداهما تسمى صغرى ، والأخرى كبرى ، وروح القياس هو النتيجة .

والقياس يكون صحيحا إذا كان صحيح المادة والصورة ؛ وفاسداً إذا فسدت إحداهما ، والمراد بصحة المادة أن سائر قضاياه تكون صحيحة ؛ والمراد بصحة

الصورة أن يكون منظوما على كيفية يكون إنتاجها ضروريا ، والقياس الصحيح : هو المسمى بالحجة والبرهان ، وأما القياس الفاسد أوالبرهان الفاسد فيسمى سفسطة ، وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحا ، لعدم ملازمة نتيجته الظاهرية للمقدمات الصحيحة .

وفى كتب الفرنسيس أن القاعدة التى ينبنى عليها القياس الصحيح ويمتاز من السفسطة هى إثبات أصلين أحدهما مبنى الصحة ، والآخر مبنى الفساد ، وهما أن المستلزم لشىء مستلزم لذلك الشىء ، والنافى لشىء نافٍ لشىء آخر هو ونافٍ لذلك الآخر ، أو نافٍ للاثنين معا ، وكيفية تطبيق هذا على القياس أنك إذا سئلت عن الغضب هل هو مذموم ، فأردت أن تستدل على أنه مذموم ، إنك تبحث عن طرف القضية الذى هو الموضوع . فإنك ترى من جمله تعريف الغضب أنه عيب ، فحينئذ كلمة غضب متضمنة لمعنى العيب فتركب مقدمة هكذا : الغضب عيب ، ثم تقابل العيب مع (ص٢٠١) الذم الذى هو محمول القضية ، فإنك تجد أن العيب يستلزم الذم ، فتقول : العيب ذميم ، فإذا لما رأيت أن الغضب يستلزم العيب والعيب يستلزم الذم ، فإنك تنتج منه أن الغضب ذميم ، فكل قياس لا يمكن أن تطبقه على هذا الأصل فإنه يكون سفسطة ، مثال ذلك أرسطو فيلسوف ، وبعض الفلاسفة صالح ، فأرسطو صالح ، فإن الإنتاج فاسد . وذلك أن القضايا لا تستلزم النتيجة ، لأنه لا يلزم من كون أرسطو هو أحد الفلاسفة ، وأن بعض الفلاسفة صالح أن أرسطو صالح .

وبعض أجزاء القياس قد يحذف للعلم به ، كما فى قولك : الفضيلة حميدة ، فينبغى كسبها .

والقياس إما حملى أو شرطى ، فكل ما تقدم مثال للحملى ، ومثال الشرطى : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا ، لكن الشمس ليست بطالعة - تخرج النتيجة قائلة - فالنهار ليس بموجود . ومحل ذلك كتب المنطق .

ثم إن الإفرنج كما يطلقون الكلمات على قواعد اللغة الفرنساوية ، ويسمون ذلك إعرابا نحويا ، يطبقونها على قواعد المنطق ويسمون ذلك [إعراباً] منطقياً ، فإذا أراد إنسان إعراب «زيد فاضل» إعرابا نحويا فإنه يقول مثلا زيد مبتدأ وفاضل خبره أو نحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم ، وإذا أراد أن يعرب إعرابا منطقيا فإنه يقول : زيد موضوع ، وفاضل محمول ، وهذه القضية قضية شخصية ، ويفعلون ذلك فى سائر الجمل .

## الفصل السادس

[ فى المقولات العشر المنسوبة إلى أرسطو ]

من المعلوم أن أرسطاطاليس حصر الأشياء المتعقلة فى عشر مراتب تسمى مقولات ، فجعل المواد داخلة تحت الأولى ، وجعل سائر الأعراض داخلة تحت التسعة(١) الأخرى .

المقولة الأولى: مقولة الجوهر ، وهو جسمانى وروحانى .

الثانية : الكم وهو إما منفصل إذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد ، أو متصل إذا كانت الأجزاء مجتمعة. وهو إما متتابع مثل حركة الفلك ، أو قار وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم ، من الطول والعرض والعمق . فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ، ومنها مع العمق يحصل الجسم التعليمى .

الثالثة : الكيف ، وقسمه أرسطو إلى أربعة أقسام ، فالأول : هو الاستعدادات يعنى تهيئات العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة (ص٢٠٢) مثل العلوم والفضائل ، والرذائل ، والقدرة على الكتابة والرسم والرقص ، والثانى القوى الطبيعية : مثل قوة النفس والبدن ، كالإدراك ، والإرادة ، وقوة الحفظ والحواس الخمسة ، والقدرة على المشى ، والثالث القوى المشاهدة : مثل الصلابة ، والرخاوة ، والكثافة ، والبرد ، والحر ، والألوان والأصوات ، والروائح ، والأذواق ، والرابع الصور ، والأشكال التى ينتهى بها الكم مثل : الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية .

الرابعة : مقولة الإضافة وهى النسبة بين شيئين مثل الأب ، والابن ، والمخدوم ، والخادم ، والملك ، والرعية ، وكنسبة القدرة والارادة لمتعلقيهما ، والبصر للمبصر بالقوة وكالنسبة التى تقتضى المشاركة ، كالشبيه ، والمساوى ، والمباين ، والأصغر ، والأكبر .

الخامسة: مقولة الفعل ، سواء كان قائما بالفاعل مثل: المشى ، والقيام ، والرقص ، والمعرفة والعشق. أو واقعا منه على غيره مثل الضرب ، والقتل إلى آخره .

السادسة : مقولة الانفعال ، مثل الانكسار ، والانحراف .

---

(١) الصواب : التسع .

السابعة : مقولة الأين ، يعنى جواب السؤال الذى يتعلق بالمكان مثل قولك : فى مصر ، فى الحريم ، فى الفراش .

الثامنة : مقولة المتى ، وهو جواب السؤال الذى يتعلق بالزمان ، كما إذا قلت : متى كان موجودا فلان؟ فقيل من منذ مائة سنة ، أو متى وقع هذا؟ فقيل : البارحة .

التاسعة : مقولة الوضع ، كحالة الجلوس ، والوقوف ، وكونه قبل ، أو بعد ، أو أمام أو على اليمين ، أو على اليسار .

العاشرة : مقولة الملك ، وهو وجود شىء مع الإنسان منسوب إليه ، كاللباس ، والزينة ، والسلاح ، فتعلق ذلك به وحوزه له هو هذه المقولة فهذه المقولات العشر التى ذكرها أرسطو ، وعدّت من الأمور الخفية ، والافرنج يقولون إنه ليس فى معرفة هذه المقولات كبير فائدة ، بل معرفتها مضرة لشيئين : الأول أن الإنسان يظن أنها مبنية على حكم عقلى ومحصورة بحصر استدلالىّ ، مع أنها ليست إلا اصطلاحية جعلية ، حصرها بعض الناس فى هذه الأقسام ليظهر بها الرياسة على غيره ، مع أنه يوجد فى ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصرا آخر جديدا ، كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقالات فى سبعة ، وسماها المواد العقلية :

المادة الأولى : العقل أو الجوهر الدراك .

الثانية : الجسم ، أو الجوهر ذو الامتداد .

الثالثة : القدر أو صغر (ص٢٠٣) كل جزء من أجزاء الهيولات .

الرابعة : وضع الهيولات على التناسب بين أجزائها .

الخامسة : صورة الأشياء .

السادسة : الحركة .

السابعة : السكون :

الشىء الثانى أن متعلمها يكتفى بمجرد ألفاظ وهمية ويظن أنه على شىء ، مع أنه لم يعرف بها شيئا له فى الواقع معنى واضح محقق .

## الفصل السابع

[ في علم الحساب المسمى باللغة الإفرنجية الارتماطيقى ] (١)

اعلم أن « الأرتماطيقى » هو أحد العلوم الرياضية الخالصة ، وذلك لأن حكماء الإفرنج قسموا الرياضيات إلى خالصة وغير خالصة أو مختلطة ، فالرياضيات الخالصة هي علم الحساب الغبارى ، والهوائى(٢) وعلم الجبر ، والمقابلة (٣) وعلم الهندسة ، ونحو ذلك ، وأما الرياضيات المختلطة فهى : علوم الحيل ، وفن تحريك الأثقال ونحوها . والرياضيات الخالصة هى ماتبحث عن الكميات ، والأشياء القابلة للزيادة ، والنقصان . والرياضيات المختلطة هى مايدخلها أشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره .

والحساب أهم العلوم الرياضية وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل بر ور الشام ، يعنى الصوريين ، وقدماء أهل مصر — يعنى أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ، ونظاهما فى عقد الترتيب ، حتى إن فيثاغورس الحكيم رحل من بلاد اليونان إلى مصر ، فتلقى فيها هذا العلم . ومما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصوريين ويقال : إنهم أيضا أول من استعمل القوائم والدفاتر ، والظاهر أن الأصابع هى أول الطرق التى استعملها الإنسان فى الحساب ، وأن ذلك هو السبب فى كون أول عقد فى العدد هو عقد العشرات ، والثانى عقد عشرات العشرات التى هى المئات ، والعقد الثالث عقد عشرات المئات أو الألوف وهكذا ، لأن الأصابع عشرة ، فكان الانتقال من عقد إلى آخر من عشرة إلى عشرة ، ولما كانت الأصابع لاتكفى إلا فى تمييز عشرة عشرة احتاج الأمر إلى طريقة أخرى ، وعلامات أخر فأخذوا صغار الحصى ، وحبوب الرمل والقمح ونحوها ، واستعملوها لضبط المعدودات ، كما هو الآن عند بعض همل أمريكة ، وبعض همل غيرها من أقسام الأرض ، حتى إن بعض قدماء الأمم الماضين لايوجد فى لغاتهم مايمكن التعبير به عما

(1) L' Arithméique .

(٢) يريد بالحساب الغبارى : مايقوم به الحاسب على التراب والرمل ؛ وبالهوائى مايقوم به فى الهواء

(٣) يريد بالمقابلة المعادلات الجبرية .

فوق(ص٢٠٤)العشرات ، فإنهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلا ، بقولهم: سبعة وعشرتان وعشرة عشرات ، وذلك لأن الأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر ، فيبتدئون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات ، وهكذا . كما قال بعضهم : إنه يوجد فى كتب العبرانيين واليونانيين مايدل على ذلك ، وهو أيضا أسلوب اللغة العربية فيما دون المائة ، وأما الآن فقد تبحر الأمم فى علم الحساب وتنوعوا وتفننوا فيه ، حتى وصلوا إلى كماله وحد علم الحساب علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث مايعتريها من الأعمال .

والعدد: اجتماع الآحاد ، وهو قسمان : صحيح وكسر ، وزاد بعضهم ثالثا ، وهو ماتركب منهما ، وسماه عددا مشتملا على الكسور ، ويتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة هى : الجمع ، والطرح ، والضرب ، والقسمة ، وهى معلومة فى كتب هذا الفن .

وأما علم الهندسة ، فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة التى هى الطول والعرض والعمق ، كما أشرنا إليه فى منظومتنا فى علم الهندسة بقولنا :

موضوعه قياس الامتداد فسّره بالثلاثة الأبعاد
الطول والعرض كذا والعمق وشرح هذى غير مستحق

وأما الجغرافيا ، فقد تقدم منها نبذة فى مقدمة الكتاب ، وإنما ينبغى لنا هنا أن نذكر أقسامها ، فنقول : إنه تارة ينظر إلى الأرض من جهة شكلها وسكونها أو تحركها ، أو نسبتها لما عداها من الأجرام الفلكية ، فتسمى الجغرافيا الرياضية أو علم هيئة الدنيا ، وتارة تلاحظ من جهة مادتها الترابية أو المائية ، وما يتعلق بذلك مما يظهر على سطحها مثل الجبال ، فتسمى بالجغرافية الطبيعية أى المتعلقة بطبيعة الأرض . وتارة ينظر إليها من جهة اختلاف أهلها فى الدين والملة ، فتسمى : بالجغرافيا الدينية ، وتارة ينظر إليها من جهة اختلاف أهلها فى التدبير والسياسة والرسوم والقوانين ، فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة طول الأزمان المختلفة فى الأرض وفى أجزائها ، بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ، ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية . وهذه هى الأصول ، وإلا فالقسمة غير حاصرة ، ومن أراد(ص٢٠٥)الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة «بالتعريبات الشافية» بمريد(١) الجغرافية فإنه موضح فيها غاية التوضيح ، غير أنه ينبغى لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية التى هى علم الهيئة ، فنقول :

(١) الصواب : « لمريد » .

الإفرنج قسموا الكواكب الفلكية إلى ثوابت وإلى سيارة ، وإلى سيارة السيارة ، وإلى ذوات الذنب ، وعدوا الشمس من الثوابت ، والأرض من السيارة ، والقمر من سيارة السيارة ، أى التابعة فى السير للكواكب السيارة. وهذا المذهب يسمى عندهم مذهب «كبرنيق[1] النيمساوى» ، وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون ، لفقد الآلات عندهم ، ووجودها لهؤلاء الإفرنج ، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم أحد عشر ، غير الشمس والقمر ، فان الأولى من الثوابت على رأيهم ، والثانى من سيارة السيارة ، ولنذكرها لك هنا على حسب قربها من الشمس ، فنقول : هى : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، و«وستة» (بكسر الواو ، وسكون السين المهملة ، وفتح التاء المثناة) أى المحمرة السيارة ، و«يونون» ( بضم الياء والنون بعدها واو ) وتسمى ( زوجة المشترى ) ويقال لها : بنت زحل ، و«سريس» ( بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة) ويقال لها «قريس» (أى السنبلة السيارة) و«بلاس» (بفتح الباء وتشديد اللام) ومعناه « أبو الفلق » والمشترى ، وزحل ، و«أورانوس» ( بضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة) ومعناه الفلك الأعلى :

وهذه الكواكب الجديدة لا يمكن رصد دورانها على نفسها إلا بصعوبة ، لصغر بعضها فى رأى العين ، وبعد البعض الآخر ، بل لا يمكن رصد ما عدا « أورانوس » إلا بالنظارات الفلكية ، ولهذا سميت عند الإفرنج بالسيارات النظارية ، ويؤمل الإفرنج كشف غيرها من السيارات .

وأما التاريخ فهو أيضا مما ينبغى للإنسان الاطلاع عليه ، لاسيما أرباب الدول ، ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ، ذكرها هنا بعض المؤلفين من الإفرنج ، فنقول :

التاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الأمم أن يفوز بالتعلم ، وهو أيضا تجريبيات حوادث الأعصر التى تساعد الحال الراهنة ، ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة يعين المرء على التفكر فى ظاهر الآتى ، فمنه يعتبر من اعتبر من جميع (ص٢٠٦) الناس أياما كان مقامهم ، لما أنه يظهر على رؤوس الأشهاد الآثار الرديئة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم ، ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق بالأخلاق الحميدة مثل الحلم والعدل ، ومن التاريخ يفهم الملوك أنه فى زمن سلطنة ملك حسن التدبير ينبغى أن تكون

(١) وفى الأصل كبرنيق وهو خطأ Copernic

شوكة الملك وكرسيه ظلا ووقاية قال « بسوه » : لو فرض أن التاريخ لا ينفع غير الأمراء فإنه يجب قراءته للأمراء ، ولكن إنما يفتح التاريخ للعاقل كنوزه ، ليفهم منها خفياته ورموزه : فيشغل فكره مدة قراءته عن تغيرات معيشة الانسان الباطلة ، ثم ينتقل من ذلك إلى مادة أهم من ذلك ، فتنكشف له سلاسل الزمن العديدة التى تمس حلقتها الأخيرة خلق العالم ، أو ليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم يطلع الإنسان فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول وأزمان كل ؟ فانظر إلى هذا المحفل العظيم المحتوى على أرباب سعود ونحوس ، فكم فيه من مدائن دمرت ، ومن دول انقرضت ، ومن ممالك ذهبت واندثرت ، ومن محالّ خربت ، ومن مقابر عمرت ، فكأن كل شيء يؤول إلى القبور ، وهى التى تعلو وحدها على ميدان الأرض ! فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة حقيرة إذا نظر الإنسان من سماء التاريخ ! وكم يظهر أن الجمعية التى فى زماننا يسيرة هينة بجانب جمعيات أهالى القرون والأعصار ، فشتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للناظر أن يقيس عظمها المحسوس ، وملوك تلك الأزمنة التى يظهر للأعين كأنهم جبال مرفوعة على دائرة أفق الأعصر السالفة ! وانظر ما تكون حروبنا الوقتية ، وحبنا للعلو والشرف المؤقتين ، عجائب منازعة السلف من مبدأ العالم ، على مكان من الأمكنة ، أو على شبر من أرض ، فمن نظر حق النظر فى عجائب التاريخ فانه يكتسى بثياب الجد ، ويتجرد من ملابس الهزل ، ويصعد على ذروات النظر فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه ببحر محيط ، تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانيهم من غير دفة ، عرضة للرياح الشديدة ، وينتهى أمرها إلى الانكسار على ما يصادمها من الشعوب ، ولا تجد من المراسى ما ترسى عليه غير فرضات القدم ! فاذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة عن الطمع حطام الدنيا الفانية ، والمدح الباطل المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلا شيء ، أو ليس أن للدهر (ص ٢٠٧) نكبات ، وتغيرات فى جميع ما وهبه وأعطاه ، فأى مملكة أمنّا على كرسيها من السقوط؟ وأى دولة أيسنا على تحتها من الارتفاع ؟ أو ما رأينا أن الهيكل الواحد يتداول على محرابه عدة أديان متباينة؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرها إلى أن أعقبها الفقر والحقارة؟ وكم شوهد أن الخشونة والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ، ويتبادلان على أجزائها من غير تخلل واسطة

بينها ؟ وكيف قد آل أمرك أيتها المدائن التى كنت عامرة ببلاد آسيا ، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم يامدن «نينيويونس» ، و«بابل» السحر؟ أو«يا إصطخر» فارس ، وتدمر سليمان ، كيف صارت الآن مجالك خرابا ، وقد كنت كراسى دول العلوم فلم يبق لك من فخارك القديم ، وبهائك الجسيم غير الاسم وبعض رسم من حجر! ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا ، من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة ، مثل ماحل بمصر المباركة المصابة بالشقاء التى كانت خيولها تسبق سالفا خيول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم والحكمة ! فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البلاد دفعة واحدة ، إما نعيم الإنعام ، أو عذاب الإنتقام ، مع أنه لم يكن من الأمم مثل قدماء مصر ؛ فى كونهم بذلوا جهدهم فى الجلوس على مبانى هياكلهم المشيدة ، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين ، فبادوا جميعا واتقرضوا ، حتى إن أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنسا من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسة ، ومنسوبون إلى عدة جنوس مختلفة ، من بلاد آسيا وإفريقية ، فهم مثل خليط ، من غير قياس مشترك ، وتقاطيع شكل صورهم لاتتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الإنسان مصريا من سحنته ، فكأنما سائر بلاد الدنيا اشتركت ، فى تأهيل بر النيل!؟ انتهى مترجما من مقدمة «الخواجا آكوب» فى تاريخ مصر .

وعلم التاريخ واسع ، وإن شاء الله تعالى يصير التاريخ على اختلافه منقولا من الفرنساوية إلى لغتنا (ص٢٠٨) وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى .

## الخــــاتمة

[ فى رجوعنا من باريس إلى مصر ، وفى عدة أمور مختلفة ]

من المعلوم أن نفس القارىء لهذه الرحلة تتطلع إلى معرفة نتيجة هذا السفر الذى صرف عليه مصاريف لم تسبق لأحد ، ولا سمع بها فى التواريخ عند سائر الأمم ، وإنما تسطيرها [لأنها أنجبت علماء منهم من وصل إلى رتبة أساطين الإفرنج ، فهم ما بين مدبر للأمور الملكية . حائز كمال الرتبة فى السياسات المدنية ، كحضرة صاحب البراعة والبراعة رب الطالع السعيد . وذى(١) النجابة والرأى السديد . عبدى أفندى ، وما بين متمكن فى معرفة إدارة الأمور العسكرية . راق فيها إلى درجة علية . وما بين ربانى بسائر الأمور البحرية ، أو خبير بالطب ، أو بالكيميا الصحيحة المرضية ، وبصير بالطبيعيات ، وماهر فى علم الزراعة والنباتات ، ومنهم فائق الأقران فى الفنون والصنائع ، وحرىٌّ بفتح ( فبريقات ) تشتهر ببراعته بغير منازع ، ولولا خوف الإطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الأفندية ، على حسب حوزه للمراتب العلية . ولعمرى لا أستطيع عدم التعرض لعدة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية فى الامتياز ، غير أننى أسلك فى ذكرهم غاية الإيجاز ، كيف لا أقول إن حضرة (ص٢٠٩) مصطفى مختار بيك افندى قد بلغ درجة كبار الفرنساوية ، فى علم إدارة المهمات العسكرية ، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم ، وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولا شك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية ، وجامع لمعارف الديار الإفرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف ، بملك مصر والشام ، وليس كل من اكتسب المعارف ، يصدر عنه عمل اللطائف . قال الشاعر :

وعادة السيف أن يزهو بجوهره     وليس يعمل إلا فى يدى بطل

وأما حضرة حسن بك افندى ، وكذا الأفندية البحريون ، ففضلهم وكمال علومهم ثابت بالبرهان ، يدل عليه امتيازهم بين الأقران ، وشهرة اصطفان افندى غنية أيضاعن البيان ، فقد حاز من العلوم ما حاز ، وفاز من الفنون بما فاز . ولا ينكر فهم «ألطين أفندى» فى جميع أنواع العرفان ، ولاخليل أفندى محمود ، وتعلم أحمد أفندى يوسف مشهود غير مجحود . وبالجملة فالجل من الأفندية حصل المرام ، ورجع لنشر هذا بديار الإسلام .

---

(١) فى الأصل « وذو » وهو خطأ .

ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير إلى مصر ليتم غرض هذه الرحلة فنقول : خرجنا من باريس فى شهر رمضان سنة ١٢٤٦ وسرنا نقصد مرسيليا ، لنركب البحر ونرجع إلى اسكندرية ، فمررنا على مدينة « فنتنبلو » بقرب باريس بها قصر سلطانى ، وهذاالقصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرنسا ، وخلعها عنه سنة ١٨١٥ من الميلاد ، ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبنى من الحجارة ، والقصد منه أنه تبقى آثاره ، لتذكر رجوع « البربون » فى فرانسا ، فتجد مرسوما عليه أسماؤهم وتاريخ ولادتهم ، وغير ذلك . وفى هذه الفتنة الأخيرة محا الخلق هذه الأسامى ، فلايشاهد منها إلا الآثار . وهكذا عادة الزمان ، فى تلونه بجميع الألوان ، وغدره وفتكه بقوم ، وإقباله على آخرين قبل تمام يوم . قال الشاعر :

قتلت صناديد الرجال فلم أدع ... عدواً ولم أمهل على جيشه خلقا
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم ... فشردتهم غربا وبددتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة ... وصارت رقاب القوم اجمع لى رقا
رمانى الردا سهما فأخمد جمرتى ... فها أناذا فى حفرتى عاطلا ملقى

( ص ٢١٠ ) وكتابة تلك الرسوم من عادة الإفرنج ، تأسياً بالسلف من أهالى مصر وغيرهم . فانظر إلى بناء أهل مصر للبرابى وأهرام الجيزة ، فإنما بنوها لتكون آثارا ينظر بعدهم إليها من رآها .

ولنذكر لك آراء الإفرنج فيها ، وماظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بماذكره المؤرخون فيها من الأوهام : فنقول :

ملخص كلام الإفرنج : أن الذى بناها هو ملوك مصر ، وأنه اختلف فى زمن بنائها . فبعضهم زعم أنها بنيت من منذ ثلاثة آلاف سنة . وأن البانى لها ملك يقال له : « قوف »(١) وبعضهم قال إن البانى لها ملك يقال له : « خميس » أو « خيوپس » ، والأظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر لا من البحيرة . وقال بعضهم : إن مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاث وعشرين سنة . وأن العملة الذين بنوها كانوا ثلثمائة وستين ألف نفس ، ولكن بمصاريف عظيمة ، حتى إن ما صرف على البصل والكرات للعملة يبلغ على ماقاله

(١) لعله خوفو.

« بانيياس » نحو عشرين مليونا من القروش المصرية ، ثم إن هذه الأهرام تنسب إلى أحد ملوك الفراعنة ، وأنه أعد الهرم الأكبر ليضم جثته ، والآخرين لدفن زوجته وبنته ، فلم يدفن هو فى الأول بل بقى هذا لهرم الآن مفتوحا . وأما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته ، وسدا سدا محكما . هذا ماحكاه الإفرنج فى شأن الأهرام ، ومما قيل فى عظم بناء الهرمين العظيمين :

خليلى ما تحت السماء بنية يشابه بنياها بنا هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على الأرض يخشى دائما سطوة الدهر

وقال بعضهم فى الأهرام ، مضمنا عجز بيت من معلقة طرفة :

لقد بتُّ بالأهرام حول أجبة جفونى ببرد يابس وتجلد
يقول بها صحبى لبرد جليدها وهجرى : لاتهلك أسى وتجلد

قال السيوطى فى منتهى العقول : إنه يتعجب من قول العلماء ، إن أعجب مافى مصر الأهرام ، مع أن البرابى بالصعيد أعجب منها ، والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات . ولغرابتها نقل منها الإفرنج اثنتين إلى بلادهم : إحداهما نقلت إلى رومة فى الزمن القديم ، والأخرى نقلت إلى باريس فى هذا العهد .

وأقول : حيث إن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن ، والتعلم (ص ٢١١) على منوال بلاد أوروبا فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة ، وسلبه عنها شيئا بعد شىء يعد عند أرباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلى به ، فهو أشبه بالغصب ، وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان ، لما أنه واضح البيان . وقد صنع نابليون فى باريس عمودا مفرغا من المدافع التى سلبها من الموسقو والنمسا ، وقد حاول الموسقو إسقاطه حين حلولهم بباريس ، فما ظهر إلا عجزهم عن ذلك .

ثم بعد أن جزنا «فنتنبلو» شاهدنا مدينة «تيمور»(١) بعد سير أربع ساعات من «فنتنبلو» وهى على عشرين ساعة من باريس ، ثم بعدها مررنا على مدينة «كونة»(٢) على شط نهر «ألورة»(٣) وهى مدينة تصنع فيها الهلاليب للمراكب السلطانية ، ثم على مدينة «مولن»(٤) ، وبها كثير من أولاد العرب الذين صحبوا الفرنساوية من مصر إلى فرانسا .

---

(1) Nemours.

(2) Cosne

(3) Loire

(4) Moulins

ثم سرنا حتى وصلنا مدينة «رونة»(١) وهى على سبعة وتسعين فرسخا فرنساويا على جنوب باريس ، قبل الوصول إلى مدينة « ليون»(٢) بثلاثة عشر فرسخا ، وأهلها تسعة آلاف نفس ، وبها ديوان مشورة (للفبريقات) ومشورة للزراعة ، وكتبخانة(٣) ومخزن آلات لطبيعية وهندسة ، وبها قنطرة ظريفة على نهر «لوار» ورصيف مشهور ، وهى ساحل لمركز تجارات «ليون»(٢) وغيرها من سائر أنواع البضائع ، وبأراضيها مقاطع الرخام ، ونهر «لوارة» يمكن المسير فيه بقرب هذه المدينة : وهذه المدينة غير مدينة «روان» البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا ، والتى يمر بها نهر السين ، والتى هى من إقليم «نورمنديا» :

ثم وصلنا إلى مدينة ليون — وقد تقدم الكلام عليها — ثم وصلنا إلى مدينة «اورغون»(٤) التى على جنوب باريس بمائة وثمانية وسبعين فرسخا فرنساويا وهى فى سفح جبل — شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى ، خوفا من أهلها ، ولازلنا نمر ببلاد حتى وصلنا إلى «مرسيليا» وقد تقدم الكلام عليها مستوفى(٥). ومنها نزلنا فى سفينة تجارية ، وسرنا قاصدين إسكندرية ، ولا حاجة أيضا إلى ذكر ما شاهدناه ، لأنه عين ما سبق فى المقصد — غاية ما نقول إن كل من يعرفنى من الفرنساوية طلب منى أننى بمجرد دخولى اسكندرية أذكر ما يقرع فكرتى مما أستغربه لبعد عهدى من مصر ، ولرؤيتى خلافه فى بلاد الإفرنج ، وتعودى على مشاهدة غيره يظهر لى غرابة ما أراه (ص ٢١٢) أول وهلة ، حين وصولى ، فوعدت ، ووفيت .

هذا حاصل ما كان لخصته(٦) ، حسب الإمكان ، فلم يبق علينا حينئذ إلا ذكر خلاصة هذه الرحلة ، وما دققت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ، ولغيرهم من الأجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور ، كالعرض والحرية والافتخار ،

---

(1) Roanne

(2) Lyon

(٣) المكتبة هى الكتبخانة.

(4) La Ville d'Orgon

(٥) فى الأصل : « مستوفيا »  (٦) فى الأصل : « لخصت ».

ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولا شك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الإنسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم ، وتبرهن عليه آثارهم . قال الشاعر :

وإنى لحلو للصديق ، وإننى لمر لذى الأضغان أبدى له بغضى
وإنى لأستغنى فما أبطر الغنى وأبذل ميسورا لمن يبتغى قرضى
وأعسر أحيانافتنفذ عسرتى وأدرك ميسورالغنى ومعى عرضى

وهناك العرض: هو مايعبر به عندهم بالسبة والعار ، قال الشاعر :

تعيرنا أنا قليل عدادنا(١) فقلت لها إن الكرام قليل
وماضرنا أنا قليل وجارنا عزيز ، وجار الأكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنالنا وتكرهه آجالهم فتطول
وإنا لقوم مانرى القتل سبة إذا مارأته عامر وسلول
إذا سيد منا خلا قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول
سلى إن جهلت الناس عناوعنهم فليس سواء عالم وجهول

ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لاعرض لهم فى ذلك ، حيث إن العرض يظهر فى هذا المعنى أكثر من غيره ، لأنهم وإن فقدوا الغيرة ، لكنهم إن علموا عليهن شيئا كانوا شر (٢) الناس عليهن ، وعلى أنفسهم ، وعلى من خانهم فى نسائهم ، غاية الأمر أنهم يخطئون فى تسليم القياد للنساء ، وإن كانت المحصنات لايخشى عليهن شىء كما قال الشاعر :

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره وترضى إياب البعل حين يؤوب

قال الزمخشرى ، عندقوله تعالى : حكاية عن قول العزيز: « واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » : ماكان العزيز إلا حليما ، وقيل : إنه كان قليل الغيرة قال الشيخ أثير الدين أبو حيان ، فى تفسير هذه الآية الكريمة : وتربة مصر اقتضت هذا يعنى قلة الغيرة ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا ، وهو أنه كان مع ندمائه الخصيصين به فى مجلس أنس وجارية تغنى وراء الستارة فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية ، وكانت قدغنت بهما ، فمالبث أن جىء برأس الجارية مقطوعا فى طشت(٣) ، وقال له الملك

---

(١) الرواية المشهورة : «عديدنا » .
(٢) فى الأصل أشر» .
(٣) الصواب « : طست .

فاستعذ البيتين من هذا الرأس ، فسقط مغشيا عليه ، ومرض مدة حياة ذلك الملك . أقول : وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصوري على محبوبه ، حيث قال :

تعلقته سكران من خمرة الصبا ... به غفلة عن لوعتى ونحيبى

وشاركنى فى حبه كل ما جد ... يشاركنى فى مهجتى بنصيب

فلا تلزمونى غيرة ما ألفتها ... فإن حبيبى من أحب حبيبى

انتهى «سكردان ابن حجلة صاحب ديوان الصبابة» وبالجملة فسائر الأمم تشتكى من النساء ولو العرب ، قال الشاعر :

لقد باليت مظعن أم أوفى ... ولكن أم أوفى لا تبالى

وقال آخر :

فان تسألونى بالنساء فإننى ... بصير بأدواء النساء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له فى ودهن نصيب

يردن ثراء المال حين علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

وحيث إن كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس على حالة النساء عند الإفرنج كشفنا عن حالهن الغطاء ، وملخص ذلك أيضا : أن وقوع اللخبطة(١) بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجين . وقد جرب فى بلاد فرانسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ، ويتهمون فى الغالب ، فكثيرا ما كانت تتهم الفرنساوية نساء العائلة الملكية المسماة «البربون» ، على أن مما يقوى كلامهم ما وقع لزوجة ابن ملك فرانسا المعزول التى هى أم « الدوك دوبردو » الذى خلع عليه جده المملكة بعد عزله ، ولم يقبله الفرنساوية ، وقالوا إن هذا الولد ابن زنا ، فإن أمه ولدت ولدا آخر من الزنا . وادعت أنها تزوجت سرا ، فانكسر بذلك ناموسها ، وبعد أن كانت تطلب مملكة فرانسا لابنها الأول ، وكانت آخذة فى أسباب توليته ، وكان يخشى منها وقوع شىء فى المملكة ،

(١) لعله يريد الاختلاط .

سقطت من الأعين ، وبعد أن وقعت فى يد الفرنساوية، وكان يظن هلاكها، تركوا سبيلها قائلين : إنها صارت مهملة ورجعت إلى أهلها بولدها الأخير .

ومن أغرب ما وقع ببلاد الإفرنج فى هذا الأمر : أن ملك الانكليز « جرجس الرابع » اتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المرار العديدة ، واشتهرت بذلك عند الخاص والعام، لكونها كانت تسافر ببلاد الإفرنج مع من تريد، ولها فى كل محل عشاق، فلما رفع أمرها عند شرعهم، وأقيمت الدعوى كما ينبغى ، وقصد بإثبات زناها طلاقها ليتزوج بغيرها ، فلم تثبت أمور كافية فى الطلاق، فحكم القاضى بإبقائها على عصمته قهرا عنه، فبقيا متفرقين، ولكن لم يتزوج غيرها، وذاع أمرها وشاع ، ولكن فى الحقيقة وإن كان يعتقد فيها ذلك إلا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة، وإلا لانثلم عرضه، فمادة العرض التى تشبه الفرنساوية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال .

ويدخل فى العرض أيضا العفاف ، فإنهم تقل فيهم دناءة النفس ، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة فى طباعهم الشريفة ، وإن كانت الآن قد تلاشت فيهم ، واضمحلت فإنما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم، ونكبات الدهر، وأحوجهم الحال إلى التذلل والسؤال ، ومع ذلك فقد بقى منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس على الهمة ، كما قال الشاعر :

فدعنى ونفسى والعفاف فإننى أخذت عفافى فى حياتى ديدنى
وأصعب من قطع اليدين على الفتى صنيعة بر نالها من يدى دنى

وأما الحزبية التى تتطلبها الإفرنج دائما فكانت أيضا من طباع العرب فى قديم الزمان ، كما تنطق به المفاخرة التى وقعت بين «النعمان بن المنذر» ملك العرب ، «وكسرى» ملك الفرس .

وصورتها : أنه قدم النعمان على كسرى، وكان عنده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، ولم يستثن فارسا ولا غيرها .

فقال كسرى ، وقد أخذته الغيرة : يا نعمان ، لقد فكرت فى العرب وفى غيرهم

من الأمم ونظرت فى حال من يقدم على من الوفود ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ، ووثيق دينها .

ورأيت الهند شهيرة الحكماء طيبة الثراء ، كثيرة الأنهار ، والبلاد والثمار ، عجيبة الصناعة ، مرونقة الحسان ، معمورة بالأهل .

وكذلك الصين عجيبة فى اجتماعها ، وكثرة صنائع أيديها ، وهمتها فى الحروب وصنعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها .

وكذلك الترك مع ما هم عليه من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، فإن لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم ، وتدبر أمورهم .

ولم أر للعرب شيئا من ذلك من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حرمة ولا قوة ، ولا عقد ، ولا حكمة ، مع ما يدل على تداليها وذلها ، وضعف همتها ، بحالهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة ، قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها ، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الإبل التى يعافها كثير من الطيور والسباع ، لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قرى(١) أحد ضيفا اعتدها مكرمة ، وإن أطعم لقمة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما عدا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ومنعها من عدوها ، ليجرى له ذلك إلى يومنا هذا ، فإن لها مع ذلك آثارا وحصونا وأموالا تشبه أموال بعض الناس . لكنى أراكم لا تسكنون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون ، وتريدون أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

فقال النعمان : أصلح الله الملك ، صدقت إن هذه الأمة تسمو بفضلها ، وبعظيم خطبها ، وعلو درجتها ، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك من غير رده عليه ، ولا تكذيب له ! فإن أمنتنى من الغضب ما أتكلم به فعلت .

قال كسرى : [ تكلم ] وأنت آمن ، فقال النعمان : أما أمتك فلا تنازع فى الفضل لموضعها التى هى به من عقولها وأخلاقها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما كرمها الله

---

(١) فى الأصل « أقرى » .

تعالى به من ولايتك وولاية آبائك وأجدادك . وأما الأمم التى ذكرت فما من أمة إلا فضلتها العرب بفضلها .

قال كسرى : لماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها وذمتها وبأسها ورياستها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ووفائها .

فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطئوا العباد ، وأقاموا الملك ، وقادوا الجيوش ، ولم يطمع فيهم طامع ، ولم يزالوا عندهم محترمين ، ولا نال أحدا منهم نائل ، بل حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء وإلى جانبهم السيوف ، وعدتهم السقف ، إذ غيرها من الأمم ، إنما عزها بالحجارة والطين والجزائر والبحور والقلاع والحصون .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يعرف بذلك فضلهم على الهند المحترقة ، والصين المتجمشة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة الوجوه .

وأما أنسابها وأحسابها : فليس أمة من الأمم إلا وقد جهل آباؤها وأصولها ، وكثير من أولها وآخرها ، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ، ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا ويسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا بذلك أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما شجاعتها وسخاؤها : فإن أدناهم رجلا يكون عنده البكرة والناب ، عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذى يغتذى بالفلذة ، ويجتزى (١) بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلها فيما يكتسبه من حسن الأحدوثة وطيب الذكر والثناء .

وأما حكمة ألسنتها : فإن الله تعالى أعطاهم أشعارا ، ورونقا كاملا ، وحسن وزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالإشارة وضربهم الأمثال ، وبلاغتهم فى الصفات ما ليس من ألسنة الأجناس .

ثم إن خيولهم أفضل الحيول ، ونساءهم أعف النساء ، ولباسهم أحسن اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وأحجار جبالهم الجزع ، ومطاياهم التى لا يبلغ إلا على مثلها سفرا ، ولا يقطع إلا بمثلها بلد قفر ؛

---

(١) فى الأصل « يقتدى بالقادت ؛ ويجترى » وهو تحريف .

وأما دينها وشريعتها : فإنهم متمسكون به ، أعظم تمسك ، وإن لهم أشهراً حرما ، وبلداً محرما ، وبيتا محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل فيه قاتل أبيه وأخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره منه وإدراك رغمه فيه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله إياه ، إكراما لذلك البيت وتشريفا له .

وأما وفاؤهم : فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، فهي عقد لأهلها ، لا يرجع عما أضمره في نفسه حتى يبلغه ، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض ، فيكون رهناً بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته ، خوفا من الله تعالى ، وإن أحدهم يبلغه أن أحدا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره ، فيمنع عنه عدوه ، ويحميه منه ولو تفنى قبيلته ، أو تلك القبيلة التي استجار عليها ، وذلك لما أخفر من جواره ، وإن أحدهم ليلجأ إليه المحروم ، والمحدث عنه ، بغير معرفة ولا قرابة فينزلونه عندهم ، وتكون أنفسهم وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك ، حفظك الله : إنهم يقتلون أولادهم من الحاجة فإنما يفعله من فعله منهم رغم أنفه حذراً من العار ، وخيفة وغيرة من الأزواج .

وأما قولك أيها الملك : إن أفضل طعام ظفروا به لحوم الابل على ماوصفت منها فماتركوا مادونها إلا احتقارا له ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم ومطاعمهم ، مع أنها أكثر البهائم لحوما ، وأطيبها شحوما ، وأرقها ألبانا ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وإنه لاشيء من اللحوم يفاخر لحمها إلا استبان فضلها عليه .

وأما محاربتهم وأكلهم بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد إلى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم ، فإنما يفعل ذلك من الأمم من علمت الضعف من أنفسها ، وتخوفت من نهوض عدوها عليها ، فإنهم يحتاجون إلى ملك ، يدبر أمرهم ، ويكون رجلا من أعظمهم شأنا وقدرا ، ويكونون معترفين بشرفه على سائرهم فينقادون إليه بأزمتهم ، وينقادون إلى أمره .

وأما العرب : أيها الملك ، فإن كثيرا فيهم ، لعظم كرمهم ووفائهم ، ودينهم ، وحكمة ألسنتهم ، وسخاء نفوسهم يقولون : إنهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم ؛ فلا ينقاد أحد إلى الآخر فإنهم أشراف .

وأما اليمن ، التي وصفها الملك : فإن آباءك وأجدادك أعلم بصاحبها لما أتاه ملك الحبشة في مائتي ألف ، وتغلب على ملكه وجاء إلى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يجره أحد من أجدادك ولا آبائك ، فاستجار بالعرب فأجاروه ، ولولا ما وتر به من بلية العرب لمال إلى نقص ، ولم يرجع إلى محله ، ولولا أنه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الأحرار ، وتبدد شمل الكفار ، وبذبح العبيد الأشرار لم يرجع إلى اليمن .

قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان ، ثم قال له : إنك لأهل لموضعك من الرياسة ولأهلك ولأهل إقليمك ، ولما هو أفضل منه ثم كساه وأنعم عليه وأعطاه أشياء جزيلة ثم سيره إلى موضعه من الحيرة ، ثم بعد ذلك سير إليه وقتله .

والتنوخية فرقة من اليمن ، قال المتنبي على لسان بعضهم :

قضاعة تعلم أني الفتى الـ  ـذي ادّخرت لصروف الزمان
ومجدي يدل بني خندف  على أن كل كريم يمان
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء  أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي  أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد  طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ  حديد الحسام حديد الجنان
يسابق سيفي منايا العباد  إليهم كأنهم في رهان
يرى حده غامضات القلوب  إذا كنت في هبوة لا أراني
سأجعله حكما في النفوس  ولو ناب عنه لساني كفاني

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : حضر رجل من أهالي مصر إلى عمر ابن الخطاب ، وجعل يشكو من عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا مقام العائذ .

فقال عمر : لقد عذت فما شأنك ؟ قال تسابقت بفرسي أنا وابن عمرو بن العاص فسبقته ، فحمل على بسوط في يده ، وجعل يقنعني بالسوط ، ويقول لي أنا ابن الأكرمين : وبلغ ذلك لعمرو بن العاص فخشي أن آتيك لأشتكي ولده وحبسني فتفلت من الحبس ، وها أنا قد أتيتك .

قال : فكتب كتابا : من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، إنه إذا أتاك كتابي هذا فاحضر الموسم يعنى الحج أنت وابنك . ثم التفت إلى المصرى ، وقال له : قم حتى يأتى غريمك ، فلما حضر عمرو بن العاص وابنه الحج وجلس عمر بن الخطاب ، وجلسوا بين يديه ، وشكى المصرى كما شكى أول مرة ، فأومأ عمر بن الخطاب ، وقال له خذ الدرة وانزل بها عليه ، قال : فدنا المصرى من ابن عمرو بن العاص ، ونزل عليه بها .

وعن أنس قال : والله لقد ضربه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم يزل يضربه حتى استحببنا أن لا يضربه ، وذلك من كثرة مايضربه ، وعمر رضى الله عنه يقول اضرب ابن الأكرمين .

قال عمرو بن العاص : قد شفيت ياأمير المؤمنين ، قال عمر بن الخطاب للمصرى انزع عمامته ، وضع الدرة على صلعة عمر ، فخاف المصرى من ذلك ، وقال ياأمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى فمالى أضرب من لم يضربنى .

فقال عمر رضى الله عنه : والله لو فعلت لما منعك أحد .

ثم التفت رضى الله عنه ، وقال لعمرو بن العاص : متى استعبدتم (١) الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم (٢) ، أحرارا . انتهى .

فمنه يفهم أن الحرية أيضا من طباع العرب من قديم الزمان .

هذا ، ولا ينبغى لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر محاسن من ساعد الوالى فى نجاح مقصوده من ترتيب أمور التلامذة وتعليمهم بمدينة باريس محب البلاد المصرية وأهلها « الخواجة جومار » فإنه يسعى بهمته ورغبته فى تنفيذ مقصد الوالى ويسارع فى المصلحة بلا إنكار فكأنه من أبناء مصر البارين بها فهو جدير بأن ينظم فى سلك المحبين .

ومما يدل على ذلك غاية الدلالة ما ذكره فى روزنا متة ، التى ألفها ، لاستعمال مصر والشام سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين من الهجرة ، فإنه ذكر فيها أنه إن صدرت له إرادة [ من الوالى ] ليؤلفن كل غام روزنامة بهذا الوضع ، ليعين على حسن تمدن الإيالات المصرية ، فمن جملة ماقاله فى مقدمته أنه يذكر فى هذه الروزنامة ، عدة أمور :

---

(١) فى الأصل « متى استعبدت من ناس
(٢) فى الأصل « وقد ولدتهم أمهم » .

الأمر الأول: الدلالة على تقدم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أولها لآخرها.
الثانى: تجارة أهالى أوربا وآسيا وافريقية كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز، ومقابلة الأقيسة والمكاييل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هى فيها.
الثالث: ذكر أمور الزراعة فإنها كانت سببا فى سالف الأعصر فى غنى أهل مصر، فلهذا ينبغى أن تكون أول ما تهتم به الدولة فى ممالكة مصر الطيبة التربة والزراعة. كثير الفروع المهمة، فمن ذلك علم توفير المصايف الخلائية، ويتشعب عنه إصلاح المزارع، والمروج المستحدثة المدبرة وتتميم زراعة القطن والنيلة والعنب والزيتون والتوت. واستخراج دقيق النيلة، واستخراج أنواع كثيرة من الزيوت، ومعرفة تربية النحل ودود القز، ودود الصباغة، وتعهد الحيوانات الأهلية، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها كالخيل. والمعز، وحيوانات الأصواف، وجلب البهائم البرانية ومعرفة طب البهائم، ومعالجة أمراضها كمرض «السواف» وحفظ الحبوب من السوسة، وغرس الأشجار، وترتيبها بحافات الطرق، وخدمة البساتين وسائر الأبنية الخلائية المناسبة لمصالح الزراعة. وفى مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقى الأراضى وللأسفار، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر فى السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه، فهذه كلها تذكر فى الفلاحة. الرابع: نتكلم على أمور مختلفة من علوم الطبيعة ومن علم المواليد الثلاثة، ومن العلوم الرياضية وهناك نتكلم على المادة المغناطيسية التى تستعملها الأطباء فى معالجة الشلل ونحوه، وكذلك القوة الكهربائية، والحرارة الكروية، والحوادث السماوية، والندى، والمطر الذى يحدث بين المدارين، وكذلك نتكلم على أحجار الصواعق، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان، وميزان الحر، وميزان الرطوبة، ووقاية الرعد، والنظارات الفلكية، والنظارات المعظمة للأشياء الدقيقة التى لا يدركها النظر.
ونتكلم أيضا على علم المعادن واستخراجها وقطع الحجارة من مقاطعها، وعلى علم الحشائش الطبية، والنباتات المستعملة فى الفنون والصنائع، وعلى البهائم النافعة، وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة. الأمر الخامس: يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف وسياسة الدولة، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول، وعلى سبب ثروتها وغنى أهلها، وعلى أحوال المعاش والمعاد وعلى ولادة الذكور والإناث فى كل بلدة من البلاد، وعلى الإدارة الملكية، وعلى الأصول العامة المستعملة أساسا لسياسات

الأفرنج، وهي الحقوق العقلية والحقوق القانونية والحقوق البشرية، أي الحقوق التي للدول بعضها على بعض. السادس: سياسة الصحة العمومية والخصوصية، ففي ذلك نتكلم على تلقيح البقرى للجدرى، وعلى الطاعون ومعالجاته، وعلى الأمراض والعوارض العامة وعلى بعض تشريح. السابع: نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم مثل علم الفصاحة، وفيه نتكلم أيضا على المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة، ونبذات فى تواريخ البلاد خصوصا مصر، وعلى حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الإفرنجية والمشرقية، وكذلك نذكر شيئا من علم المنطق، ونبين الوسائط المسهلة المعلمة بالإيجاز للقراءة والكتابة والحساب، وطرق تعليم هذه الأشياء فى أقرب زمن لسائر العامة. الثامن: نبحث فيه عن عدة أشياء متنوعة، وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية وإقامة العربات العامة وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة، والاشارة المسماة تيلغراف - يعنى إشارة الأخبار - وجميع الأشغال المتجددة عند الإفرنج، ونضم لذلك اوحات أشكال لكمال الفائدة، وكذلك نرسم خرطات جغرافية وصور النباتات والحيوانات التى تنقل من البلاد الغريبة وتربى فى مصر، ونذكر كثيرا من الأمور التى تتجدد على تداول الأزمان. وبالجملة فنذكر نبذا صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقات سهلة الفهم لسائر الناس، ولا نستعير منها شيئا من صعاب الكتب انتهى كلامه. ولم ينجز ما وعد به لأنه عاق ذلك على الإرادة السنية ولم يصدر له أمر إلى الآن. وبالجملة فهو من المولعين بحب مصر ظاهرا وباطنا ومن الراغبين فى خدمة الوالى حبا له ولدولته.

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى فى ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التى لا ينكر معارفها إلا من لا إنصاف عنده ولا معرفة له، قال الشاعر:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

والفضل كالشمس لا يخفى على أحد ... إلا على أكمه عمّا يراه عمى

ولا ينبغى أن يمنع ذو الحق حقه، كما قال الشاعر فى هذه الأبيات المملوءة من الحكمة:

إذا كنت فى حاجة مرسلا ... فأرسل حكيما ولا توصه

وإن ناصح منك يوما دنا ... فلا تنأ عنه ولا تقصه

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبا ولا تعصه
وذو الحق لا تنتقص حقه ... فإن القطيعة فى نقصه
ولا تذكر الدهر فى مجلس ... حديثا إذا كنت لم تحصه
وقص الحديث إلى أهله ... فإن الوثيقة فى قصه
ولا تحرصن فرب امرىء ... حريص مضاع على حرصه
وكم من فتى ساقط عقله ... وقد يعجب الناس من شخصه
وآخر تحسبه أنوكا ... ويأتيك بالأمر من فصه

ولا أحد يخلص من قال الناس وقيلهم ، كما قال الشاعر :

ومن ذا الذى ينجو من الناس سالما ... وللناس قال بالظنون وقيل

وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية . فلا معول على من لم يكن تعز السياسة . ساطع الكياسة ، ولا اكتراث إلا بمن رقى رتبة علية فى الرسوم والقوانين وتشبث بالشريعة ، وكان فيها ذا رياسة . ودرى أن القصد إنما هو حسن أهل ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس ، وما يؤهلهم لإملائهم الأحكام على هؤلاء الناس .

وبالجملة فنحن الآن على ما كان عليه الأمر فى زمن الخلفاء العباسية ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه ... وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ولبعض أقاربى :

يا من غدا معجبا ما اقترحت وقد ... أضحى يروم مقال العاذل اللاحى
أما رأيت إذا شمس الضحى غربت ... يلجا الحريص إلى ضوء بمصباح

وقال آخر :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ... ولا يكون له فى الأرض آثار

وعلى كل حال فأرجو ممن نظر فيه أن يتصفحه بجملته ، ليكون على بصيرة مما يقول ، فإن المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ، ولا أقول إلا كما قال الشاعر :

فإليك وشيا حاكه ... فى الطرس ذو باع قصير
واستر إذا عيب بدا ... والله يعفو عن كثير

انتهى الكتاب ، وقد حذف منه بعض العبارات التى كانت تستخدم عادة عند ذكر أسماء الحكام تفخيما لهم ، مما كان متبعا فى عصر المؤلف ، ولم يمس هذا الحذف ما فى الكتاب من الحقائق العلمية أو التاريخية ..

# فهرس كتاب

## تخليص الإبريز ، فى تلخيص باريز

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة ( بقلم محقق الكتاب ) ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٣ |
| تقريظ الشيخ حسن العطار للكتاب ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٥٣ |
| فاتحة الكتاب . ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٥٥ |
| المقدمة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٥٩ |
| الباب الأول : فى ذكر ما يظهر لى من سبب ارتحالنا إلى هذه البلاد . . . ... ... | ٥٩ |
| الباب الثانى من المقدمة : يتعلق بالعلوم والفنون المطلوبة ، والحرف والصنائع المرغوبة ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٦٦ |
| الباب الثالث من المقدمة : فى ذكر وضع البلاد الإفرنجية ، ونسبتها إلى غيرها من البلاد ، ومزية الأمة الفرنساوية على من عداها من الإفرنج ، وبيان وجه الحكمة فى إرسالنا إليها دون ما عداها من ممالك الإفرنج ... ... ... ... | ٦٩ |
| الباب الرابع من المقدمة : فى ذكر رؤساء هذه السفرة ... ... ... ... ... ... | ٨٠ |
| المقصد : فى مدة السفر من مصر إلى باريس ، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق ، أو مدة الإقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية ، والفنون ، والعدل ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٨٢ |
| المقالة الأولى ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٨٣ |
| الفصل الأول : فى الخروج من مصر ، إلى دخول ثغر اسكندرية . ... ... | ٨٣ |
| الفصل الثانى : فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة ... ... ... ... ... ... ... | ٨٤ |
| الفصل الثالث : فى ركوب البحر المالح المتصل بثغر الإسكندرية ... ... ... | ٨٨ |
| الفصل الرابع : فيما رأيناه من الجبال، والبلاد ، والجزائر ... ... ... ... | ٩١ |
| المقالة الثانية ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... ... | ٩٧ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

الموضوع | الصفحة

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

# تنبيه واعتذار

حينما قرر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب طبع هذا الكتاب ، بمناسبة الاحتفال بذكرى مؤلفه ، بذلنا ما يستحقه الكتاب والمؤلف من الجهد، وقد تفضلت وزارة الثقافة والإرشاد القومى بطبع الكتاب ، مساهمة منها فى هذا الاحتفال .

وكنا نبغى أن يظهر الكتاب محررا خاليا من كل خطأ ، ولكن عهد بتجارب الطبع إلى مُصَحح أقحم نفسه فى العمل ، فشوه بعض نصوص الكتاب ، وأفسد الكثير من تعليقاتنا عليه ، فكان حينا يخطّىء المؤلف فى بعض استعمالاته لما هو صحيح فى اللغة ، وحينا يضع تعليقا خاطئا يختلط بتعليقاتنا ، فينسب إلينا ، وحينا يغير بعض تعليقاتنا بما لا نرضاه .

كما وضع فى ثنايا الكتاب أرقام صفحات ، هى أرقام الصفحات فى طبعة سابقة ، ولم يكن ثمة داع إلى وضعها .

وبذلك شغل المصحح نفسه بأمور ليست من عمله ، فنشأ عن ذلك أخطاء مطبعية لا تكاد تحصى ، مما أثبتنا أهمها فى ملحق خاص ، تاركين ماعداها مما يدركه القارىء بنفسه .

وبودنا أن لو قام القارىء بتصحيح الكتاب قبل أن يبدأ قراءته .

مهدى علام ، أحمد أحمد بدوى ، أنور لوقا

# تصويبات

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٥ | ١ في الهامش | Cerrespondance | Corresponndance |
| ٥ | ٣ | الأجانب | أجانب |
| ٩ | ١٥ | تظهر | تتداول |
| ١٧ | ١٢ | سقنيه | سفينه |
| ١٨ | في الهامش | | ( تضاف العبارة الآتية : « لا يفوتنا التنويه بتعريب رفاعة كلمة « البيانو » بكلمة « بيانة » وهي الكلمة التي أقرها مجمع اللغة العربية بعده بأكثر من قرن ، ولرفاعة جهد مشكور في هذا الميدان . |
| ٢١ | ١٥ | قليل | قليلا |
| ٢٩ | ٢٠ | پرسقال | دى پرسقال |
| ٣٠ | ١١ | من سذاجة | من صورة من صور السذاجة |
| ٣٣ | ١٩ | التحليل | التحيل |
| ٣٨ | ١٣ | طبع الكتاب لأول مرة | الطبعة الأولى |
| ٤٧ | ٧ | إذا | إذ |
| ٤٧ | ٨ | إلى ابتكار | إلى حد ابتكار |
| ٤٧ | ١٥ | أتبع | أشبع |
| ٤٧ | ٢٤ | خفيفا | خفيفة |
| ٤٩ | ٣ | deportement | département |
| ٤٩ | ٤ | Leprefét | Le préfet |
| ٤٩ | ١٩ | washington | Washington |
| ٤٩ | ٢٢ | Chambrt | Chambre |
| ٤٩ | ٢٤ | banguicrs | banquiers |

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٥٠ | ٢ | Séputés | Députés |
| ٥٧ | (١)فى الهامش | فى المطبوعة(*) : خارجا | فى الأصل : خارقا |
| ٥٩ | ١٢ | النيئة | النيئة |
| ٦٠ | ٨ | الحالية | الحالة |
| ٦٠ | ١٣ | المتطرقين | المتطرفين |
| ٦٠ | ٢٤ | أفريقية | أمريقة ( والهامش الملحق بها خطأ من مصحح المطبعة) |
| ٦٠ | هامش (٢) | فى المطبوعة : فى الصنايع | يحذف ، فهو لغو . |
| ٦١ | ١٨ | أيك ة | أيكة |
| ٦٢ | ٢٠ | ( الحيكام ) | الملوك |
| ٦٦ | هامش (٢) | ـ و ( الإباحية ) | يحذف |
| ٦٩ | ٨ | الافريقية | الافريقة |
| ٧١ | ١١ | السينيغبينيا | السينيغبنيا ( وهامش مصحح المطبعة وتصحيحه خلط الأمر ) |
| ٧٣ | ١ | بدوً ( ن ) | بَدو ( وهامش مصحح المطبعة وتصحيحه خلط الأمر ) |
| ٧٣ | هامش (٦) | Nouveelle - Brotagne | Nouvelle-Bretagne |
| ٧٤ | هامش (١) | Jndonerie | Indonesie |
| ٧٦ | ٥ | الاتباع | الابتداع |
| ٧٦ | ١٧ | كان | أن |
| ٧٨ | ٢٣ | علم | على |
| ٨٠ | ٦ | والمعرفة الأحكام | والمعرفة والأحكام |
| ٨١ | ١٢ | مكاتبه | مكاتيبه |
| ٨٣ | هامش(٢) | فى المطبوعة : المدنية | فى الأصل المدينة ( وهو الصواب ) |

(*) حيثما وجدت كلمة « المطبوعة » فى هوامش الكتاب تصحح إلى « الأصل »

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٨٤ | ١٤ | الأنديس | الأندلس |
| ٨٥ | ١٨ | مما | ما |
| ٨٧ | ١٣ | عنهما | عنه |
| ٨٧ | ١٥ | مبالغاة | مبالغات |
| ٨٩ | ١٧ | صف | غرف |
| ٨٩ | السطر الأخير | الخارجة | الخارجية |
| ٩٠ | هامش (١) | Stas-unis | Etats-unis |
| ٩١ | ١١ | سببا الحرب | سببا لحرب |
| ٩٣ | هامش (٢) | الطبائعية : | الطبائعية : علماء الجيولوجيا |
| ٩٣ | ١٧ | الإبرسيس | الرسيس |
| ٩٤ | الأخير | يؤلمكى | يؤلمك |
| ٩٥ | ٥ | وفى الرابع | وفى اليوم الرابع |
| ٩٥ | هامش | راجع ص ٥٩ | راجع صفحة ٩١ |
| ٩٨ | ٢٣ | الفوكه | الفواكه |
| ١٠١ | ٤ | المرا ة | المراة |
| ١٠٢ | ٦ | يعرف ( و ) يقرأ | يعرف يقرأ |
| ١٠٢ | ١٠ | إنها | أنها |
| ١٠٢ | ٢٢ | عبد وهاب | عبد الوهاب |
| ١٠٣ | هامش (١) | فى المطبوعة للعربية | فى الأصل : للعربة (وهو الصواب) |
| ١٠٣ | هامش (٢) | مسلسل بعضها ببعض | متصل بعضها ببعض |
| ١٠٨ | ٢٠ | وثمانى وأربعين | وثمانيا وأربعين |
| ١٠٩ | ٨ | بينها وبين القاهرة | وبينها وبين القاهرة |
| ١٠٩ | ١٤ | خمسة عشرون | خمسة وعشرون |
| ١١٠ | آخر سطر | الأوذ | الأود |
| ١١١ | ١٠ | لمن | من |
| ١١١ | آخر سطر | يعينون بتطبع | يعتنون بتطبيع |

| الصواب | الخطأ | السطر | الصفحة |
| --- | --- | --- | --- |
| النباتات | للنباتات | ٨ | ١١٢ |
| ثلاث | ثلاثة | ١٦ | ١١٢ |
| خمرة | حمرة | ٢٢ | ١١٣ |
| روضة | روضـ ة | ٥ | ١١٥ |
| Boulevard | Pouloir | هامش (٣) | ١١٧ |
| قبيل | قبل | ٨ | ١١٩ |
| طبعهم | طبيعهم | ١ | ١٢١ |
| بشكرك | يشكرك | ٦ | ١٢٢ |
| الأصل | المخطوطة | هامش (١) | ١٢٢ |
| عذل | عزل | هامش (٢) | ١٢٣ |
| قناة | فناة | ١٧ | ١٢٣ |
| اللأم | اللام | هامش (٣) | ١٢٣ |
| تحذف لأنها من إقحامات مصحح المطبعة | كذا ، والعبارة تشعر .. الخ | هامش | ١٢٤ |
| الممالك | المالك | ١٧ | ١٢٤ |
| رئى | ربى | آخر سطر | ١٢٦ |
| كلماته | كلماتها | ١٧ | ١٢٧ |
| والحِكَم | والحكمَ | آخر سطر | ١٢٩ |
| أخنّ | أخنّ | ٢٥ | ١٣٢ |
| وقعن | وقع ن | ٢٠ | ١٣٤ |
| واثنتين | واثنين | ٢٠ | ١٣٥ |
| Chambre | Chamlre | الهامش | ١٣٨ |
| مكان | مكان من | » | ١٣٨ |
| وهى كلمة كانت تستعمل فى مصر إلى عهد قريب. ( والخطأ من فضول مصحح المطبعة ) | وهى كلمة تستعملها العامة فى مصر إلى وقتنا هذا | الهامش | ١٣٩ |
| المشورة | المشهورة | السطر الأخير | ١٣٩ |
| Charte | Sharte | الهامش | ١٤٠ |

| صفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ١٤١ | ٦ | يجرى | يجزى |
| ١٤١ | ٧ | « الفرنساوية | للفرنساوية |
| ١٤٣ | ٦ | يصوغ | يسوغ |
| ١٤٣ | ٢٠ | للملك أن يعقب | وللملك أن يلقب |
| ١٤٤ | ٧ | [ غير ] | تحذف لأنها إقحام من مصحح الكتاب أفسد المعنى |
| ١٤٥ | ٣ | « للكتور » | « اللكتور » |
| ١٤٧ | الأخير | الفردة | الفرد |
| ١٥٠ | ١١ | تشوق | تشوف |
| ١٥٠ | ١٥ | يستهان ( بها ) | تستهان |
| ١٥٥ | ٢٤ | أوضعهم | أوضهم |
| ١٥٦ | ٤ | حيقيقة | حقيقة |
| ١٥٧ | ٤ | الأراضى | الأرضى |
| ١٥٧ | ١٧ | الليل | نصف الليل |
| ١٥٨ | الهامش | بالشادلون أى الكرسى الطوال | بالشازلون أى الكراسى الطوال |
| ١٥٨ | ٢ | والشذلانات | والشزلانات |
| ١٦٠ | ١٠ | وأدمْ | وأدمُ |
| ١٦٠ | ١٢ | ان أمر | أمران |
| ١٦٥ | هامش (٢) | Spectocle | Spectacle |
| ١٦٦ | ٢١ | لموميك | كوميك |
| ١٦٦ | ٢١ | المقترحة | المفرحة |
| ١٦٧ | ٢١ | إن | أن |
| ١٦٨ | ١٢ | إلا فيها | إلا أن فيها |
| ١٦٨ | هامش (٢) | ليصفق | ليصفو |
| ١٦٩ | هامش (٢) | اللحم | لحم الطيور |
| ١٧٠ | ١١ | الصين | السين |

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ١٧٣ | ٣ | الرياضيات | الرياضات |
| ١٧٤ | هامش ١ | Physiolegie | Physiologie |
| ١٧٧ | ١٢ | المجرد | المجرب |
| ١٧٧ | ١٣ | دار . . . دار | دارا . . . دارا |
| ١٧٨ | ٣ | الخو | الحر |
| ١٧٨ | هامش | الثقل | الثفل |
| ١٧٨ | ١٢ | الخلق | الحلق |
| ١٧٨ | ١٧ | منهما | منها |
| ١٧٨ | ٢٠ | باعتقاد | باعتناء |
| ١٧٩ | ١١ | المعدد | المعدة |
| ١٨٨ | ٥ | من وجود | من غير وجود |
| ١٨٨ | ١١ | تحققه | وتحققه |
| ١٩١ | ١٦ | شروط | شروط : |
| ١٩١ | ٢٠ | ماله | ما آله |
| ١٩٤ | ١ | إكرامها | كرمها |
| ١٩٩ | هامش (١) | Roulge | Roulage |
| ١٩٩ | هامش (٣) | jiacre | fiacre |
| ٢٠٣ | ٩ | الكتابين | الكتابيين |
| ٢٠٥ | ١٥ | ومثلا | مثلا |
| ٢٠٨ | ٨ | طالعه | طالعته |
| ٢٠٨ | ١٥ | وكَلبُنَى | ولبَنِي |
| ٢١٠ | ١٢ | ما يوجد | ما لا يوجد |
| ٢١٠ | هامش (١) و (٢) | (1) Arsenal la bibliotheque (2) Mozarine | (1) Arsenal (2) La Bibliothéque Mazarine |
| ٢١٢ | هامش (2) | Obrerratire | Observatoire |
| ٢١٥ | ١٢ | علماء | علما |

| صفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٢١٥ | ١٧ | الغوربية | الغربية |
| ٢١٥ | ١٨ | الغربية | الغربية |
| ٢١٦ | هامش (2) | Sociète pḱilomatéque | Société philomathique |
| ٢١٦ | هامش (3) | Asıatique | Asiatique |
| ٢١٦ | ٢١ | ابنا | أبناء |
| ٢١٦ | ٢٣ | واللغات | أو اللغات |
| ٢١٧ | ١ | الغربية | الغربية |
| ٢١٨ | ٨ | الكوليج | الكوليج (٢) |
| ٢١٨ | ١٨ | والطبيعية المخلوطة | والطبيعة المخلوطة |
| ٢١٨ | ١٨ | والطبيعية | والطبيعة |
| ٢١٨ | هامش (2) | Collége | Collège |
| ٢٢٠ | ١٠ | وتطبع | وتطبيع |
| ٢٢٢ | هامش (١) | Gszettes | Gazettes |
| ٢٢٥ | ٨ | مدة | عدة |
| ٢٢٦ | ٧ | على | علمى |
| ٢٢٩ | ١٤ | ترتكب | يرتكب |
| ٢٣١ | ٨ | القوب | القلوب |
| ٢٣٢ | ١١ | بموجيه | بموجبه |
| ٢٣٧ | ٤ | سنة ٧٨٣١ | سنة ١٨٣١ |
| ٢٣٧ | ١٤ | أوروبا العلوم | أوربا فى العلوم |
| ٢٣٧ | ١٥ | بكتابة | بكتابه |
| ٢٣٨ | ١٥ | فى الكتاب هذا | فى هذا الكتاب |
| ٢٣٨ | ٢ | يستبدل | يستدل |
| ٢٣٨ | ٨ | اشتماله | الأول اشتماله |
| ٢٣٨ | هامش (١) | Departement | Département |
| ٢٤١ | هامش (2) | Lmonry | Lomonry |

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ٢٤٢ | هامش (3) | hebitudes | habitudes |
| ٢٤٢ | هامش (9) | (9) Ségur | (6) Ségur |
| ٢٤٢ | هامش (8) | arithmêtique | arithmétique |
| ٢٤٣ | ٣ | ألفها التعليم [١] بنته | ألفها لتعليم بنته |
| ٢٤٣ | ١٦ | سستزفيلد | شسترفيلد |
| ٢٤٣ | هامش (7) | des | Les |
| ٢٤٤ | ١٠ | معظم | معجم |
| ٢٤٤ | ١٠ | ولتير (٣) | ولتير |
| ٢٤٤ | ١١ | « قندلياق » (٤) | « قندلياق » (٣) |
| ٢٤٤ | ١٦ | (٥) | (٤) |
| ٢٤٥ | ١٤ | تسهل | تستسهل |
| ٢٤٨ | ٥ | مارس | مارث |
| ٢٤٨ | ٢٢ | مسيو دهنبلد هنياض | مسيو دهنباض |
| ٢٤٨ | هامش (١) | فى المطبوعة : مسيو دهنياض | ( يحذف الهامش لفضوله ولخطئه ) |
| ٢٤٩ | ١٣ | الدر | الدرر |
| ٢٤٩ | ٢٣ | المذكرر | المذكور |
| ٢٥٠ | ١ | إشكال | أشكال |
| ٢٥٠ | هامش (٣) | Lacosmogsaphier | La Cosmographie |
| ٢٥١ | ٧ | جزء | جزءا |
| ٢٥٧ | ٢ | إن ابن | إن بنى |
| ٢٥٧ | ١٧ | العساكر | العسكر |
| ٢٥٩ | ٤ | بايس | باريس |
| ٢٥٩ | هامش (١) | Lafayttoa | La Fayette |

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
| --- | --- | --- | --- |
| ٢٦١ | ١٤ | « ذبردو » | « دبردو » (٥) |
| ٢٦١ | ١٨ | الكبائر | الكبار |
| ٢٦١ | هامش (٤) | Dauphinp | Dauphin |
| ٢٦٣ | ٣ | دوليان | دورليان |
| ٢٧١ | ١٣ | ملكته | مملكته |
| ٢٧٤ | ٢٠ | م بعد | بعد |
| ٢٧٩ | ٧ | لجميعهما | لجمعيهما |
| ٢٨٠ | ١ | من ركاكة | من غير ركاكة |
| ٢٨٢ | ١٠ | لليل | الليل |
| ٢٨٢ | ١١ | دمى | دمعى |
| ٢٨٢ | ١٢ | خجلا | خجل |
| ٢٨٣ | هامش (٩) | وصغارها | أو صغارها |
| ٢٨٤ | ٣ | بزرة | بزورة |
| ٢٨٤ | ١٢ | للمحافل | للمعاقل |
| ٢٨٦ | ١٣ | إذا كانت | وإذا كانت |
| ٢٨٨ | ٢١ | رها | زها |
| ٢٨٨ | هامش (٥) | زهاء : ازهار | زها : ازدهر |
| ٢٨٩ | ١ | السير دونها | السيردونها |
| ٢٨٩ | ١٠ | الموصل (٣) | التوصل |
| ٢٨٩ | هامش (٣) | الأصل : التوصل | ( يحذف هذا الهامش الذى أقحم فأفسد ) |
| ٢٩٢ | ٧ | هو وناف | هو ناف |
| ٢٩٢ | ٩ | إنك تبحث | فإنك تبحث |
| ٢٩٥ | هامش (1) | L, Arithméique | L'Arithmétique |

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
| --- | --- | --- | --- |
| ٢٩٧ | ٩ | المحمرة | المجمرة |
| ٢٩٧ | هامش (١) | Copernic | Copernic |
| ٢٩٨ | ٢٢ | تحتها | تختها |
| ٣٠٠ | ١٧ | تملك | بممالك |
| ٣٠٢ | ٢١ | « تيمور » | « نيمور » |
| ٣٠٤ | هامش (٣) | الصواب : طست | ( يحذف ، لأن رفاعة لم يخطىء حين استعمل « طشت » ) |

طبع هذا الكتاب بنفقة وزارة الثقافة والإرشاد القومى مساهمة مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى إحياء ذكرى رفاعة رافع الطهطاوى : (١٨ - ٢٦ ديسمبر ١٩٥٨ م)




شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

